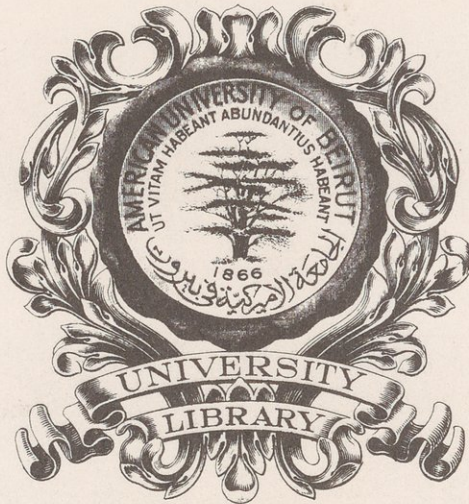


CLOSED
AREA

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



لر و س

٦٠
ربا



نقلم مار و ر عبو

مَكْتَبَةُ خَلِيلِ بْنِ أَفْرَاسِيَابَ كَيْسَرِيٍّ

مُهَدَاةٌ إِلَى

الْمُعْهَدِ الْأَسْيَانِيِّ لِلأَبْحَاسِ الشَّرْقِيَّةِ

فِي بَيْرُوتَ

المؤلف

زوجة الدهور
وجوه وحكايات



في الاعداد

فارس آغا

مازون عبود
الحق لا يتغير فليس رُغم تركيز مع تقدر
المؤلف ومحبته
مارس
عبد
١٩٠٦/٦/٢٧

892.7109
A134rA

الزوائد



INVENTARISIERT UNTER NR.

32.708

Geschrift mit Bleistift

طبع من هذا الكتاب ١٥٠٠ نسخة على
ورق عادي ، وست نسخ على ورق
« بولي » مرقمة من ١ الى ٦ .

الطبعة الاولى ١٩٤٦ ، جميع الحقوق محفوظة

الى ابي اللبنانيين وزعيمهم المجاهد

السَّيِّدُ بشاره خليل الخوري

رئيس الجمهورية اللبنانية

تقديراً واحتراماً لنضاله على جبهتي الثقافة والسياسة

مارون عبود

الأوائِل

حب وشرب وهرب

حدّد لنا طريقة ، قاصداً او غير قاصد ، غاية الحياة العربية البدوية بقوله :
ولولا ثلاث هنّ من لذة الفتي وجدّك لم احفل متى قام عوددي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة . كميت متى ما تُعلّ بالماء تزد
وكرّتي ، اذا نادى المضاف محبباً ، كسيد الغضا زبته المتسورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بيهكنة تحت الحباء المعمد
هذه صورة « السيد » الجاهلي . فهو يرى ان الحياة تنتهي عند باب القبر ،
وان الموت نهاية كل حي :

فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني ابادرها بما ملكت يدي
يريد العربي ابن يأكل خيرات في حياته ، ولا عاش كل بخيل .
واذا فتشنا عن الملامح الاخرى وجدنا اكثرها عند هذا الشاب . أما
ما ينقصنا من خطوط فهو عند السيد زهير ، في « من ومن ومن »
التي اطراها عمر بن الخطاب ، الامام العادل والخير بكلام العرب . . .
اذا قلنا الشعر الجاهلي فكأننا قلنا الشعر العربي كله ، من امرئ
القيس حتى شوقي ، لان علم امرئ القيس ، حامل لواء الشعر في النار ،
ظل خفاقاً في سماء ادبنا العربي بضعة عشر قرناً ، ولم ينزل ، عند بعضهم ،
الا منذ اعوام . لم يتبع رجل في آداب الدنيا كلها كما اتبع هذا الشاعر .
يصعب علينا جداً ان نحلل الدم العربي بل ان نجد دماً عربياً خالصاً

لم يلقح بدماء اخرى . قد يستكف بعضنا من هذا الزعم ، ولو فكر
لقبله بغبطة ، لان العنصر المستعرب في امتنا هو ذو الشأن الاسمى ،
وحسبنا ان نعلم - لننقع ، ولا يتجهم وجه انانيتنا للحقيقة الساطعة -
ان النبي - صلعم - هو من العرب المستعربة لا العاربة . والعنصر الذي
استعرب بعد الاسلام ، ايضاً ، كان له ابعاد اثر في تطور الادب العربي
وتجديد دمه ، في النثر والشعر ، خيلاً وتعبيراً ، تفكيراً واغراضاً .
فلولا « المستعرب » لم يدخل هواء جديد الى قلعنا التي حصّناها بسد
نوافذها في وجه كل غريب . ان هذا « المستعرب » قد اعطى واخذ .
تأثر الى حد بعيد بالسلف وخضع لعقيلة العربي وخطته الشعرية كما خضع
لسلطانه الديني والمدني فقال الشعر عربياً في تفكيره وتعبيره واغراضه .
هذا بشار زعيم المجددين يفتخر في بائته كأنه عربي قح ، ولولا دلالة
تعبيره عليه لغزوت قصيدته الى شاعر جاهلي او اموي .

ان طبيعة المكان القاسية كيفت هذا الانسان الذي نسميه عربياً .
فانفراده في تلك الصحراء ، الحمراء السمر ، جعل لونه نحاسياً وعزيمته
فولاذية ودفاعه غريباً عجيباً . ان ذلك المناخ العنيد جعل الرأس العربي
رأساً فريداً ، اذ افنى الضعيف منه ولم يبق من هذا الرأس الاسمر الا
الصالح للحياة . اما نحن احفادهم فقد صرنا كما يقول الشاعر :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنيه
اذا قعدنا في مسرح هواء ناعم سعلنا طول الليل ، واذا عرقنا اصبنا
بزكام دائم قد يحملنا الى مصح ضر الباشق .

ان انفراد العربي في صحرائه جعل منه هذا الرجل الذي نعرفه ،
فالشجاعة العربية هي من هبات المحيط وعطاياه السنية [فالذي يعيش في
بيت من الوبر فلا بد من ان يكون شجاعاً ، حاضر البديهة والجنان

واليد ، ليقابل عدويه : الانسان والحيوان . والاباء العربي يدعوا اليه
اسلوب العيش ، فمن لا يستقر في مكان ما يأبى كل ما يذله ويستعبده .
فالعربي البدوي سائح دائم ، وعن هذا ايضاً نتجت قلة صبره ، وضعف
تعمقه في التفكير ، وارتجاله في كل شيء ، فالمبادرة سمة عربية . ان

المجد مبتدر ، كما يقول جرير . ان الاقامة الدائمة في مكان ما تحمل
الانسان على اطالة التفكير بما حوله ، اما المسافر الدائم ، سليل الشيخ
يعرب ، فلا ينظر الا الى مظاهر الاشياء ، ولهذا لا يتعمق العربي في
موضوعه . لقد شبهته بالنحلة تأخذ حاجتها من الزهرة وتظل الزهرة زهرة ،
لا ينقص شيء من عرفها وجمالها وطراوتها . بينا المفكر « الآري » يضعها
في الانبيق ، ولا يبقى الا خلاصتها ، اما عناصر جمالها فيأكلها اكلًا .

ومن خواص العربي الایجاز ، وهذا مقتبس من شكل الحياة ، فيثبه
وجيز ، ولباسه وجيز ، وطعامه وجيز . لا تلمه ان تغزل بعباءته :

ولبس عباءة وتقرّ عيني احب الي من لبس الشفوف

فهي كل شيء . تصلح لكل ما له من مآرب . فهي الجبة والرداء ،
والقميص والحقاف ، والبرنس ، والمشع ، والطراحة . وهي خيمته تقيه
الهجير ، متى اركز عصاه في الرمل ونشرها عليها وقعد يتفأ لىستريح او
ينام . اعذره ، ولا تملّ ، متى قرأت وصفه الناقة ، فهي مستودع البقاء ،
هي سيارته الخاصة ، وهي سيارة الشحن ، وهي مطبخه واهراؤه . هي
مصدر جميع المواد اللازمة له ، ومن وبرها يكتسي ، والله درها ، فكل ما
فيها نافع ، حتى زبلها ، فانه كالقمح الحجري .

اما الكرم فاسلوب الحياة دعا اليه . العربي يسوق ثروته امامه وهي
معرضة للهلاك ، ولهذا لا يدخرها . انه وهاب نهّاب ، اشتراكي متطرف ،
يفزرو اذا جاع او احتاج ، ويكف يده عن جيرانه ما دام بخير . اما الغزو

فهو سنة اوجدتها الحال ، فالكفاح لحفظ البقاء تبرره جميع النظم دينية ومدنية . كان الغزو عندهم كحرب اليوم المقيدة بنظم تجب مراعاتها والا كانت الحرب ظالمة وغير مشروعة ، وكذلك الغزو ، وقد ضل من عد الغزو سرقة او كالسرقة .

والعربي متقلب في آرائه ، وقد اكسبه محيطه هذه الخاصة . هو غير عنيد ، غفور رحيم كربه ، لا يصر ولا يثبت ، ككل من يحب الفصاحة واللسن ، الا اذا كان له ثار فانه لا يهنا له عيش حتى يأخذه .

والعربي يغويه الظريف ، ويعجبه الذكي الظريف . واننا لنظلم الجاهلي اذا خلطناه بالبرابرة والمتوحشين ، فهو ابن مدينة ، ووارث حضارة . شهم ابي ذو شمم ، توحى اليك طلعتة كل هذا اذا تأملت . يثرثر العربي حيناً ، ويتكلم صامتاً احياناً . ذكي نجيب لبيب تكفيه الاشارة ليفهم ، حاضر الذهن ، حذر ، لأنه يواجه الاخطار في كل لحظة من حياته .

اختباراته محدودة ، وتحديدده لجميع الشؤون يكاد يكون عاماً ، لأنه سطحي في كل اعماله . يجب الامتزاج بالناس الى حد ما ، ثم يعود الى عزله . يعشق العدالة والحرية والمساواة وينتصر لجاره ، والجار عندنا قبل الدار لأنه عوننا في الملمات ، ولهذا نقول : جارك القريب خير من اخيك البعيد . ان العزلة العربية خلقت في الرجل العربي كل هذه الخصائص التي يترجم عنها شعره وادبه .

العربي تياه فخور ، وهذا ما يحمله على التبرج والتطوس والتطيب والتجمل ، فهو رجل مظاهر ، يباهي بكل شيء ويغالي جداً بالتبجح باصله وفصله . من هنا جاء العرب التقعر في حوادث تاريخهم وسردها على غواهنها دون تمحيص . ومن هنا جاءنا التشبث بعروبتنا حتى انكرناها على فريق من البشر فسيناهم « شعوبية » وان حذقوا العربية وجاؤوا

باروع مما انتجه العربي المحض . وحب العربي للقديم واعجابه به سد الطريق على الادباء اكثر من سبعة عشر قرناً ، فحُط شعرنا ونثرنا . وانكماش العرب في جزيرتهم جرّهم الى حب ذاتهم ، حباً لا هوادة فيه ، فرأوا انفسهم فوق العالمين اجمعين ، وحسبوا دمهم اسماً من دم الآخرين . ومن هذه الناحية جاءهم التشدد بالمصاهرة . ثم جرّهم تصنيف انفسهم وتأصيلها الى تصنيف خيلهم وتأصيلها .

وكذلك فعلوا ، بعد الفتح ، حين خالطوا الشعوب الاخرى فقسّموا نساءهم اربع طبقات : امة وجارية وام ولد وسيدة . فالامة للرعي والحلب ، والجارية لخدمة الدار ، واذا شرفها سيدها بتزوجها وعلقت منه سميت ام ولد ، اما السيدة فلا تكون الا عربية ، وتقصى هذه في قعر البيت ، وراء الستار ، لتظهر على المسرح تلك المسماة « جارية » ، ومن هنا جاء قولنا : ابن الست وابن الجارية .

وهذا التثبث بالعروبة كان وياً على الدولة واللغة ففرّق العناصر التي وحدها الدين واللسان . فالاجنبى - كما قلت غير مرة - اذا اقام خمس سنوات فقط في الولايات المتحدة حق له ان يصير اميركياً ، بينما المستعرب - عند بعضنا - لا يصير عربياً حتى يوم القيامة .

والعربي مزواج مطلق ، ولذلك اسباب : اولاً لأنه يحب النسل ، وشعاره : اما العزة للكثير . فهو مجنون بحب العزة . ثانياً لأنه شهواني ، وهذه الشهوة توقظها طبيعة المحيط الحار . يكثر العربي من الزوجات لأنه مطبوع على التنقل ، حتى في الحب ، ناهيك ان المرأة البدوية هي عضد زوجها وعونه ، فهو لا يخدمها ، كما هي الحالة اليوم .

وتحجب المرأة جاء من الغيرة عليها ، فالحجاب العربي مخالف لما اختطه بنو اسرائيل ، قبل العرب . فالتوراة تخبرنا ان تامار تغطت ببوقع ،

وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمّة ، فحسبها حموها يهوذا زائنية ،
لأنها كانت قد غطت وجهها ، فقال اليها على الطريق ، فاعطاها رهنأ
خاتمه وعصابته ، وعصاه التي في يده (تك ٣٨) .

ومن التقاليد العربية والحجاب ، جاءنا هذا السيل العرم من الغزل .
فنحن - وقد يكون غيرنا مثلنا - نفكر دائماً بالمرأة ، والاكثر منها ،
ونراها متعة . قد يكون الامر كذلك عند كل امة ، ولكن المرأة لم
تحتل عند جميع شعرائهم القسم الاوفر من الادب ، حتى كاد يكون الغزل
لأدبنا كالمالح للطعام - من حيث الوجوب والضرورة لا من حيث القلة
والكثرة .

وافراط العربي في المحبة الجنسية حمله على المغالاة في صون المرأة والغيرة
منها وعليها ، وهو الذي حمله ايضاً على وأد البنات . ومن اسباب وأد
البنات ان كثرة الزوجات تؤدي الى كثرة النسل ، فشاء العربي ان يظل
خفيف الظهر فلم يبق من بناته الا اللازم « للتوريد » .

قال ابن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان نحاذر ان تقسم او تهونا

يقتن جيانا ويقلن لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا

ان للمرأة في الشعر كله ادواراً خطيرة ، وأخطر هذه الادوار في الادب
العربي ، وفي الحياة العربية البدوية . وهذه هند وغيرها ماذا فعلن عندما
قاتل المشركون النبي محمداً ؟ وهذه ليلى وغيرها كم هن من يد على تفتيق
القرائح وخلق الشعر الطيب !

ومن خصال البدوي الحماسة ، فهو متحمس حتى التهور ، ولذلك قلت
الاحلام في شعره فجاء قليل الالهاء ، فاففق في الفنون المستوحاة ، وبرع ،
فما بعد ، في الفنون اليدوية كالعمارة .

اظهر نبوغاً في الدروس العملية والذهنية ، يحلم بالحسيات لا بالمعنويات ،
يؤثر الحياة الجسدية على الروحية . فالروح امرها خالقها . يكره التصوف
والزهد . يقبل على الدنيا اقباله على الصلاة ، ويتمتع ويعمل لدنياه كأنه
يعيش ابدًا ، كما يعمل لآخرته كأنه يموت غدًا . يسّر دينه ولم يعسر فاخذ
من دنياه ما استطاع وترجى الآخرة رجاء قوياً .

البدوي لم يتقن عمله ولم يتوخّ الغايات البعيدة ، فهو سطحي في هذا ،
كما هو سطحي في شعره . وكذلك هو سطحي في اعماله الاولى ، وكل
ذلك ناتج عن نشأته الاولى ، عن وحدته وانفراده . فكما لا تتقصى
اغنامه مراعيها فتقضم وتخضم ، تأخذ المتيسر ولا تطالب بالمتعسر ، كذلك
صاحبها في اعماله حتى بعد حضارته . ولو فكر الخلفاء في الغد البعيد لما
زال ظل الامبراطورية العربية بسرعة . وهذه السطحية في حياتنا هي التي
كانت اقوى اسباب جمود شعرنا ووقوفه في عرض الطريق . ان العربي
كراكب البحر ، يستعرض ما يمر به من مناظر فتانة خلافة اكثر ما
يعنيه ما في البحر من اسرار .

يتخيل العربي ، انما بوجه عام ، فيحكم على الامور حكماً قاطعاً دون
برهان ، يعتمد على ذكائه فلا يبالي باكتساب ما عند غيره ، وهذا شأن
كل معتدّ بنفسه كالعربي ، فهو في العموم اقدر منه على الخصوص .

احلامنا تزن الجبال رزانه وتحالنا جناً اذا ما نجمل

لم يصدق الفرزدق ، فالعربي يثور لأقل سبب ، ولا يهدأ ان لم يشف
نفسه ويثأر .

العربي مغامر اذا دفع ، والبيان يهيجه اكثر من الموسيقى ، فهو يفكر
بقلمه لا بعقله . يفي اذا صادق ، ان لذت به امنت ، فاما ان يصونك
واما ان يموت دونك / ان هذا ميراث دهور اصبح دين العرب

الامثل وعقيدتهم الغالية . فالعربي لا ينام على ضيم ، يقابل السيف بالسيف ، ويأخذ بثأره بعد اربعين عاماً . . . يصبو الى الآداب اكثر من العلم . يعيش بقلبه لا بعقله ، وهو مع ذلك يحب العدل ، واباؤه وعزته يبغضان الرحمة اليه . يرضى البدوي بالحالة الراهنة اذا كان في سعة ، ولم تمس حريته . ولا يضح منها ويطلب غيرها الا في الضيق . يحب حرية القول ولكنه لا يكافح دونها مكافحته ضد قيود حريته . يؤثر العافية الا اذا اهن ونيل مما يقده .

يتحد اذا واجه خطراً اجنياً . واذا امن عاد الى التنازع الداخلي . لا يدعن الا للتقاليد ، ولا يغيرها الا مرغماً ، كما انه لا يطيع الا مكرهاً . وهذا عائد الى اسلوب حياته الاصلية الذي عوده ذلك . ينشد الاستقلال ابداً ، يؤثر بيتاً تحفك الارياح فيه على قصر منيف يحبس فيه حواسه الخمس ضمن جدران اربعة ولو رفعت من ذهب .

لا يقلد ، ولا ينزل عن قيافته . يريد ان يكون متبوعاً لا تابعاً ، وسيداً لا مسوداً . يحب الحشونة : واخشوشنوا فان النعم لا تدوم . ويفضل اللذات على الثروة . يجمع لينفق ويحسن ، لا ليمنع ويثري . قليل التفكير بالعواقب ، يؤمن ويصدق ، ولكنه لا يدع معتقداته ولو تبين له فسادها . قلما يأخذ بالنظريات « الفلسفية » ، فحسه متسلط على فكره .

كل شيء وجيز ومتعب وصعب في المحيط العربي . فما الصحراء الا بحر يابس جاف ، ولو كنت مكان عمر حين سأله احدهم صف لي البحر ، لقلت له : صف لي الصحراء ، فالصحراء جافة كهوائها ، وكونها على نط واحد جعل كل شيء عند العربي ، حتى شعره ، على نط واحد . فهي التي صيرت البدوي فظاً ، غليظ القلب .

ان محيطاً كله جفاف ويبوسة يجعل كل شيء ينشأ فيه يابساً .

فظواهر الجزيرة الجوية قاسية ، والوان مناظرها وطباع سكانها
وبنيتهم جاءت من نوعها . ندر المطر عندهم واشتدت الحرارة فقالوا :
برّد الله ضريحه . واذا انهل المطر سقط بغزارة فأفسد ، ولهذا قال الشاعر :
وسقى ديارك غير مفسدها صوب الغمام وديمة تهمني
وفي الحديث : اللهم حوالينا لا علينا . ووصف طوفان امرئ القيس
دليل قاطع ، فانظر كيف ابتدئت نزهته وكيف اختتمت .
ان حالة كهذه تضيق الصدر ، ومع ذلك لم تبلغ بالعربي حد التطرف ،
فقد رأينا حملاً ، ولكن الحلم ليس اولى خصال العرب ، وان ادّعوه ،
فمن لا يظلم الناس يُظلم .

ان قلة الماء تخفف حتى اخلاق الرجال . ومتى جفت الطباع وقست ،
تبعها الشعر . فاذا رأيتهم يقتلون على ماء ويستعيرون الخوض في كلامهم
للتعبير عن مقاصدهم ، فاعذرهم . كل ما لهم ناطق ، والناطق يقتضي له
الماء ، ولولا مناخ الصحراء القاسي لما صبرت الناقة على الشرب ، وضربوا
اخماساً لأسداس .

لا يؤمن العربي الا بذاته ، وهذه الذات فئت في القبيلة . فالقبيلة
— قبل الاسلام — كانت الذاتية العربية ، فكان العربي لا ينظر الا اليها ،
وهي التي جعلت شعرنا كله ذاتياً . فالقبيلة كانت الاله المعبود ، ثم
صارت بعد الاسلام قبيلة اعظم واعز . فالبدوي لا يبالي كثيراً او قليلاً
بما وراء الكون ، وقد حسب الدين عرضاً يزول بزوال النبي ، وفي هذا
قال الخطيب :
اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا ويلتي ما بال دين ابي بكر
ايورثها بكرة اذا مات بعده وتلك ، لعمر الله ، قاصمة الظهر
ولذلك قلّ ذكر الله في الشعر الجاهلي . واقل من ذلك ذكر الثواب

والعقاب ، فهو في نظر البدوي حديث خرافة يسمعه ويتبسم ابتسامة مرة .
 حكى لي احدهم ان احد ائمة الدين البيروتيين ، او الدمشقيين ، ذهب
 الى قبائل شرق الاردن واعطاً فقعد يحدث بني صخر ذات ليلة عن الدينونة ،
 وكيف يكون الحساب عسيراً جداً فيعاقب الانسان على ما جنت يده .
 واطال الشيخ الامام الحديث ، فانبرى له اخيراً احد مشايخ بني صخر
 فقال له : يا شيخ ، في هذه « الغوشة » سيدنا موسى ما يكون ؟
 فاجابه الشيخ : بلى يكون .

— وسيدنا عيسى ؟

— وكيف لا يكون ؟

— والنبي ، صلى الله عليه وسلم ؟

— قبلهم كلهم .

فضحك البدوي ضحكة ازدراء وصاح بالشيخ : قم عَنَّا ، رعبتنا يا شيخ ،
 هؤلاء ثلاثة اجاويد ، بوجودهم لا يصير شيء .

واعجاب العربي بنفسه جعله لا يؤثر ادباً على ادبه ، وفي هذا تاه
 ايضاً الجاحظ العظيم حين قال : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى
 من تكلم بلسان العرب .

ويتخطى من هذا الى ان يرى في لغته كل شيء ، فسد منافذها وصانها ،
 واللغة كالكائنات تأخذ وتعطي لتحيا . ولهذا الاعتداد بالذات اصبحت لغتنا
 بما اصبحت من جمود ، مع انها ارحب اللغات صدراً ، وألينهن قدراً ،
 تتثنى كأن عظامها من خيزران . انها اوفر اللغات موسيقى لو احسننا
 استعمالها ولكننا غرنا ذاتيتنا وحسبنا الفن الشعري كله في العروض
 والقافية . مع ان لغتنا ليّنة مطواع كالذهب ، تطرق وترقق وتمدد كما
 تشاء ، فمها خشن الحرف فانه يسترخي متى جاوره حرف لين .

اننا نرى ذاتنا في كل شيء لأن انفراد العربي جعله لا يعرف غير ذاته ولم يختبر غيرها ، فاخذ يتلها بها في اديه . قال الاولون الجاهليون شعراً اعجبنا لأنه صور لنا حياتهم تصويراً صادقاً ، ولكننا حين نقرأ الذين جاؤوا بعدهم لا نرى شيئاً فنستحي من طلابنا اذ لا نرى مزيداً او شيئاً نقوله لهم . لقد تلها جميع شعرائنا بذواتهم - وعلى غط واحد - فجاء شعرهم متشابهاً . اذا قرأت شعر احد الجاهليين فكأنك قرأت الجاهلي والاموي والعباسي كله - ما خلا نقرأ من الشعراء احدثوا شيئاً جديداً ، وهؤلاء هم « الرؤوس » الذين سندرسهم .

ان اعتداد الجاهلي بنفسه واعتزاله غيره من الناس حال دون تطور الشعر . جاء خياله سطحياً حسيّاً لأن مروزه في صحرائه سطحي ايضاً ، يتبع مواشيه الى المراعي ، ينتقل ويلتفت فيرى كل شيء في محيطه متشابهاً ، ومن اين يأتيه الوحي ؟ وشعره ذاتي غنائي كله لأنه لا يدرك غير الساعة التي هو فيها :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي انت فيها
اذا هبت رياحك فاغتنمها فان الحافقات لها سكون
وان ولدت نياقك فاحتلبها فلا تدري الفصيل لمن يكون
ولهذا لا يعرف الاقتصاد والادخار . هو كالجلجل لا يبارح محيطه ، ومن كان هذا شأنه فمن اين يأتيه الجديد ؟ ولكن هذا لا يعني ان نصهم بالجلجل ونعدهم من البربر . ان العربي خلاصة انسانية . صهرته شمس الصحراء فلم تبق منه الا عروق الرجولة الحق وخطوطها .

والشاعر الجاهلي صورة صادقة لمحيطة وعصره ولون بلاده . اوحى اليه الحل والترحال شعراً غرامياً وتحرقاً وتشوقاً ، فبكى على الطلول . اما نحن اليوم فنرى الشعر العربي الصادق يموت . والا فاي فرق بين حاول

المصطافين ورحيلهم وبين حالة البدو في جاهليتهم؟ وما معنى تغزلنا بالزهرة وعشوت؟

ولكن العذر واضح ، فالشعر العاطفي لا يخرجنا الا الكبت والضغط ، واين هذا في زماننا ؟ فلا تكاد تطل المصطافة من شباكها صباحاً حتى يتواعدا ويلتقيا اما في قهوة او في دار سينما ، او او . . . ان الحب الصحيح قد مات .

يقول بعضهم : لا وحدة في القصيدة العربية او الجاهلية خصوصاً ، والحقيقة غير ذلك . فما وصف العربي - خذ مثلاً امرأ القيس ، ان صح ما زعم لنا من حكاية دارة جلجل - غير حوادث نهاره ، فهي موضوعه المستقل .

لست ممن يشكّون بوجود امرئ القيس ولا غيره ، فاذا لم يصف لنا قصور القسطنطينية فلأنه مات ولم يصلنا شعره ، واغلب الظن لأنه كان مشغول البال بالملك الذي ضاع فليعذره منكر وجوده . . . ناهيك ان زي وصف القصور لم يكن في تلك الايام .

اما الشك في صحة بعض الشعر الجاهلي فقديم قبل مرغليوث والذي انسحب على ذيله . . . فهذا الجاحظ يحدثنا عن ذلك في كتاب الحيوان . وهناك غيره كثيرون ممن شكّوا بنسبة شعر الى شاعر وهو ليس له . اما من زعموا سهولة الشعر تدل على عدم جاهليته فنقول لهم :

اذن ليست قصيدة : هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ، من عمل الفرزدق ، لأنها ليّنة هيّنة . الخلاصة ان هذا البحث لا يعنيني ، وهو لا يستحق من الاهتمام اكثر مما قلت ، وهذه كلمة افلتت من شق القلم بالرغم مني ، فلنمّ المامة قصيدة بزعماء الشعر الجاهلي .

الشعر الجاهلي

نظلم العربي الجاهلي اذا عددناه انساناً اولياً همجياً ، فالشعب الذي لا نستطيع ان ندخل على لغته الفاظاً ، وتراكيباً واصولاً وبياناً ، لا ينبغي ان يُعدّ كما عدّ اسلافنا الجاهلين تعصباً وزوراً . فهذه اللغة الكاملة ليونة ومرونة وتبسطاً ، اللغة التي انزل فيها كتاب كريم كالقرآن ، كتاب عظيم فيه البلاغة العظمى وفيه التشريع والتوحيد ، وفيه علاقات الانسان بخالقه ، وعلاقات الانسان بأخيه ، واللغة التي وسعت - كما وصلتنا - ثقافة الفرس وعلوم اليونان وحكمة الهند ولم تضق صدرها بكل ما عرض عليها من اعباء ثقافية وعلمية وفلسفية وكلامية ، لا تصدر عن رجل اولي .

لقد حان ان نحل الجاهلي محله السامي ما زلنا نتبع آثاره ولا نحيد عن اساليبه قيد شعرة . فالعربي الجاهلي عرف الحضارات التي تقدمته وهضمها عقله فاخرجها في شعره ، يوم كان الشعر لسان حال الشعوب ، واصدق دليل على مقدار رقيهم . واذا نظرنا الى الشاعر الجاهلي نظرة نزهة رأينا انه قد عبّر اكثر منا عن نفسه ، وصوّر لنا حياته كما هي ، بلا تدجيل ولا مواربة . كان الجاهلي يتكل على باعه وذراعه ، ولا يلقي همه على ربه كما نفعل نحن اليوم : الله يدبر ، على الله ، ان شاء الله ، بلا تقدير على الله . هذا حديثنا نحن عرب اليوم ، اما الله الجاهلي فبمعزل

عن كل هذا ، على العربي ان يدافع وان يسهر وان يسعى ، وما يجيء
من فوق فلا مرد له .

هذا امرؤ القيس يصف لنا في قصيدته خوالج نفسه ويعبر لنا عن
مشاكله بصور كلها محسوسة ، لأنه ابن بيئة لا يعنيه اي شأن من الشؤون
التي لا تحسبها . انه يتخيل ويحسن التعبير عن خياله ، واذا لم يسم خياله
الى ذروة الشعراء العظام فلأنه في محيط لا يوحى اكثر مما اوحى الى
صاحبه ، ولأن مدنيته لم تكن تلهمه اكثر مما الهمة ، فاستمد صورته مما
عين وشاهد . لم يكن في عصر الطائرات والسيارات فوصف حصانه
وشبهه بما يرى حوله من اوابد :

له أيتلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل
ورأى صدر حبيته يبصّ ويلمع فقال :

مهففة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
ونظر الى شعرها ولم تكن ثم « موضة » قص الشعر فاعجبه منه ذاك
الطول فقال فيه :

وفرع يزين المتن اسود فاحم اثيث كقنو النخلة المتشكل
غداؤه مستشزرات الى العلى تضلّ العقاص في مثني ومرسل
اما نظرتها فكظية من ظباء وجرة ، وجيدها كجيد الريم ، وخصرها
نحيل لّين ، وساقها كأنبوب النخل ، واصابعها كالأساريع - ديدان اظنها
ما نسميه نحن - بو مغيط - هذا تشبيه لا يشرف ذوق الشاعر الملك .
واخيراً يراها :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
وفي اعتصام المرأة بدموعها ، حين تدعو الحاجة ، يقول ويمجد كل الاجادة :
وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك في اعشار قلب مقتل

إذا لم نفهم كل ما قصد امير الشعراء ، وسيد المجددين في الأدب العربي ، والامام المتبوع سبعة عشر قرناً وأكثر ، فاننا نمرّ به ماطين الشفتين . اما اذا عرفنا انه يستغل « الميسر » الجاهلي في شعره فنذكر اجادته العظيمة في هذا البيت : فالسهمان هما عيناها ، وقلب امرئ القيس هو الجزور ، والجزور يقسم عندهم عشرة اقسام قد يفوز بها كلها سهمان اسمهما المعلّى والرقيب . ان هذين السهمين هما عينا غنيزة او فاطمة ، فهي قد غنمت حبیبها كله ولم تترك لأخرى شيئاً منه . فهنئاً لها ما اكبر حظها ! واذا وصف الليل شبّهه بجمل ضخم يبرك فيملاً الساحة . والليل جمل واي جمل ، فانه يغطي الجزيرة بل الشرق كله . . .

واي الهام او وحي يأتي الجاهلي ، ليسبّه ذلك النجم الذي يراه العاشق المنتظر كأنه لا يحول ولا يزول ، بأحسن من قول امرئ القيس :
فيل لك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدّت بيدبل
ان رائحة الجاهلية تفوح من كل كلمة في عجز هذا البيت ، ويخطئ من يروي غير هذه الرواية لانه يبعده عن محيطه وزمانه ، ويفقده قوته وروعته ، وقد اشرت الى هذا اذ تكلمت عن كتاب « الادب العربي في آثار اعلامه » .

ان معلقة الشاعر العظيم ، وان لم نجد فيها منفعة تربوية لابنائنا ، فهي تدل على خيال ذي شأن حازه هذا الشاعر ، فولّد ما استطاع توليده في ذلك الزمان . اذا قرأت وصف حصانه ، عرفت انك امام مصور ماهر ، واذا انتقلت الى وصفه الطوفان وجدت فيه تصديقاً لزعمي ، وخصوصاً اذا امعنت النظر في ما بعد هذا الطوفان فقرأت :

كأن ذرى رأس الجحيمر غدوة من السيل والغناء فلكة مغزل
كأن مكايّ الجواء غدوة صبحن سلافاً من رحيق مغفل

كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى انابيش عنصل
 صور نراها تافهة ، اذا نسينا ان الانسان لا يستطيع ان يتخيل الا كما
 يرى ، فامروء القيس لم يزعم عبثاً ، ولكننا نحن لا يؤثّر بنا هذا القول كما
 يؤثّر بابن البادية لأننا نجعل الاحوال التي لابسها الشاعر . فقصيدته هي صور
 طبق الاصل عن محيطه وحياته ، وهو الذي شق طريق القصص الشعري ،
 وما عمر ابن ابي ربيعة الا متبع خطاه ، وان حاول بعض المباحكين انكاره .
 ومن قرأ هذه اللامية واللامية الثانية رأى ان الزعيم العظيم لم يدع شيئاً
 من طرق الشعر الفرامي ، فهو وعمر فرسا رهان في حلبة الفسق والفجور
 وقلة الحياء .

ان امرأ القيس لا يتخلى عن خياله القوي حتى في سرد حوادث حبه
 الواقعية ، فانظر قوله :

سموت اليها بعدما نام اهلها سموّ حباب الماء حالاً على حال
 لا استطيع الوقوف معك عند امرى القيس اكثر مما وقفت ، فتقصّ
 انت خباياه على ضوء الخيال الفني ، والصور الكثيرة ، ولا تحلم بأن
 تأخذ عنه شيئاً فتلك البضاعة لا تنفق في سوقنا اليوم . ان جميع الشعراء
 بعده قد تحاموه ولم يغزوه كعادة الشعراء لأنه اوجد صورته كاملة
 لا استطاع فيها اكثر مما استطاع . ولا تظن انني سأحدثك عن الشعراء
 بعده ، الا بمقدار ما يختلف بعضهم عن بعض . فطرفة يتبع ، كجميع
 الشعراء ، خطى امرى القيس فيصور الطلل صورة اروع اذ يقول :
 يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد . وفي بيت واحد يصف خولة فيقول
 قولاً رائعاً :

ووجه كأن الشمس القت رداها عليه نقي اللون لم يتخذ
 ثم ينتقل الى ناقته ، فيصفها اجمالاً وتفصيلاً ، ولولا الحياء لم يدع

شيئاً منها الا وصفه . ثم ينتقل الى وصف نفسه فيمعن في تحليل « ذاته الكريمة » ووصفها ، ويتعرض لما وراء القبر فيعبر عن الفكرة الجاهلية فيما امام القبر وفيما وراءه اصدق تعبير . ولا ينسى المشاكل الالهية ويعلن انه مظلوم ، ويخشى ان يموت غير مبكي كما يستحق ان يبكي ، فيوصي ابنة اخيه - معبد - بذلك ، ويعلمها ما يجب عليها ان تعمل . ان هذه القصيدة تصور اكثر احوال العربي الجاهلي ومشاكله الاجتماعية حتى الدينية ، واذا صور طرفه « الجمال » فالعم زهير يصور « الكمال » ، وهل تطلب من ربيب مقعد ان يقول كطرفة :

وآليت لا ينفك كسحي بطانة لعصب رقيق الشفرتين مهند
 اخي ثقة لا ينثني عن ضربة اذا قيل مهلاً قال حاجزه قد
 ولكنه يد يده ، وهو زعيم الشعر المحكك ، الى صورة طرفه فيعطيا شيئاً من الوانه وموسيقاه و « غسله المصفى » فيقول :
 ودار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم
 و « يشخص » تلك الدار التي عرفها بعد عشرين عاماً فيسلم عليها سلام الاحباب بعد الغياب . . . ثم يصف لنا وصفاً دقيقاً ظعائن الحبيبة فتخال شريطاً سينمائياً ينشر امامك . وينتقل انتقالاً بشعاً ليمدح صاحبيه المشهورين ، ولكن زهيراً وان كان اول المداحين ، فهو لا يمدح الرجل الا بما عمل فيصف ما له من مبررات . ثم يحث على السلم ويقبح الحرب ، ويهدد الاعراب باليوم الآخر والحساب العسير ، وهذا شيء لا يقيم له الاعراب اقل وزن كما أنبأنا الكتاب الكريم .

ان زهيراً مولع بالتجسيد ، ووهب الحياة لما لا حياة فيه ، فيقرب زعمه الى الناس ، ولا عيب في قصيدته الا هذا الكر والفر ، والذهاب والاياب . اما حكمة زهير ، فهي ايضاً صورة للنفس العربية ، وليس

الرجل بزاهد في الحياة وان قال :

سُئِمَت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أباً لك يسأم
فهو في كل بيت من هذه الحكم لا يصدر الا عن ينبوع النفس العربية .
والنفس العربية ليست كلها عتواً وطغياناً ، ومن زعم ذلك فقد ضل .
ان الشخص الواحد يمر كل يوم في اطوار مختلفة ، فكيف بالامة .
اما ليبد القائل :

ولقد سُئِمَت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف ليبد
فحذا حذو من سبقوه ، وافترق عنهم فحدثنا عن حمار واثان وحشين
انقطعا عن العالم مدة فكان شهر العسل عندهما ستة اشهر . اما عمرو بن
كلثوم فقصيدته قصيدة الشباب ، هناك قبيلة تتكلم لا شاعر ، فذات
الشاعر ذابت في قبيلته ، فاصبح كأنه لا يحس مفرداً . بدأ « ملحمة » في
وصف الحمرة ، وتأثيرها في الناس . ولا بد لرجل مثله ان يدع الطول ويصف
الكأس ففي قرارتها الشجاعة ، وهي من « المقبلات » العظمى لاقتحام
مأدية كمأدية عمرو بن هند التي اعدّها للاراقم ، فأكل منها حتى تخم .
وعلم ابن كلثوم ، وهو نموذج الفتى العربي ، ان لا بد للخمرة من ساقية
لتخلو وتطيب فذكر صاحبه بخير ، ثم أقبل على عمرو بن هند ، فخاطبه
بسهولة فائقة وتحداه اخيراً بقوله :

حدّيا الناس كلهم جميعاً مقارعة بنهم عن بنينا
ثم يعود الى البكرين بني عمه فيلومهم على نسيان ما كان ، واخيراً
علاء البر خيلاً ، والبحر سفيناً ، وتسجد لطفل قبيلته الجبابة . وهو بهذا
يفتح باب الابتهاج على مصراعيه لكل شاعر عربي . وليس لي من
تعودوا تقديس كل قديم ان اقول كلمتي وامشي . ما اظن صاحب ملحمة
« الزير » التي اولها :

يقول الزير بو ليلي المهلهل وقلب الزير قاسي ما يلينا
وان لان الحديد ما لان قلبي وقلبي من حديد القاسينا
الا مستلهما او معارضاً قصيدة ابن كلثوم . . .

اما ابن حنزة فهو ذاك المدره الرصين . توکاً على المنطق حين رأى
ابن عمه فائر العاطفة ، واتخذ الهزء الناعم مجناً يتقي به سهام ابن عمه
المرناة .

اما صاحبنا الاعشى فأعرب في مطلع قصيدته عن اخلاق سكير حقاً .
السكير يهيمه الحاضر وما هو آتٍ ولا يبكي لما فات . فعكف على
وصف صاحبه هريرة وصفاً يغري ويهز ، حتى اخرج صورة يعرفها
المنكوبون في الحب في كل عصر فقال :

عَلَّقْتُهَا عَرْضاً ، وَعَلَّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي وَعَلَّقْتُ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلَ
وَيَلُمُّ بِأَغْرَاضٍ شَتَّى حَتَّى الْجُمَاسَةِ وَالْقَتَالِ فيقول :

ان تركبوا فركوب الحيل عادتنا او تنزلون فاننا معشر نزل
وقد صدق اسلافنا حين لاقبوه صناجة العرب ، فقصيدته على بداوته
موسيقية لا تبارى جرساً ورقة ، ولا عجب فالاعشى شاعر الحمرة الدوار .
انه يحسن القص ، فاقراً ابياته لشريح ، تعلم انه بالفاظ قصيرة يخرج
صورة تامة . وهو من الشعراء المجسدين الكبار ، وقد خاطب ناقته
خطاباً اخذه بعده الفرزدق فاوحى الى جرير تلك الصورة الخزية فأخرسه .
اما النابغة فهو من السلاطة الزهيرية ديباجة وتحكيكاً ، وقفزاً من
غرض الى غرض ، وقد احسن خطاب دمنة دار نعم حين قال :

عوجوا فحَيَّوْا لنعم دمنة الدار ماذا تحيَّون من نؤي واحجار
واستعجبت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات اخبار
ومن عنده اخبار اكثر من الدار ، وخصوصاً اذا كانت من دور

الكراء التي وصفها الجاحظ في البخلاء ، ففيها منافع للناس العاشقين . . .
 لقد قصر النابغة عن النابغة في استخبار الدار في داليته ، ناهيك ان
 الدالية مفككة الاجزاء مثل قصيدة زهير ، وقد اعرب صاحب جمهرة
 العرب عن ذوقه الفني حين احصى الرائية في كتابه لا الدالية . والنابغة
 يقيم الدليل على نبوغه في وثبات رائعة موفقة في الصورة والموسيقى كقوله
 في استبطاء الليل ، حتى صارت الليلة النابغة ، بعد بديع الزمان ،
 مضرب المثل :

كليني لهم يا اميمة ناصب وليل اقايسه بطيء الكواكب
 تطاول حتى قلت ليس بمنقص وليس الذي يرعى النجوم بأيب
 وقوله في الصورة الثانية التي افتخر بها النابغة في عكاظ على حسان
 — ان صدق الرواة :

وانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المتأى عنك واسع
 رببت ان ابا قابوس اوعدي ولا قرار على زار من الاسد
 ثم في قوله الذي عبّر عنه اسلافنا بالرهبة :
 اتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون
 ان نابغتنا اتبع زهيراً في اخراج الصور فاستجدى بها نعمانه السمع ،
 وترك هنداها لثالث هؤلاء — الاخطل التغلي — الذي قال : اشعر
 الناس ، قبيلة ، بنو قيس ، واشعر الناس ، بيتاً ، بيت زهير ، واشعر
 الناس ، رجلاً ، رجل في قميصي .

ان المقابلة بين هؤلاء الفحول الثلاثة ميسورة ، فليت من له متسع من
 الوقت يقابل بينهم ، فينهم نسب قريب جداً .

قد استحق النابغة ان يحكم في سوق عكاظ ، فشعره صافٍ نقي ،
 واذا حاولنا ان نميز بعض الشعراء الجاهليين من بعض فلا نستطيع ذلك

لأنهم لم يخرجوا من حظيرتهم ، واتبعوا خطة رسمت لهم فكانت كالطرق
المعبدة في هذه الايام ، واي جديد يجد من يسير في مثل هذه الجادات ؟
بقي - عدا عنزة - شاعر اسمه عبيد بن الابوص . لماذا عدوه بين
هؤلاء الفحول ؟ لست ادري . واية غرابة وجدوها في قوله حتى الفوا
اسطورة حول شعره ، فقالوا انه غضب لان رجلاً اتهمه بأخته . وابتهل
الى الله ونام فأتاه آت في المنام بكبة من شعر حتى القاها في فيه ، ثم
قال له : قم ، فقام وهو يرتجز ببني مالك . ان معلقة عبيد لا تستحق ان
تكتب فكيف بها ان تحصى في الشعر الذي يفتخر به العرب .

اما عنزة ، فابقيناها الى اتمام لانه جمع في قصيدته الميمية المشهورة
مثل العرب العليا في الحياة . فالذين وصفناهم من اصحاب القصائد العشر قد
يقصر بعضهم في نواحٍ او ناحية ، اما هذا العبد الاسود فأرانا اخلاقاً
يندر وجودها في الاحرار البيض . فحبه عربي قح ، وخلقه عربي صرف ،
واسلوبه دان كل الدنو من لغتنا اليوم ، ولهذا سندرسه اكثر من اصحابه ،
وفي كل حال لسنا نرسم الا خطوطاً رئيسية ، وعلى من يتعمق ان
يفصلها .

ان ما يرويه الرواة عن عنزة وقعوده عن النجدة ، حرذاً وغضباً ،
يقرب كثيراً من حكاية الياذة هوميروس ، ولسنا نعني بهذا ان معلقته
ملحمة .

اذا آمنا بما يقوله علم النفس عن مركب النقص رأينا ان عنزة هالته
بشاعته ، التي لا تغري عبلة ، فجعل وكده في قصيدته محاولاً ان يستميلها
برجولته ، وللرجولة شأن عظيم في عيني المرأة ، فكانت جل هم عنزة ان
يصور لحبيته عبلة بطولته وما تضمه من اخلاق عربية نبيلة ، فقال قصيدته
وما موضوعها الا عنزة ذاته .

كأني بعنّرة قد أدرك ان السير على نط واحد في الشعر يملّ ويكره فقال : هل غادر الشعراء من متردم . خلنا انه سيقول غير ما قالوا ، ولكنه عاد حالاً الى الخطيرة فقال : ام هل عرفت الدار بعد توّهم . . . ثم راح يصبّح ويسلم . وهو لولا يظل في تمرده لشجع الشعراء على الخروج من حظيرة التقليد ، ولم يخشوا ذئاب النقاد الذين حبسوه هناك الى الابد . اني ارى عنّرة يصور في قصيدته نموذجاً عربياً ، ولأجل هذه الصورة اكاد اصدق ما رواه المحدثون عن النبي الكريم .

في القصيدة اضطراب ، وفيها كغيرها ضعف سياق ، وفيها مثل تلك مخالفات لغوية ونحوية ، وفيها الى جانب كل هذا صور طريفة ، كتشبيه ناقته واقفة في طول عبله ، بالقصر . وفيها لوعة حبّية حقيقية لا تتعدى التقاليد العربية في الحب والعشق . قد يتحابّ عاشقان تحت غبار الحرب بين قبيلتيهما . ان عنّرة مختار كيف يدرك عبله وهو بالغيلم ، وهي قد حلّت بارض الزائرين فأصبح طلابها عسراً عليه . اما عبله فصفته كصفة غيرها من بنات العرب ، حلوة معطير ، حتى شبهه فيها بالروضة ، واستطرد فوصف الذباب ذلك الوصف الذي اعجب الرواة فشادوا بذكر عنّرة ، وتوارث هذا الاعجاب اليوم اساتذة الادب العربي ، كابراً عن كابر . . . ويصف عنّرة حياة السيدة العربية وحياة الفارس مثله فهي :

تمسي وتصبح فوق ظهر حشيّة وايت فوق سراة ادهم ملجم
ويستطرد عنّرة الى وصف ناقته ، كما فعل طرفة ، فيصفها مثله بعد ان يتمنى ان تبلغه دار عبله . ويناجي عبله بقوله : ان القناع المسدول دونه لا يمنعه من اخذها لأنه طبّ بأخذ الفارس اللابس اللأمة والدرع . وهو وان كان في هذه البطولة فسهل القياد اذا لم يُظلم .

مسكين ، يقول هذا ليهوّن عليها ما يلقي منظره من رعب في نفسها ،

ثم يخفف من احوال تلك الشخصية بما يصف به نفسه من كرم ، فهو يجب كما يجب كبراء العرب ومحارب خيراً منهم ويشرب مثلهم ايضاً . لا يشرب الا بالدينار الذي اجتلى به الاخلل عذراء ذاك العليج المكار . . . واذ شرب عنقوة فهو كريم يبيد المال ، وفي تلك الثورة يبقى محافظاً على عرضه واذ اصحا فهو فارس ميدان . ويحدث عنقوة عبلة عن كل هذا حديثاً يستفاد منه ان القضية معلومة منها ، لا تحتاج الى برهان ، ولكنه يقول ما يقول للتذكير .

وبعد الحب والشرب ينتقل عنقوة الى الحرب ، ولا يزال وسواس عاهته عالقاً بذهنه فيخبر عبلة عن جبروته ، فيصف لها كيف يترك حليل الحسنة الغانية مجدلاً بضربة عاجلة . ولها ان تسأل الخيل ان كانت جاهلة بما لم تعلم ، فيخبرها من شهد معاركه .

ان عنقوة كبعض الفنانين - الفن للفن - يجب الحرب للحرب ، ولذلك يقتل للحفاظ لا للسلب والغنيمة ، واذ عجز القوم عن البطل العنيد الكريم الذي لا يتزعزع من الساحة فهو يجود له بطعنة ويريح البوية من شره . واخيراً يصف لها بطلاً ثالثاً فيصوره اعلى مثال من كرام العرب ، قيدوم الجماعة ، وبطل السرج ، واسد المجلس ، ومع ذلك فعنقوة طعنه بالرمح ثم علاه فحز رأسه بسيفه .

كل هذا ليحوّل بصر عبلة عن الجمال ويستميلها الى الرجولة الرائعة . ولهذا يخبرها كيف لبي نداء مرة حين ايقن ان سيكون ضرب يطير عن الفراخ الجثم ، وقد كنى صاحبنا بالفراخ الجثم عن الجماجم فاجاد . ثم يشخص حصانه في هذه المعركة الفاصلة ، حتى كاد يكلمه شاكياً ، ولكن عنقوة لا يرحم نفسه في الجلى فكيف يرحم حصانه .

لقد حشر عنقوة في قصيدته هذه مكارم الاخلاق العربية كلها

فأصبح هذا العبد خير نموذج للاحرار . فما كان الطفه في التعبير ، وما كان اسلم ذوقه ، وهو البدوي الجاهل العبد ، حين قال :
 واغضّ طرفي ان بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها
 وما اسمج ذوق المتنبى ، وما ابشع تعبيره ، حين قال في هذا المعنى
 ايضاً :

اني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سرايلاتها
 ان هذا عبد ، وهذاك حر الله ذاته ، فتأمل . لقد احسن عنقوة
 الاستمالة ، وتسامى الى اسمى التسامي ، واستغل « عبديته » في فنه
 الشعري فقال :

انا العبد الذي خبّرت عنه وقد عاينتني فدع السماء
 وقال ايضاً :

ان كنت في عدد العبيد فهمتي فوق الثريا والسماء الاعزل
 اما سواده فاوحى اليه ايضاً صوراً رائعة ردها في شعره الآخر ، منها قوله :
 يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر
 ولا يزال « السواد » مغلاً حتى اليوم . وآخر من استغله
 محمد امام العبد ، كما اشرنا الى هذا في موضع آخر .
 ان عنقوة اول شاعر يدرس الفتي العربي ، بعد ابي الطيب المتنبى .
 لقد تسامى هذا العبد فرفع نفسه ورفع الناس معه .

فصائص الشعر الجاهلي

كان الشاعر الجاهلي مثل « القوّال » اليوم ، يقول الشعر بلغته ولهجته فيستحلي ويستملح لان سامعيه كانوا يتذوقونه تذوقاً غير منقوص . يحسون الاجواء ويدركون الشخوص ويعرفون الامكنة ، وفي هذا ما فيه من الايجاء . اما نحن فبُعدنا عن كل هذا ينقص تذوقنا ويجعلنا دون العربي القح احساساً لهذا الشعر . ان الفاظ الشعر الجاهلي لا تحمل اكثر مما حملها اصحابها ، واذا استسمجناها نحن فلائها لا تدور على ألسنتنا فيصقلها الاستعمال . ناهيك ان لمعرفة المكان اعمق اثر في نفس القارىء ، ولهذا وجدتني اشد رغبة في الشعر الجاهلي بعدما قرأت « ملوك العرب » للريحاني .

كان الشعراء ألسن القبائل يعبرون عن اغراضهم ومآربهم بلسان تلك القبائل واساليبهم وطرق تعبيرهم وتفكيرهم ، واذا خلوا الى نفوسهم عبّروا عما يجيش فيها من خوالج نفسانية . كان عندهم لكل غرض الفاظ ، فاشتد قريضهم ولان حسب مقتضى الحال ، وهكذا تتنوع الموسيقى في القصيدة الواحدة . وهذا ما ضل احد المحققين حين ظن ان الابيات اذا كانت هَيِّئَةً لَيِّنَةً في قصيدة جاهلية فهي دليل واضح على انها منحولة . ان هذا لضلal وقلة بصر بوجوه الشعر . فالشاعر يرق ويشد في قصيدة واحدة ، تبعاً لاغراضه ، فكيف به في ديوانه . قال الجاحظ في كتابه البخلاء : كان الاصمعي يقول : قد كان للعرب كلام على معانٍ فاذا ابتدلت تلك المعاني لم تتكلم بذلك الكلام .

واذا لاحظنا ان الشعر العربي ذاتي ، يعنيه « الأنا » قبل كل شيء ،
ادركنا السبب في اتجاذه اللهجة الخطابية ، فكأن كل قصيدة معدة
لتلقى على الجماعة ، وهي كذلك .

ليس في الشعر الجاهلي تكلف ولا تقعر ، فهو كالزجل اليوم . كان
يقال عفو الطبع ، يعتمد على التشابه ، والاستعارات ، والصور ،
والعاطفة على ضروبها وانواعها ، ولم يصبح فناً او عملاً الا مع زهير .
ونما نموه المعلوم مع راويته الحطيئة حتى سمي عبد الشعر ، ثم مع النابغة
فالاختل . وهذا العمل لم يبعد الشاعر الجاهلي عن الصدق ، فهو صادق
في التعبير عن عاطفته ، عن مآرب قبيلته ، عن وصف محيطه ، صادق
ما استطاع في تشابهه . خذ قول امرئ القيس في وصف الطوفان :
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطماً الا مشيداً بجندل
ومع كل ما في هذا الشعر من صدق لم تبق لنا حاجة ماسة اليه .
فهو منبع لغوي فقط ، اما عناصر الفن والتاريخ والاخلاق فضعيفة فيه .

ومع ذلك ارانا ندرس هؤلاء الشعراء بشكل يقرب من التقديس . فغنترة
كأحد آلهة اليونان ، وزهير فرخ نبي . ندرسهم اليوم كما قرأنا عنهم في كتاب
الاغاني ، وغيره من المجموعات الادبية ، فلا نجرؤ ان نقابل هذا الشعر
بأقل نقد فكأنه وحي ، وهب ان استاذاً « تمرّد » وخرج على التقاليد
الادبية وشايعه تلميذه كان الرسوب في الامتحان جزاءه . . . اذن
على المدارس التي تهى تلامذتها للمنهاج ان تعمل بقول غوستاف لبون
فتضع فونغرافاً على كراسي الاساتذة فيؤدي مهمتهم المنهجية .

وعلى الطالب ان يسمع من معلمه : امرؤ القيس اول من وقف
واستوقف ، وبكى واستبكى ، وقيد الاوابد .
وان يقول ، مثلاً ، اذا سئل من اشعر العرب : امرؤ

القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ،
والاعشى اذا طرب .

وعليه ان ينعت اللغة العربية كلما جرى ذكرها بقوله : لغتنا الشريفة
واشرف اللغات .

وعليه الا ينتقد شاعراً من شعراء المنهاج ، وان فعل فمصيروه الخذلان
والحياة . ليس له ولا لأستاذه ان يفكرا الا وفقاً للمنهاج ، وان
فعلاً فالحسار عليها .

ان قصيدة واحدة من القصائد العشر لتغني عن الشعر الجاهلي
كله . ماذا يعنيننا اليوم من حياة لا نعيشها ، فلنفتش عما ينفع
ابناءنا تربوياً ، فلو كان في اقوال هؤلاء الشعراء خير ما قال عنهم
الكتاب الكريم ما قال وسفهم .

ان الاسلام منذ اربعة عشر قرناً غدير المثل الاعلى الجاهلي ،
ونحن في القرن العشرين نحسبه ركناً تعليمياً .

بَعْدَ الْأَسْلَامِ

عصر العصبة العربية

وركدت ثورة الجاهلية حين ظهر الاسلام ، وكان للقرآن الكريم اعظم وقع في النفوس فحسبوه شعراً ، وقالوا عن صاحبه شاعر مجنون ، وكان للاسلام ، كما يكون لكل دعوة جديدة ، اعداء وانصار ، فانشق الشعراء شطرين : فريق يدعو لمحمد وحزبه ، وفريق ينفر الناس منه ويؤلبهم عليه . على رأس اولئك حسان بن ثابت ، وعلى رأس هؤلاء امية ابن ابي الصلت .

كان أمية ألد خصوم الرسالة الجديدة ، ولم يكن بالخصم الهين ، وان كان شعره غريب الوجه واللسان . قال فيه ابو عبيدة : اتفقت العرب على ان اشعر اهل المدن اهل يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف . وان اشعر ثقيف امية ابن ابي الصلت . وقال فيه الكميت : امية اشعر الناس ، قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال .

وقال الزبير عن عمه مصعب عن مصعب بن عثمان : كان امية قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبدًا ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والخنفية ، وحرّم الخمر ، وشك في الاوثان ، وكان محققاً والتمس الدين وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب ان نبياً يبعث من العرب فكان يرجو ان يكون هو . فلما بعث النبي - صلعم - قيل له : هذا الذي كنت تستريث وتقول فيه ، فحسده عدو الله وقال : انما كنت

أرجو ان اكونه .

فأنزل الله فيه عز وجل : واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها .
قال وهو الذي يقول :

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور
حق امية لهذه الحبية وشرع يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ، حتى نهى
رسول الله عن رواية احدى قصائده . وقد قال الحجاج على المنبر : ذهب
قوم يعرفون شعر امية وكذلك اندراس الكلام .

وامية قدم على اهل مكة « باسمك اللهم » فجعلوها مكان بسم الله
الرحمن الرحيم في اول كتبهم . وقد وضعت اساطير حول امية ، منها
انه خرج في سفر فنزلوا منزلاً ، فأمر امية وجهاً وصعد في كتيب فرفعت
له كنيسة فانتهى اليها ، فاذا شيخ جالس فقال لأمية حين رآه : انك
لمتبوع ، فمن اين يأتيك صاحبك ؟

قال : من شقي الايسر . قال : فأني الثياب احب اليك ان يلقاك
فيها ؟ قال : السواد . قال : كدت تكون نبي العرب ولست به . هذا
خاطر من الجن وليس بملك ، وان نبي العرب صاحب هذا الامر يأتيه
صاحبه من شقه الأيمن ، واحب الثياب اليه ان يلقاه فيها البياض . . .
وهناك اساطير عديدة اغربها انشقاق السقف وظهور طائر ، وقع
احدهما على صدره فشق قلبه ، وكان بين الطائرين وبين امية حديث ، ولم
يبخل عليها امية بكلام يشبه الشعر .

الخلاصة ان ظهور الاسلام حول الشعر مدة عن مجراه ، فصار نضالاً
حيناً ، ثم سكنت ريمه فترة ، في صدر الاسلام على عهد الخلفاء الراشدين .
ثم عاد سيرته الاولى ، ينحو نحو الاقدمين في اغراضه واسلوبه .
ودبت اليه عناصر السياسة فكان فريق من الشعراء يؤيد علياً ، وفريق

يناصر معاوية ، ولما سكنت الامصار بين يدي الامويين ساسوها على اساس
العصبية العربية ولم يقدموا غير عربي ، فأوغروا الصدور . وكان لهم
خصوم من العرب فحاربوهم حتى اخضعوهم ، ولكن الضائر ظلت في غليان
فانضم هؤلاء الى الأعاجم المغلوبين على أمرهم فقاوموا جميعاً « العصبية العربية » .
وهذا الاتحاد العربي الفارسي جعل الدولة العباسية في اضطراب دائم ،
وأخيراً أدى ذلك الى اضمحلالها واندثار الملك العربي .

ان العصر الاموي خلق للشعراء سوق عكاظ جديدة - المربد - وفي هذا
العصر أيضاً استقلّ الهجاء والغزل ، فهو العصر الذهبي للشعر العربي القديم .

عصر الرعاء

هو العصر الاموي ، واذا تحدثنا عن العصر الاموي فما نعني غير ذلك
الثالث الانجس : الأخطل وجريز والفرزدق . لقد مزق هؤلاء
الثلاثة الاعراض ، ونبشوا القبور ، وصبوا الموقى ، واكلوا لحوم
اخوانهم احياء وأمواتاً . واذا تحدثنا عن هؤلاء الشعراء فكأننا نتحدث
عن شعراء الجاهلية ، فالطور الذي أوحى الى الجاهلي هو الذي استوحاه
الاموي واستلمه العباسي . لقد سدّ شعراؤنا نوافذهم لئلا يبصروا العالم
الخارجي ، حتى قال اعمق العرب ثقافة واثقهم عقلاً واغزرم معرفة ،
اي الجاحظ : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان
العرب .

لا نلوم شعراءنا الاولين ان خاضوا بحر التقليد خوفاً ، فهم أطفال
بالمقياس الينا ، والطفل اشدّ تقليداً من البالغ ، وانسان القبيلة والجماعات
يدور على نفسه في حلقة محكمة ، بخلاف المفكر الوحيد الذي يرى الناس
من عل ، ويحكم عليهم . فاهيك ان التقليد ناموس طبيعي يسيّرنا في كل
زمان . قال احد دارسي الادب الغربي اذ بحث التقليد في شعرا امته :
نستطيع ان نضع خلف كل شاعر جديد شاعراً قديماً .

لم يفت ذلك اسلافنا فقال ابو عمرو ابن العلاء : الاخطل كالنابغة ،
والفرزدق كزهير ، وجريز كالأعشى . اصاب ابن العلاء بؤرة الهدف اذ

شبه الاخل بالنابعة فكأنهما واحد ، اما جرير والاعشى فيجتمعان في الرنة الشعرية ويختلفان في تماسك الديباجة ، فليس في شعر صناجة العرب هلهلة شعر ابي حزره ، وقد طاش سهمه في تشبيه الفرزدق بالنابعة . والذي يبدو لي هو ان خيال هؤلاء ، ما خلا الاخل ، اضعف من خيال شعراء الجاهلية ، فالفرزدق خاصة ينقصه الخيال والعاطفة وهما ملاك الشعر وقوامه .

الاخل كحليفه الفرزدق حامض الوجه . كلاهما جاف . بيد ان الاخل يبتسم أحياناً نصف ابتسامة ، وله نزوات محبوبة حين يحدثنا عن الاحمرين . وله وثبات في النضال تدل على ان هناك نفساً طرية ، ولكن خمرة ابي نسطوس يبستها فصارت كتلك الافاعي المنقوعة في الكحول تبدو لامعة ولا حياة فيها .

لست اميز هؤلاء الشيوخ من مشايخ الجاهلية ، فالجاهليون يؤلهون المادة ولا يهمهم ما وراء القبر :

فذرني اروي هامتي في حياتها ستعلم ان متنا غداً أينا الصدي
وهؤلاء مؤمنون ولكن أي ايمان ؟ فمسيحية الاخل مسيحية شمطاء
ناصلة : « السكيريون والزناة لا يدخلون ملكوت الله . » والاخل كان لا يصحو ولا يفيق . اسمعه يتهدد زوجته :

اعاذل الا تقصري عن ملامتي ادعك وأعمد للتي كنت افعل
واهجرك هجراناً جميلاً وينتحي لنا من ليالينا العوارم اول
ويا ليتة اكفى بهجرها هجرأً جميلاً ولكنه طلقها الثلاث طلاقاً
قيحاً . . . اما الفرزدق فاقوال الرواة وابن عمه تسفه . هو قرد غير
نائم ، يرقى الى جاراته بالسلام ، يتدلى من ثمانين قامة ليزني ، ويقصر عن
باع العلى والمكارم . اما جرير فبذيع اللسان كشاف عورات . اني حين

أرى الجيف الطافية على بحور شعره احار ابن اجد العفة التي وصفوه بها .
فاجاهليون وهؤلاء متساوون في التدنّ والاخلاق ، لا بل ارى زهيراً
الجاهلي افضل من ذاك النصراني وذلك المسلم .

اما الخلافة وهي اقوى الروابط الاسلامية فما قرّبت الشاعرين المسلمين
من الامام فكان شاعره نصرانياً . مدحه جرير مستيحاً وادلّ به على
تغلب شعرياً فقط حين قال :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم الي قطينا
ولكن ابن مروان لا يصغي الى ثورته ، فهو يسامر الاخطل تاركاً
الفرزدق أيضاً يتغنى بنار غالب . ان حمية الجاهلية التي اخمد الاسلام نارها
قد دبّ لها هؤلاء بالخطب فكانت جهنم ارضيةً وقودها الناس واعراضهم .
ففي هذا العصر قد بلغت العصية القبلية منتهاها فصار ذو الصليب شاعر الخليفة .
هب ان الاخطل كان كما قال لسائله : اشعر الناس ، قبيلة ، بنو قيس ، واشعر
الناس ، بيتاً ، بيت ابي سلمى ، واشعر الناس ، رجلاً ، رجل في قميصي ، ثم
كان وقومه في غير حلف عبد الملك ، أكانت تطأ رجلاه بساط هذا الخليفة ؟
اذا فتشنا عن اثر ديني في شعر الاخطل فلا نقع الا على هذا البيت :
لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسمّاً ناقعا

ولكننا نجد الى جانب هذا الابن الوحيد جاهلية عارمة كليله التي
تهدد بها زوجته ، واليك بعض ما قال :

اني حلفت برب الراقصات وما اضحى بمكة من حجب واستار
وبلهديّ اذا احمرّت مدارعها وما يثرب من عون وابكار
وقد رووا انه كان يحلف باللات والعزّى . صدق الله العظيم : قالت
الاعراب آمناً ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان
في قلوبكم . وكيف يؤمنون وفي قلوبهم الحمية (حمية الجاهلية) وهي التي

انطقهم بهذا الهجو القذر . ان شعارهم جميعاً كما قال طرفه : ولولا ثلاث
هن من لذة الفتى . . . اي الشرب والحب والحرب .

لا يهم الاخطل الا دواء يردّ الشيب ليرجع شرخاً ويملاً بطنه من خمور
قطّار فلسطين ، ويأكل صيف الشواء والقدير المرعب ، ويتمتع بما يلي
ذلك . . . اما جرير والفرزدق فلم يحسبا للملكين حساباً فقال جرير
لصاحبه :

ولو متنا لشد عليك قبوري بمسوم مضاربـه حسام
عاشوا جميعاً ليأكلوا ويشربوا فخلا شعرهم من الصوفية والنسبات
الروحية التي تنعش الشعر وتحية ، ومن المحبة التي ترققه ، فشعرهم ثلاثتهم
مادي لا يستطاب ولا يبقى . وما قول الاخطل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال
الا كقول الدهري : خلق الله السموات والارض ، لأن توبة صاحبنا
مريضة بدليل قوله :

ولقد اكون لمن صاحب لذة حتى تغير حالهن وحالي
لما رأت بدل الشباب بكت له والشيب اودل هذه الابدال
لم يفكر هؤلاء بغير صيغ والفاظ وصور متشابهة فجاء شعرهم متشابهاً
مماثلاً تغنيك مطالعة احدهم عنهم جميعاً . ساروا وراء من تقدمهم ولم يفكروا
بتغيير شيء من اساليب حياتهم فظل الشعر بدوياً خشناً ، لم يتأثر بشيء
من لين القرآن وحنانه . جفاف ويبوسة كطباع الفرزدق والاخطل ،
فهذان الشاعران لم ينزلا عن عرش ارسقراطية لغة الشعراء بل غرقا في
لجج الحشونة والغرابية وخصوصاً الفرزدق . ولا تعجب اذا قلنا ان
الاخطل اصح لغة واسلوباً من الجاهليين ، فهو صديق عبد الملك الخليفة
النقادة . وعبد الملك وعامله الحجاج ما لحنا قط لا في جد ولا في هزل .

اما جرير فقد لان شعره واننا نسميه بحق شاعر عصره الشعبي . ان هذا لم يفت القدماء ، فقد سأل جرير رجلاً من بني طهية : اينا اشعر انا ام الفرزدق ؟ فقال له : انت عند العامة ، والفرزدق عند العلماء . فصاح جرير : انا ابو حزرة ، غلبته ، ورب الكعبة . والله ما في كل مائة رجل عالم واحد .

اما الاخطل والفرزدق فما عبّرا تعبيراً شعبياً بل فتشا بالفتيلة والسراج عن الصيغ الجاهلية وحشراها في منظومها . ان الشعب لا يتذوق الا ما الفه من تعابير ، فصيغه المألوفة تؤدي له المعنى كاملاً غير منقوص ، ولهذا استطاب شعر جرير واستساغه ورواه ولم يطرب لشعر الاخطلين ولم يروه .

واذا سمينا هذا العصر عصر الهجاء فما نعدو الحق لأن الهجاء سيطر فيه على جميع اغراض الشعر حتى الرثاء . لم يحفزهم الى ذلك غير الاحداث السياسية وانشقاق العرب حول الخلافة . ما افتخر الفرزدق ليتعالى على جرير وحده ، بل ليتعالى ، من حيث لا يشعر ، على الجالسين على السرير فيذكرهم بمجد آبائه واجداده . ان السياسة في ذلك العصر هي التي اركبت الشعر ذلك المركب الوعر فطبعته بطابع الهجاء ، وكثيراً ما تطوّر السياسة اساليب التفكير . كان الشاعر في عصره وزير دعوة ونشر ، فلا نعجب ان وأينا السلطان لا يُسكت هؤلاء الثلاثة ، فالتيار قد جرف الخلفاء انفسهم فاداروا دفة السفينة وهم لا يعلمون انهم ربابنتها .

لقد ابعد التناطح الشعري هؤلاء الفحول الثلاثة عن منطقة الفن ، وحسبك ان تقرأ مناظرة جرير والفرزدق عند بشر بن مروان لترى مقدار حظ شعرهم منه . انها لأشبه بمناظرة قوّالي الزجل والعتابا عندنا . لا شك انهم في شعرهم الآخر اكثر فناً منهم في هذا البراز الشعري ،

ولكنهم اسّفوا في كل حال فابتعدوا عن الشعر اذ جعلوا اغراض شعرهم
 اعراض قبائلهم . حسبنا نقيضة الفرزدق اللامية شاهداً على ما نزع ، ففيها
 جيش عرمرم من الاعلام لم تقذف بمثله روسيا الحمراء . وهكذا استحال
 الشعر الهجائي المعروف بالنقائض فهرساً شاملاً لمثالب العرب ، ويا ليت
 لم يكن .

ملوك الكلام ومصره جرير

قوام شخصية جرير شرّة وحمية . يستفزه الغضب فيشرئب ويتهيأ للنضاح والمساورة ذيادةً عن حياض شعره . يستجيب لكل دعوة ويصول بين وشمال وخلف وقدام وفوق وتحت . ينبش القبور ولا زياد يدفنه فيها حياً . نموذج اعرابي اصيل ، من طبعه الهرج والمرج ، تدلنا على خواصه جميعها كلمة الحجاج : قاتله الله اعرابياً ، انه لجرو هراش . وهل هجاء هؤلاء الفحول ثلاثتهم غير عرارة ونبوح ؟

واذا قرأنا تلك الاسطورة التي رواها ابو الفرج عن ابي عبيدة اتضحت لنا شكاسة خلق جرير . قال : رأت ام جرير وهي حامل به كأنها ولدت جبلاً من شعر اسود ، فلما سقط منها جعل ينزو فيقع في عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك بوجال كثيرة ، فانتبهت مذعورة ، فأولت الرؤيا فقل لها : تلدين غلاماً شاعراً ذا شر وشدة شكيمة ، وبلاء على الناس . فلما ولدته سمته جريراً باسم الجبل الذي رأت انه خرج منها . قال : والجرير الجبل . لا يعنينا اكدبة هذه الرواية ام صادقة ما دامت تنم عن طبع جرير الذي اخرج من رأسه ذلك الكلام الحلو المر . وفي حكاية جرير مع راعي الابل وابنه جندل دليل آخر على شرّة جرير وحميته . قالوا انه لم ينم ليلة طرحت قلنسوته تلك الطرحة المشؤومة . شرب باطية نبيذ وحبا على فراشه عرياناً لما هو فيه . وما زال كذلك حتى كان السحر فكبر ثم قال :

انخزيته ، وربّ الكعبة . تلك حكايتهم حول قصيدته المسماة « الدامغة »
 التي قالها ثمانين بيتاً في هجو بني نخير ، وهي تثبت لنا ان الحمية - الهيجان
 في علم النفس - هي منبع الشعر الجريري . فهو اذا احتاج اصبح
 كالبركان يقذف الحمم ولا يدرك ما يقول ، فيزجّ في شعره ألفاظاً وصوراً
 لا يتلفظ بها الرعاع ، وحسبك ان تعلم كيف تصور عنفقة الفرزدق حين
 شاب . . . ان غضب جرير واستقتاله في الدفاع عن شعره يذكرني بشعر
 هينغو الهجائي ، فكلاهما واحد يجري لغاية واحدة في هذا المضمار . حدة
 تشبه ثورة المجانين في رؤوس الاهلّة ، ولا فرق بينها الا ان لشاعر
 الغرب خيالاً عظيماً جداً ، وشاعرنا بعيد عن الخيال ، هناك يفكر
 بالصور التي يخلقها ، وشاعرنا يعدّ المثلّاب ويعيّر فيكشف العورات ويمزق
 الاعراض ، ووكده الملمحة والنكتة .

ان شعر جرير بخلاف شعر صاحبيه . شعر خفيف تغلب فيه لباقة
 التعبير على قوة التفكير . قريحة لدنة ليّنة يثيرها اقل تهويز ، ولا مانع
 ان نضم الى السجعات الاربع المشهورة سبعة خامسة فنقول : وجرير
 اذا غضب . لم يحاول جرير السمو الى لغة الشعراء المتقدمين فدار شعره
 على كل لسان ، وقد ادرك ذلك الاخطل فقال : قلت انا بيتاً ما أعلم
 ان احداً قال اهجي منه :

قوم اذا استنبح الضيفان كلهم قالوا لأهمهم بولي على النار
 فلم يروه الا حكماء الشعر . وقال هو :
 والتغليّ اذا تنحج للقرى حكّ استه وتمثّل الأمثالا
 فلم تبق سقاة ولا امثالها الا روه .

السبب عندي هو ان الاخطل تعمّل وتخيل - وهو اقواهم خيالاً -
 فأخرج صورة غير مألوفة فركد بيته وجاء كحمى الدق . اما بيت

جرير فيشبه البرداء التي تنفض الاجسام نفصاً فهبت ريحه وركد بيت
خصمه .

في شعر جرير نشاط ومرح ، فهو اشبه بنجب المسومة العراب بينا
شعر الاخطل يمشي ويهدر كالجلجل الاورق .

خطى متونة رصينة ترضي اهل السم ، اما جرير فاتبع في الهجاء
خطة بوالو استاذ الشعر الفرنجي فجاء شعره كما قال : تأتي كلماتي بلا عناء
لتحل محلها . انه لا يتعكز في اخراج صوره على علم البلاغة . انظر
الى بيته الذي مرّ وقف عنده قليلاً . ليتك رسّام او مثّال لتخرج
لنا لوحة رائعة او تمثالاً لتغلي جرير المنخنخ للقرى . أليس هذا التخيل
البسيط المركّب صورة تضحك وتطرب معاً ؟ ان جريراً يحسن الهزل
والتهكم والسخر فتستحلي هزله وسخره وتهكمه وان كان مبنياً على
جُرْف هار .

ان ضربة جرير خاطفة كأنها سيف طرفه ، وهي غالباً كمبضع النطاسي .
كان اقدر من صاحبيه على نقض الكلام . ولو كان ابو حزره من علماء
الكلام لأتى ببراهين ذات حدّين . خاطب الفرزدق ناقته اجهل خطاب
وخلص الى ممدوحه بلباقة ، وسأله بكياسة انستنا سماجته اذ تحدث مع
زوجته الطيبة على الفراش ، ذلك الحديث الثقيل ليخلص الى ابن ليلي
- عمر بن عبد العزيز - قال الفرزدق يخاطب ناقته :

الامَ تَلَفَّتِينَ وانت تحتي وخير الناس كلهم امامي
متى تَرِدِي الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوامي
فانتفض جرير انتفاضة الصقر فاذا بصورة الفرزدق تسقط كأسوار
اريجا حين سمعت صوت ابواق يشوع . . .

تَلَفَّتْ انها تحت ابن قين حليف الكير والفأس الكهام

متى ترد الرصافة تحزّ فيها كخزبك في المواسم كل عام
هذا هو الكلام الحلو المر الذي لم يخرج مثله الا رأس ابي نواس ،
ولكن كلام ابن هاني اكثر فناً واقل ايلاماً واشد اضحاكاً .

ليس لجريّر خيال الاخطل ولا ثروة الفرزدق اللغوية . ولست اجد
تحديداً لشعر جريّر اصدق من قول الجاحظ لصاحبه المربّع المدوّر : يجب
المعنى حياً يلوح وظاهراً يصيح . ان هذه الخاصة ابرز ما تكون في هجائه ،
اما غزله الذي قال فيه الفرزدق : ولو تركوه لأبكي العجوز على صباها ،
فلست ارى فيه ما رأوا وليس ابداع جريّر الأسمى هناك . لا شك ان
هناك نوعاً لطيفاً من الغزل ولكن جريراً لم يفتق سواه فيه ، بل بد
اقرانه بتلك السهولة وذاك الظرف الذي لا يدعه في ارضن الساعات اي
حين يمدح الخلفاء .

لا يموت جريّر في سبيل اللحم ولا يتحرق تحرق الاخطل ويخرج صوراً
جافية مثل هذه :

اعرضن لما حنى قوسي موّترها وابيضّ بعد سواد اللمة الشعر
ان هذه الحشونة تقلب الاعراض فرعاً فيهرين منه ، وهو لو كان ألين
وأرق لارعوين لحاجته ورأى ان عندهن لذي الشيبة بعض الوطر . . . اما
جريّر فأجمل منه مخاطبة لهن فينادي صاحبه :

يا ام عمرو جزاك الله مكرمة ردّي علي فؤادي مثلاً كانا
لا شك انها وقفت وسارت الهوينا مصغية الى تلك الموسيقى ، كما انها
تنفر نفور البقرة الجافلة حين تسمع الاخطل يندب وينوح :

بانت سعاد ففي العينين تسهيد واستحقت لبّه فالقلب معمود
انها تنفر وتمضي بتلك الحقية ولا ترد عليه . . . عجباً لغيث ، الم يجد
مستودعاً لقلبه أنعم من ذلك الحرج وآمن من ذلك الموقع ؟ . قد عرف

الاخطل فعل الكلام فقال : والقول ينفذ ما لا تنفذ الابر ، افما علم ايضاً انه يلين القلوب القاسية ؟ انه الطبع ، فكلام صاحبنا على بلاغته وصحته ومثاقته خشن كعباء الموصل .

لا نظلم جريراً اذا قلنا ان شعره الهجائي هدير وعواء ، ولكن في هذا الهدير والعواء ايقاعاً يستلذه السمع والذوق فتتسنى بذاءته . اما ماذا وبماذا يهجو فأعداء جرير كأعداء هيفو ايضاً ، عبيد وتيوس وخنازير وكلاب ، وعقيدهم الفرزدق قريد اصلع وقين ، ماعونه غلاب وكير وعلاة وقدم ومبرد وكلبتان وعدل من اللحم الاسود . وكذلك آباؤهم وامهاتهم جميعاً .
فرقّع لجدك اكيره واصلح متاعك لا تفسد

واذا طفح الكيل زج في شعره هنات واشياء يستهجنها اشد الناس حباً للاحماض . فكل ما هجا به الاخطل والفرزدق ينحصر في بضع كلمات ، ولكن براعة سردها تنسيك قبح تكرارها فلا تحتج ولا تعترض . كان لجرير الكيماوي مرتع خصيب في تلك الفرزدقة ، وهو ادري الناس بفحص الدمن وتحليلها واكتشاف مضامينها ووصف ما بها من غرائب وعجائب ، كما ان دين صاحبه الآخر - اي الاخطل - اوحى اليه كلاماً مستطاباً :

قال الاخطل اذ رأى راياتهم يا مار سرجس لا اريد قتالا
فهذا الكلام على بساطته استهوى الناس في امس ويستهوينا اليوم
فنقول مع الفرزدق : قاتله الله ! فما احسن ناحيته ، واشرد قافيته .
اجل هو شاعر طلي محبوب ، ذو قريحة فياضة ، حاضر البديهة لرد
الجواب ، يعينه على ترسيخ كلامه في الاذهان اسلوب رائق . ان شرّة
جرير لا تنطفي ، لا رحمة عنده ولا غفران ، يضرب بألم وحقد وضغن ،
فلا هواذة ولا هدنة :

ولو متنا لشد عليك قبوري بمسوم مضاربه حسام

اما كلمتي المجلدة في هؤلاء الثلاثة فهي : الاخطل اوفرهم فناً واسمهم
خيلاً ، وجريز اشد هم فتنة واقلمهم صنعاً للمنتوجات البيانية ، فكلامه طوعي
اختياري لا فن فيه ، والفرزدق لا فتنة عنده ولا فن الا متى وصف نار
غالب ، وقدور دارم ، وصفوف المعتفين حولها في السنة الحمراء .

عصر الغزل

كان عبد الملك بن مروان ابصر اهل عصره بوجوه الكلام ، وادرى جيله بالشعر الجيد ، وابلغهم كلمة ، واملحهم نكتة بمضة . واذا كان الناس على دين ملوكهم فعصر عبد الملك عصر نهضة استقل فيها الهجاء والغزل ، وكانت الخطابة ، وبلغ الشعر الحمري الأوج . فابونواس صهر صور الاخطل والاعشى والوليد وغيرهم ممن تقدموه في بوتقة فنه فخرجت ابهج واملح ، وانبثقت له صور خمرة طريفة اعانه على اخراجها دينه الذي حرّم الحمرة ، وظرفه ، وخفة روحه ، ولسانه ، وسهولة بيانه .

فاذا راعينا مدينة العرب والفرنسيس كانت شعراء عصر عبد الملك كشعراء عصر الملك الشمس . فالمدح والغزل والهجاء اجتمع اشدها في عصر ابن مروان ، عصر نهضة الشعر الرصين ، والكلام العربي المبين . فالغزلان الاباحي والعذري استقلا في هذا العصر حتى اذا ما انقضى امسى الغزل كالمقبلات التي تتقدم المآدب . فعمر وجميل هما شاعرا الغزل ، اما بقية الشعراء فبدد . واحسبك توافقي على كنية جديدة نطلقها على ابن ابي ربيعة . قد وسخ عمر كنية ابي الخطاب في غاراته التي شنّها على الحريم ، فأبو جوان تلبق به وتدنيه من زميله دونجوان الاوروي . ان دونجوان شخص اسطوري اما ابو جوان فكنية حقيقية ، لأن جوان بن عمر كان رجلاً صالحاً كما روى الاصبهاني . فليهنئ العرب دونجوانهم ، وماذا

ينقصنا بعد ؟ . .

قال الجاحظ في حجاج النبوة : والناس اشبه بازمانهم منهم بأبائهم . والحجاز كانت في زمن عمر مترفة . ثروة يضحها الفيء الذي ينصب فيها انصباب وفود الماء في بركة المتوكل . . . وماذا يعمل شاب قرشي سد عليه الامويون وعلى اخراجه مطلع السياسة ، واغرقوهم في الأعطيات لئلا يتناولوا على الخلافة ؟

احس عمر انه شاعر ، وهبت في صدره الاهواء فغنى لها فحملته على اجنحتها الى عبقر . قد يكون ركب رأسه بعد موت ابيه ففتنته مجالس الغناء والشراب والجواري والقيان والمواسم التي تتجدد كل عام عندهم . فمكة مشى الاكابر ، ومصيفهم الطائف ، وعمر منهم . يسيل العقيق فتسيل معه عواطفهم ، ناهيك بالقصور والجنات التي قامت على آثار الطول كما انبأنا عمر بقوله :

هَجَّ القلبَ مغانَ وَصِيرَ دارسات قد علاهن الشجر
وكما قال جرير يخاطب هشام بن عبد الملك :

شقت من الفراتِ مباركاتٍ جواري ، قد بلغن كما تريد
وسخّرت الجبال وكنّ خرساً يقطع في مناكبها الحديد
بها الزيتون في غلل ، ومالت عناقيد الكروم فهن سود
يعضون الأنامل ان رأوها بساتيناً ، يؤازرها الحصيد

في مثل هذا المحيط الفتان نشأ ابو جوان . لست احدثك عنه وعن عصره ومحيطه وحياته ، فقد كفانا ذلك الاستاذ الكبير جبرائيل جبور . فان شئت ان تختص فدونك الكتاب النفيس الذي الفه . انه كتاب جامع رصين فيه اناقة عمر في شبابه ، وترتيب هندامه في زمانه . فشاعرنا ابو جوان كبير الحظ ، حياً وميتاً ، وحسبه ان يكتب عنه هذا الكتاب الغني شكلاً ومادة .

كان عمر غنياً جداً فاستغنى عن الخلفاء ومدح النساء . ولم يجد له ندّاً بين شعراء عصره فيهاجيه فاخص بالغزل . وهل في الدنيا اختصاص اجمل من ان يوكل رجل بالجمال فيتبعه اين وجده ؟ لم ينبغ عمر في الشعر منذ طلع ، ولكنه مرّ في ثلاثة اطوار تتمثل في اقوال زملائه المعاصرين . قرزم عمر فقال جرير اذ سمع قوله : شعر حجازي لو اتخذ في تموز لوجد البرد فيه . ولما دانت له القوافي قال فيه : ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر . ولما شقّ طريقه الى خدور النساء ومشى اليها مشية الجباب ، فوصف حديثهن في خلواتهن ، قال الفرزدق : هذا الذي اراده الشعراء فاخطأوه وبكوا على الطلول .

ظل عمر ينحت ويعمل ، استوحى عاطفته ومحيطه ، وانقاد للهوى فلم يخرج من تلك الدائرة . ومن يستطيع الخروج من دائرة الهوى ، فهو عند علماء النفس : حصر الحياة السيكولوجية في نطاق واحد ، واتجاه القوى الفاعلة نحو النهاية المشتبهة ، وتكييف كل وجودنا كما يقتضي ميلنا . وهذا ما وجّه عمر في فنه هذا التوجيه . وقف عمر على الاطلال كما وقف المتقدمون فقال وقصر عنهم :

ألم تسأل الاطلال فالتربعا بطن حليات دوارس بلقعا
وليس هو اول من وصف لنا حالته عند الحبيبة وما أتى من ضروب
الشهامة . . . فقد سبقه الى ذلك امرؤ القيس ، ويكاد يقع الحافر على
الحافر اذ دخل هذا دار نعم وذاك خدر عنيزة . . . ويتشابهان ايضاً في
قصيدة ذات البعل الذي يغط غطيظ البكر شد خناقه . . . ويتفق ايضاً
مع الفرزدق واللتين دلتاه من ثمانين قامة . . . ولكنه كان اقرب الى
الواقع مشهماً ، لانه اتف واخنت وأشب . وفي الغزل الذي
جاءه من اليمن - كما قالوا - لم يفق عمر سواه ولم يبتدع شيئاً ، فأين

إبداعه اذن ؟

ان ابداع ابي جوان في « ليت هنداً » وفي « هيّج القلب » وقصائد أخرى من طرازها ولكنها دونها روعةً وفناً . جعل عمر نفسه المحبوب وروى لنا احاديثهن في خلواتهن فأرانا انهن مثلنا من لحم ودم . . . هذا الذي سبق فيه عمر . كان شعره متصلاً بنفسه كل الاتصال بل هو صورة حياته اليومية ، اخرجها قلم أوتي براعة القصص ففتن الناس . لم يتكلم بلغة امرئ القيس وتلاميذه بل باللغة التي تفهمها المرأة كل الفهم ، وكان شعره غير مهتاج ولا مضطرب ولا متألم لأنه محظوظ يشكو اليسر لا العسر ، ففتح قلبه نصف فتحة ، لا يترك شعره الغزلي أثراً عميقاً في انفسنا لانه لم يتألم ولم يحرم . لا يعبر عن خوالج النفس الا الكبت وعمر متنقل من زهرة الى زهرة كالفراشة ، فهو كما يقول المثل عندنا : « شَمَام هوا قطّاف ورد » . مهنته الحب ، وآلاتها الشعر والمال والفراغ متيسرة له : خيول مطهّمة ، وخدم وحشم ، وعبيد وجوارٍ ، واصدقاء يعاونونه على حاجاته ، يبشّم هنا وهناك ككلاب الصيد ، وهل يصيد الأطباء غير الكلاب كما قال ابن الرومي ؟ . . . كان يجب ان يكون لعمر مكتب استخبارات وسفارة لا تنقضي شؤونها وشجونها ، فهو دائماً يتصل بهذه وتلك وهاتيك . رسل تروح وتجي . . . جنّاد وزير دفاع ، وعتيق ذو الوزارتين ، الخارجية والداخلية ، وعبد الله بن جعفر وزير مواصلات ، وابن سريج والغريض وزيرا الدعوة والنشر . جوار سود وبيض تقضي حاجات رجل لم تشغل باله السياسة ، فمهام دولة الحب تكفيه . اللهم غفرانك .

تستلذ شعر عمر كحكاية حال لا كعاطفة حادة تشاركه فيها ، ففي اشد تحرّقه احس ذلك البرد الذي عناه جرير . ليس هناك حب صحيح ، انما هنالك تمثيل فصول ملذات وشهوات بطلها ابو جوان - كلاه بحفظ ربه المتكبر

— فابو جوان في قصصه ممثل اكثر منه شاعراً محباً محبوباً . لا يغلي ولا يثور بل يمثل مشاهدته على حقها ، وهي تكاد تكون واحدة . يتلهى بالمرأة تلهى الطفلة بدميتها ، ويقول في ذلك شعراً فيجيء قصة صغيرة سهلة ذات اهتزازات اشبه بالتي تحدثها قصة غرامية ، او احدى حكايات الف ليلة وليلة . ليس هذا لأن نفس عمر في ذلك الشعر بل لانه يمثل لك مشهداً يوقظ فيك تاراً كامنة .

ليس في ذاك الديوان ابتسامة ، ولا ما يتسم له المرء ، بل هناك وصف حالات نفسانية سطحية . كلام بسيط سهل تفهمه النساء ، ويتمنين ان يقال مثله فيهن . لا الوان ولا صور الا تلك الاحوال التي تحدث ، ويأتي الشاعر على وصفها وتكاد تكون هي هي دائماً . شعر مرسل عفو الحاطر ، وهو — احياناً — لولا القافية يشبه الرسائل المنشورة . لا يتورع من ان يفتحها باسم الاله ويضمّنها معاني من قوله تعالى ، ومن حديث رسوله ، ويجوّلها عن القصد . نفسٌ قصير وعملٌ فيه بعض العناية ، لا ينظر الا لما يقول ولا يهمه كيف أدّاه . يعمل ويصف ما عمل ، ولا حاجة الى كد الخيال واعمال الروية . لم يمر عمر في ازمة لنرى ما يخرج من رأسه ، فلم يقل الا اشياء سطحية يعرفها اقل الناس اختباراً ، ولكنه اجاد وصف هذه المظاهر اجادة فنية كاملة ، فاذا امكننا تقسيم علم النفس الى داخلي وخارجي كان شاعرنا من وصافي الخارج ادق وصف ، بذلك الحوار الذي لا يفوته منه شيء . وكأنني به يصغي باذني فرس لينقل الحديث كما هو ، ويمعن النظر ليصور الحركات الخارجية :

فقلت ، وعصت بالبنان ، فضحتني وانت امرؤ ميسور امرك اعسر

ليس في قصصه عمل فني ، ولكن شخوصها حية تتحرك ، والحوار لا غبار عليه ، اذ ليس هناك لفظة يستحي منها كما ستري .

عمر والمرأة

لنحاول درس نفسية المرأة في عهد عمر ، فالمرأة في عهد عمر وعهدنا كما كانت في عهد آدم... وابوجوان لم يعنه منها الا هذه الناحية. انه مرزوق ، لا يموت من الغم ، كالبحتري ، اذا افلت منه طيف... قال احد مؤرخي عصر عمر : هذا عصر انتهى فيه سمن العرب وفاضت الدنيا عليهم . فلا بدع اذن ان رأينا حبيبات عمر متوفات ، غنيات ، شريفات ، قارئات ، كاتبات . لم يعرفنا عمر على شخصهن معرفة لا تخلط بين واحدة واخرى ، فكلهن دمي الرهبان ، وعين البقر ، غزالات عليهن ذهب . مسك وعنبر ، ما فيهن تفلات ، العطر يفوح من أبرادهن وخيامهن ، كما قال في نعم :

فدلّ عليها القلب ريّا عرفتها لها ، وهوى القلب الذي كاد يظهر فلا ترى في شعره اذ يصفهن الا العطر والزعفران ، والزبرجد والجمان والمرجان ، والياقوت والقرنفل واليلنجوج ، والرند والكافور والزنجبيل . فطعم كل واحدة كالراح ، وريقها راح ، وسلافة الراح والتفاح ، والعقد الرطيب والعسل :

ولو تفلّت في البحر ، والبحر مالح ، لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا اما الملامح فعينا جوّذر وجيد ريم ، وحسن كلهلال والدينار في ثياب العصب . كل اسنانهن وانياهن — لا ادري لماذا انفّر من كلمة انياب — مفلاجة

مؤشّرة ، وهي دائماً تشبه البرد والاقحوان ، او كسنا البرق. وهذا الجمال يزينه
 خز وقزّ ، ووشي ودرجليّ ، وسوار وبريم واخلال . اما الجلود فطريئة ناعمة :
 لو دبّ ذرّ فوق ضاحي جلدها لأبانَ في آثارهنّ حدود
 افلا تظن ان الذرّ يعمل ايضاً في جلدي وجلدك الناعمين مثلاً عمل
 في جلدها ؟ واغرب من هذا كله ان احدى صاحباته تراءت له كالشمس ،
 اما كيف فاسمع :

هي الشمس تسري على بغلة وما خلت شمساً بليل تسير
 ليست هذه الشمس على البغلة مضحكة جداً ؟ ولا غرو ان تتداعى
 الافكار عند ذكر البغلة فتحضر الى ذهن عمر صورة البيطار ، فيقول في
 سمساره ابي عتيق :

ودعاني ما قال فيها عتيق فهو بالحسن عالم بيطار
 ان عمر قرّم دائماً الى اللحم ، انه يريد لحماً كثيراً ، حتى يسأل
 القضاة ان يجيزوا شهادة العجّاء ، اي التي لها الية كالخروف :
 يا قضاة العباد ان عليكم في تقى ربكم وعدل القضاء
 ان تميزوا او تشهدوا للنساء وتودوا شهادة للنساء
 فانظروا كل ذات بوص رداح فأجيزوا شهادة العجّاء
 وارفضوا الرشح في الشهادة رفضاً لا تميزوا شهادة الرشحاء
 ثم يكشف صدره وينبش شعره ليدعو على الرشح دعاء ارملة مقطوعة
 فيسأل الله قصف اعمارهن :

عجّل الله قطّهن وأبقى كل خود خريدة قبّاء
 تعقد المرط فوق دعص من الرمل عريض قد حفّ بالانقاء
 ألا ترى ان لو تجمعت رملية بيروت وكانت كفلاً لاحداهن لوجد
 فيها عمر اقصى امانيه كقوله :

مرتجة الردفين بهكنة رؤد الشباب كأنها قصر

يا بارك الله ! انها تذكرنا بناقة عنقرة . . .

بهذه العين ينظر اليهن ابو جوان وينتقيهن كالكصّاب من بين القطيع .
واعجب من هذا انه يشبهن باللحاف .

ويرى عمر الحسن مخلوطاً بالطيب فلا يصبر عنه ، وكيف يصطبر من
ينصح فتين في المسجد تلك النصيحة الثمينة ؟ . . اما الخلق الكريم فما
ذكره عمر الا مرة ، واطنه اضطر اليه فقال :

سيفانة أوتيت من حسن صورتها عقلاً وخلقاً كريماً كاملاً عجباً
بل هو بالعكس يصفهن بما يسفلهن فيجعلهن كريمات حتى على ابن السبيل :
غريب أتى ربعنا زائراً واکره رجعت خائباً
اما صلاته بهن فأشبه بصلات كل محترفي هذه الحرفة . يتروّد هنا
وهناك ترصد المهر للعصافير . كان موسم الحج لعمر كالاعیاد عندنا اليوم ،
وكما يفعل كثير من شباننا كان يفعل ، وكما يلقون في آذان المارات
كان يلقي ، فمن شاء ان يتخيل صورة عمر كاملة فليتأمل احد هؤلاء عند
ابواب المعابد والمنتديات ساعة الانصراف . كان عمر فويسقاً عياراً فاسداً
مفسداً :

قالت لترب لها ملاطفة لنفسدن الطواف في عمر
فالحج عند ابي جوان معرض جمال ينهال فيه عليه الرزق فيوزح تحت
اعباء الواجبات المتراكمة . . . وهو ملحف ملحاح ، ووسائل الاغراء عنده
كثيرة ، فكثيراً ما كان يتوسل اليهن بالعمومة والحوولة ووحدۃ الحال .
ولا يتورع عن ان يتخذ من الدين اسباباً يمدها بينه وبين حبيبته ، فيقول :
لا يحل لك قتل مسلم ، وهلم جراً . وبهمة ونشاط تلك « المنظمة » التي
كانت حواليه ، قلما افلتت منه حمامة . . . ولا تنس الغناء . كان عمر

يجعل مجالسه على مفرق الطرق والمعابر ، ومغنيه ابن سريج والغريض ،
وكثيراً ما كان يوفدهما ليغنيا بشعره عند من تعصى عليه فتلين وتحن . . .
ان امثال عمر كيرون في الحياة ، فصاحب مدام بوفاري انتظر
(الكوميس) Comices فاصطادها . اما نساء ذلك العصر فما فاتهن ان
ابا جوان شركة مساهمة كما يتضح من قوله :

هذا الذي منح النساء فؤاده فشركنه في محبته والأعظم
وهو مشهور عندهن بالخداع ، وقد اعترف بذلك بلسان احداهن :
غرّ غيري فقد عرفت لغيري عهدك الخائن القليل الثبات
كما يقول في مكان آخر : ما سمّي القلب الا من تقلّبه . . .
وابو جوان يلاً شعره بالأيمان المغلظة ، والقسم من مظاهر الأدب العربي
عموماً ، ولا سيما القديم منه ، بل من مظاهر حديثنا ، ولذلك اجاز النجاة
الفصل بالقسم في كل موضع حتى بين قد والفعل الماضي . اما الميزة
العجائزية التي اراها في شعر عمر فهي انه يدعو مثلهن ، ويحب مثلهن عدد
الرمل والتراب والنجوم والحصى وورق الشجر ، ومن يكن كذلك فلا
بد من ان يقتحم البيوت ويغامر ولكن ليس في شرف مروم . . .

بالله ربّ محمد خبرني حقاً اما تعجبين من هذا الفتى
الداخل البيت الشديد حجابه من غير ميعاد اما يخشى الردى
وهو تبّع الى اقصى حد حتى قالت فيه احداهن :
خذنّ عني الظل لا يتبعني ومضت تسعى الى قبّتها
ولعمر تأتية تدل على هذا الخلق الكريم اذكر لك منها شيئاً اعجبني ،
وفيه الدليل الاعظم على انه كذاب لا عهد له :

من كلام تهذّه وجلف فلعمري فرما قد حلفتنا
ثم لم توفِ اذ حلفت بعهد بشّ ذو موضع الامانة اتنا

قلت مهلاً عفواً جميلاً فقالت لا وعيشي ولو رأيتك متاً
ويعبر عن هذا الغدر في موضع آخر حيث يقول :

ثم قالت لأختها ولأخرى جزعاً ليته تزوج عشرا
كان عمر بلاء على الحواج وعلى اهلن ، وقد اعيى العمال والخلفاء
وذوي النساء كما حدثونا عن عبد الملك وابي الاسود ، ولكن النساء كن
راغبات فيه ، وله معهن قصص تشبه حكايات الف ليلة وليلة . كن يردن
شعره ويطلبنه حتى ان احداهن سألت عنن يخلفه حين بلغها خبر موته .
ما شبت عمر مع النساء الا بولد مدلل يظل يطلب اصناف الاكل ، تارة
بالتمرد ، وطوراً بالملاطفة والمداهنة ، وحيناً بالشكوى فيزعج اهل البيت
فيرضى بالتافه سترأ على امله .

ان الحياة البوهيمية التي عاشها ابو جوان قد استحال معها الهوى
عادة ، وكان الخير فاضلاً عنه ، فهو لاحق بهذه الى العراق ، وبتلك الى
الشام . يصور لنا حيلن لتصيد ، فتلك تنصح له ان يأتي على بغلة لا على
بعير يسدّ الفضاء :

فان جئت فأت على بغلة فليس يواتي الخفاء البعير
ولا على مهر ايضاً فالمهر يفضح :

وليأت ان جاء على بغلة اني اخاف المهر ان يسهلا
اخبرت ان ابا جوان كان عند احداهن ثقل الظل ، اما عند الثريا فهو
يجعل نفسه كيوسف من امرأة العزيز :

فالتقينا ، فرجبت ، ثم قالت : عمرك الله ، ائتنا في المقل
في خلاء كما يرينك عندي فيصدقني ، فداك قبيلي
لم يوعهن عند ذاك وقد جئت لميعادهن الا دخولي
قلن هذا الذي نلومك فيه لا تحجّي من قولنا بفтил

فصليه فلست فيه « تلامي » فهو اهل الصفاء والتنويل
 هذا عمر والمرأة ، فلننتقل الى شعره الذي كاد يكون وقفاً عليها ، كما
 قال لابن عمه عبد الملك : انا لا امدح الا النساء .

سُعر عمر وسأعربته

لقد شبع شعراؤنا تقديساً فلنشبعهم نقداً .

إذا صنفنا الشعراء كالنبات - على مذهب برينتيير - وجدنا أبا جوان وأبا حزره من صنف واحد . كلا الشعيرين من النوع الخفيف ، وبينهما فتيّاً اقرب النسب ، ولا فرق بين الشاعرين الا في الاستيحاء فقط . فعمر يستوحى الجمال والحب ويقول فيه احسن ما عنده ، وجرير يستوحى البغض والقبح والمعائب فيأتي بالبدع . ان عمر حبيب قلب الشباب ومعلمهم ، غنى الجمال غناء حلواً عذباً اذ استشعر الحسن . قد كان في الامكان ابداع مما كان ، ولكن عمر لم يحس الا الظواهر فكان تأثيره عابراً وليس فيه عمق : اتكأ على القدماء في معظم صورته ، وشن الغارة على اكثرهم فأخذ صوراً وتعايير من امرئ القيس والاعشى والاخلطل وعنترة فأدخلها في شعره ، حيث دعت الحاجة اليها ، فكادت تكون من نوع النسخ .

فخرج مع عمر من قيود القدماء قليلاً ، فهو لا يحطمها كل التحطيم ولا يغفل نفسه بها غلاً . هو صوت جديد نسمعه فنصغي اليه مرغمين لأنه لا يحدثنا الا عن الحب - حديث الابد - لا تشم في شعره رائحة القطران والقار ، فناقته لا تحضر مجالسنا ، يتركها في العراء ، لطارق ليل او لمن جاء معور . كان عمر أقرأ شعراء زمانه للقرآن الكريم وادراهم بالحديث الشريف فتأثر بذلك . لانعني اللهجة الخاصة فهذه مكتسبة من المحيط ،

ولا الاسلوب فهو حجازي مكّي قرشي ، ولكننا نعني ان في شعره عبارات بعينها اخذت من الكتاب العزيز . فأبو جوان عارف لدينه يستثمره - كما قلنا - حين يضطر ، وقد يتفقه « لهن » اذا اقتضى الصيد فقهاً . . .

ولا غرو ان كان فصيحاً لسنّاً فهو احد ابناء العصر الذي وصفه الجاحظ بقوله : كان اغلب الامور عليهم ، واحسنها عندهم ، واجلّها في صدورهم ، حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به . ان ابا جوان رابع ثلاثة شعراء افسدهم اليتيم : طرفة والاخلط وابي نواس ، فسار كل منهم في الطريق التي وجهه اليها طبعه ومحيطه . كان الغزل محبوباً في الحجاز ومن طبيعة اهله ، فانفرد به عمر واختص ، ومن اخرى بذلك من عمر :

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء ايّ مفسده

كل هذا طوع يد عمر فصار الحب والشعر مهنته وعمله . تفرّد الحجازيون في عهد بني امية باللهو وأورثوه العباسيين فاستحال معهم مجوناً وعبثاً وتهكاً ، كانت له مدرسة بشار فأبى تلك المدرسة الاباحية التي اخرجت ابا نواس وغيره من النبهاء ، فكلهم يمتّون بنسب فتّي الى جدهم الأعلى امرئ القيس .

ليس لعمر حساسية بشار الفنية ، ولا نفس ابي نواس المرحّة ، ولا موسيقى جرير . هو وسط الخيال ، وسط الحساسية ، منفرد في سهولة الشعر ، لا يحسن الا بث شكواه وتحرقه احياناً . كل ديوانه تكرار ممل للحوادث والتعابير يكاد ، لولا القليل ، ان يكون موضوعه واحداً . لم يصف تلك المجالس ولا ما كان في الحجاز على عهده ، ولم يذكر العقيق الا كما ذكره جرير . فهو في الشعراء من اصحاب « الفكرة الثابتة » ان جاز لي هذا التعبير . لا يعنيه الا جسد المرأة . افتخر مرة ، وما هجا قط .

رثى قتلى صفين بأبيات بليدة، ورثى امرأة جميلة قتلها مصعب، بثلاثة بيوت، وهي لو كانت حية لتبعها الى حجرها. فاذا كان لسجع الحمام شبيه فهو شعر عمر. وليس عمر مفكراً فيعنيه ما وراء القبر، وان ذكر ذلك مرة فليقول :

وليت سليماً في الممات ضجيعتي هنالك ام في جنة ام جهنم
وليس متفناً فيبالي بالصور، بل يهمه ان تفهم عنه من يوجه اليها
رسالة شعرية، وان تعجب تلك الرسالة غيرها من النساء فتمنى مثلها .
وان طلبت احداً من شعراً قرزم لها . كان عمر فبركة شعر مثل فبارك
اميركا في اخراج المنتج الحربي . واكثر هذا الشعر يصدره المعمل
كيفما اتفق له : قصص ووصف حيل ، وصف سهرات حتى الصبح ،
والصبح ، دائماً ، مفتوق اشقر . كأن صبح الجزيرة لا يتغير كصبح لبنان .
مواعيد فملتقى وكلها على نط واحد . ناشد ينشد ، او عمر يتلصص ليهجم ،
رسائل ومعاتبات ، والعتاب صابون القلوب . لا يحسن دعاية ولا هزلاً ،
ولا يذكر بعد الاجتماع الا ما ذاق وشم . . . يستغفر الله على الشعب ،
ويوصي بالكظة بخلاف ابي عبد الرحمن . كلبى الفلسفة يحس ما يراه :
والشوق يحذثه للعاشق النظر ، كما يقول . لا يفكر الا بعينه ولسانه .
حساسية تقليدية فاذا حضرت الحبيبة قال لها : بل قاذبي الشوق والهوى .
لا يتعدى في شعره العام منطقة الاقليم المعتدل . لم يبدع في الغزل بل
في وصف الواقع . بذ الشعراء اجمعين في بضع قصائد قصية ، ومن هذه
الروائع اتته الشهرة التي استحقها .

يكرر عمر ليقرر ويثبت ، فكأنه درس علم الايحاء على فرويد . يقول :
رب لا صبر لي على هجر هند . رب ، رب ، رب ، كأنه من رجال حلقات
الذكر . رأيت عمر يتضاءل امام هذه « الهند » بينا هو يرى نفسه عند

غيرها فوق الجميع كما يقول :

ما وافق النفس من شيء تسرّ به واعجب العين الا فوقه عمر
كان عمر من المبتهرين ومثله كثير بيننا . ففي كل عصر أناس كثيرون
يقولون كما قال ، ويكونون قد استقبلوا بالنعال .

يكثر عمر من الجمل الدعائية بلسانهم فتخالهن ذائبات . قد ألهت عمر
المرأة عن فنه فهو لو فكر أكثر ، كما كان يفعل بشار ، لجاء بما هو
اعجب . ولكنه قليل الصبر اذا أدّى الفكرة نظماً عدّ ما قاله شعراً .
لا يتسع المجال فادلك على الكثير ، ولكن واحدة تريك تلك الحصلة فيه :
يا ربة البغلة الشباء هل « لكم » ان ترحمي عمراً لا ترهقي حرجاً
فكيف رأيت « لكم » في هذا الموضع ؟ ان اخواتها كثيرات
في ديوانه . فما أكثر ما انس لا انس ، وبيننا ، وبيننا ، وملاشياء
واضربها مثل : ملحب ، وملكاشجين ، وملساحة حتى ملغم . . . وما
أكثر التلين الكويه كقوله : او تدابان حقبة مثل دايي ، ومثل : عند
قراتك القرانا ، او مثل : اقول لواش سألني وهو شامت .
ويدهشني قول ابي عمرو ابن العلاء : ان عمر حجة في اللغة العربية ،
وما تعلق عليه الا بحرف واحد وهو قوله :

ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد الرمل والحصى والتراب
وكان ينبغي ان يقول : أتحبها ، لأنه استفهام . وله وجه ان كان
اراد الخبر ولم يرد الاستفهام .

قلت واي وجه يجده لنا ابو عمرو في قول صاحبه عمر : فهلا تسالي
افناء سعد . وكقوله : ما انس لا انسى غداة لقيتها . وكقوله : من ذا
يلومني ان بكيت صباة . وقوله : من طيب نشر التي نامتك اذ طرقت .
وقوله : اذا انا لم القاكم سوف ادمر . وقوله : وفيم بلا ذنب اتيتيه اهجر .

وقوله : رأين الغواني الشيب لاح بعارضي . وقوله :

ما احسن الود والصفاء وما اقبح منها الهجران والعذر
بضم العذر والهجران ، والقافية مبنية على النصب . وكقوله : آه بل
ليتني بخذك خلا . وقوله : لكلفتني قلبي اتابعك اني . وقوله :

رجعنا ولم ينشر علينا حديثنا عدو ولم تنطق به شفتان
بضم المثني ، لان قصيدته مضمومة . وكقوله : فصليه فلست فيه تلامي .
والى جانب هذا الاهمال مصنوعات فنية رائعة جاء بها فداآت على ان
هناك شاعرية لم يتعدها صاحبها . ولا عجب فالهوى يحتل ساحة الشعور
ويطرد منها كل شيء ، ويبقى وحده . ومع هذا تجد لعمر تعابير فنية
جميلة جداً ادرکها المتقدمون وافاض في سردها صاحب الاغاني . وفي هذا
الشعر المدني تلمح شيئاً من البداوة كقوله :

فلما توافقنا عرفت الذي بها كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل
لا نطالب الحجاج بقوله لاهل الشام : انتم العدة والحذاء ، ولكننا
ننعمى على عمر قوله : حذوك النعل بالنعل ، وهو من عرفنا .
ولا يغفل عمر عن بعض الحرافات ايضاً فيذكرها مثل : خدر الرجل ،
واختلاج العين ، ونحن ما زلنا في هذا العصر نجرّ خلفنا امثال هذه ونقطر
الى القافلة ابصرة جديدة .

لا يلين شعر عمر ويواتيه الكلام الا عندما يحسّ حقاً كقوله ، وما
كان اقدره على الاسترضاء :

اليس كثيراً ان نكون ببلدة كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلم
بمثل هذا ، وبمثل هذين البيتين فتن عمر العقول :

أومت بعينيها من الهودج لولاك في ذا العام لم احجج
انت الى مكة اخرجتني ولو تركت الحج لم اخرج

البيتان جميلان ويصيران اجمل منها متى ارسلها ابن سريج والغريض في
البطحاء . فقد كانا من شعر عمر كما كان عبد الوهاب من شعر شوقي . اما
نحن الآن فبعيدون عن الطلسم الغريضي والسريجي نرى الشعر كما هو ،
وكما يوحى الينا . ان عمر لم يتفوق فنياً الا في قصصه ، وفي اربع قصائد
لا غير . ولأجلها قال الفرزدق : هذا الذي اراده الشعراء فأخطأوه وبكوا
على الاطلال .

وسننظر في ثلاث منهن خاتمين كلامنا عن ابي جوان الذي شغل رجال
عصره حتى العلماء . انه ليستحق . جلّ من لا عيب فيه وعلا .

قوالد عمر

ان اسلوب عمر بسيط وحلاوته في بساطته تلك ، فالنثر العربي يكتفي
عن الهيفاء بقوله : غرثي الوشاح ، فيقول عمر شعراً :
انها كلمهاة مشبعة الخلخال صفر الحشا تجميع الوشاحا
وقد دنا عمر من لغة دهره في قصصه كل الدنو فأجاد الحوار اجادة
قصر عنها شعراؤنا جميعاً . لم يدن منه الا ابو نواس في وصف مجالس
الخمرة والندامى .

ان قصص ابي جوان كثيرة ، بل في اكثر شعره قصص : في الطواف
قصص ، وفي الحج قصص ، وفي المضارب والحيام قصص ، وفي الغرف
وفي الجبانات قصص قدرة . . . الرجل اباحي تياها ، معجب بنفسه ، لا
سر عنده ، تارة يبوح به ابتياراً وطوراً ابتهاراً . اذا درسنا كل قصيدة
فيها حكاية حال ابتذل كلامنا ، كما ابتذل شعر عمر لهذا السبب . فخير
قصائده القصصية ثلاث : أمن آل نعم ، وهيج القلب ، وليت هنداً .
وتدنو منها قصيدتان اخريان هما على الراء ايضاً ، ولكنهما ليستا من الشعر
في السطح كما عّبر الجاحظ عن مقام معاوية من قريش .

ليس لشخص خالداة عمر علامة فارقة ، فبطلاته ، في نظر الفنان ،
نساء ليس غير . فنعم وهند والثريا وزينب وكلثم وفلانة وفلانة كلهن
مثال واحد . كأنهن عمل فبركة لا صنع يد . فلست تميز احداهن من

الأخرى . كلهن بياض واحمرار ، وشحم ولحم ، وحسن وجمال . . . اما كيف اتصورهن فهكذا : لو جمعن في مجلس استطيع ان اضع الاسم الذي اشاء على كل واحدة منهن ولا حرج عليّ .

قد قرأت ديوان عمر الجامع بيتاً بيتاً . اقول « الجامع » لأزني وجدت اسمي فيه حيث يقول :

سحرتني الزرقاء من مارون انما السحر عند زرق العيون
فهل من يدبرني ما هذه او هذا المارون وله الأجر ؟ قرأته كله فما وجدت علامة فارقة الا مرة واحدة حيث قال :

ربعة أو فويق ذاك قليلاً ونؤوم الضحى وحقّ كسول
فهذه الشخصوس مجهولة ، كما ترى ، ناهيك ان القصص كلها على نط واحد : اذكر الذيب وهي القضيبي :

بينما يذكرني أبصرني دون قيد الميل يعدو بي الأغرّ
بينما كذلك اذ عجاجة موكب رفعوا ذميل العيس بالصحراء
قالت لجارتها انظري ، فمن الألى وتأملني من راكب الوجناء
قالت ابو الخطّاب اعرف زيّه ولباسه لا شك غير خفاء

ويغلب التثليث على بطلاته ، فبطلات « أمن آل نعم » ثلاث . وبطلات « هيّج القلب » ثلاث . وهكذا دواليك . فهل قال هذه القصائد في موضوع واحد ؟ لم يصف عمر في شعره الا اللون الأزلي ، فهذه المهازل بل المآسي التي يمثلها تصلح لكل مكان وكل زمان ، فشعره المقول في هند ونعم وغيرها يصح قوله في كل انش ، فعبثاً نفتش فيه عن اللون المحلي . فليلة ذي دوران اشبه بمسرح متنقل ينصب حيث تشاء وتمثل عليه كل رواية . لا زينة مختصة بكل مشهد ، فكأنه ذلك المسرح الذي حطّمه دون كيشوت . بلى عمل عمر اطاراً واحداً لقصة واحدة وهي :

هيج القلب مغانٍ وحيّر دارسات قد علاهن الشجر

ففي هذا البيت اصاب عمر عصفورين بحجر واحد . بكى على الطلول كالقدماء وذكر لنا العمران العربي الحديث ، وسأل المنزل هل فيه خبر ، ولكنه سؤال يعقبه الفرج لا يأس الجاهلية ، ناهيك ان اطلال عمر ليس فيها آرام وبعر وأثافي بل استحالت « فيلاً » كما نعبّر اليوم . ثم يتجاوز عمر هذا النطاق الضيق فيوضح المكان والزمان بعض الشيء فيقول :

اذ تمشّين بجوٍّ مونق نير النبت تغشاه الزهر

بدماء سهلة زيّنها يوم غيم لم يخالطه قتر

ثم يفلت الحيط الفني لينتقل الى بطلات قصته فلا تعرف الا انهن من الجنس اللطيف الناعم المدلل ، يتمشين في ذلك الجو الذي هبأه لهن ، حرصاً على وجوههن من الحر ، وعلى اقدامهن من الكلاله . وما اكتفى عمر بالوصف الخارجي الذي اعده لتحريك النفس فقال يصف بعض ما انطوت عليه نفوسهن :

قد خلونا فتمّنين بنا اذ خلونا اليوم نبدي ما نسرّ

فعرفن الشوق في مقلتها وحباب الشوق يبيده النظر

قلن يسترضينها : منيتنا لو اتانا اليوم في سرّ عمر

تلك هي الحطة الشعرية التي ابتدعها ابو جوان وسبق اليها ، فلم يعالجها احد قبله ، ولا بعده . ثم ينتقل الى شيء يؤيده علم النفس الحديث والواقع فيقول :

بينما يذكرني ابصرني دون قيد الميل يعدو بي الأغر

قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى نعم هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمّمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

لا شك انك قد لاحظت مثلي من اختصّ عمر بحبه . ولا بد من

« وهل يخفى القمر » ، فعمر تارة هو المشهر ، وحيناً ميسور امره اعسر ،
كما تقرأ في « أمن آل نعم » . فهو يعلم انه جرس على بغل .
وهناك صغرى ثانية هي احدى الحالدات لا تقلّ فدّاً عن هذه
ومطلعها طائر الصيت :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا بما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد
يقول البعض ان هذين البيتين قتلا البرامكة ، واقول انها قتلا
محصنات كثيرات ، وعمر يستأهل على قصائده هذه جلد القاذف الحرة .
ولكن ما لنا ولهذا فما يعنينا الا فن عمر . ففي هذه القصيدة يدخل عمر
قدس اقداس المرأة فيسمعنا حديثها مع ضرتها اذ تقول لهن ، حين
تعرت تبترد :

اكما ينعتني تبصرني ، عمر كن الله ، ام لا يتند
أمّا هنّ : فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود
حسد حمّله من اجلها وقديماً كان في الناس الحسد
ان كل حرف من هذا البيت يقطر حسداً امرّ من الحنظل الذي
نقفه امرؤ القيس . فهذا التضاحك ، وهذا القول المر ، المبطن : حسن
في كل عين من تودّ ، يصور لنا الحسد فاضلاً عن الكمال . بيد ان صاحبنا
يسفّ حين يصف أشنب هند ، وعينها وجيدها ، وبرودتها وسخونتها ...
ثم لا يلبث الفن ان يستيقظ فيسألها : من انت ؟ فتجيب :

نحن اهل الحيف من آل منى ما لمقتول قتلناه قود
قلت اهلاً انتم بغيتنا فتسمين ، فقالت : انا هند
فاجابها السيد عمر جواب استاذ في هذا الفن :
انما اهلك جيران لنا انما نحن وهم شيء أحد

ارأيت هذا الحديث الطلق ، وكيف تلقى الشباك بخفة دونها خفة
ادهش المشعوذين؟ ولكن سلة عمر عادت فارغة كما انبأنا في ختام القصيدة
— وهو اروع ختام عمله لأنه لم يحسن ختاماً قط — فهذه الآدمية خيبتة
بظرف وكياسة وهزء ، ولم تقع في فخه ، واليك البيت :

كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

الا تذكر تهكمنا اذ نقول « بعد بكره » ؟ انها هي .

قد رأيت ان شعر عمر مادي خفيف ، وأشدّ قصائده أسراً هي « امن
آل نعم » ، وهي التي احلته اسمى مقام في الشعر العربي حتى حفظها ابن
عباس التقي الزميت . فماذا احدثك عنها وسياق قصص عمر واحد وشخصه
هن هن؟ اراد عمر في هذه القصيدة ان يقول كل شيء فاضطرب جبل
الفن . وصف حبه لنعم ، وما يعترضه من عقبات ، وذكر الجهاد الذي
غير لونه ، فامسى قليلاً على ظهر المطية ظله ، ثم تخلص الى القصة التي
ابتدأت في موضع اسمه ذو دوران . لا نعرف الا انه « ذو دوران » ،
وان عمر يتلصص هناك يراقب الناس ، ويفكر اين خباء نعم . فهو نهب
مقسم . يفكر بالخروج بعد الدخول ، وماذا يعمل بناقته ، واخيراً سقط
القمر فانساب كالثعبان وابتدأت المعركة :

فحييت اذ فاجأتها فتوّلت وكادت بمخفوض التحية تجهر

وقالت وعصّت بالبنان فضحتني وانت امرؤ ميسور امرك اعسر

ارأيت ما ابرع هذا الوصف وما اسرعه؟ فأبو جوان لا يقصر — في
محاوراة النساء فقط — عن لافونتين . واجب ان تقدّر معي هذا الوصف
الموفق اذ جعل نعم تسأل بدهاء ولباقة عجيبين :

فوالله ما أدري أتعجيل حاجة سرت بك ام قد نام من كنت تحذر

فاجابها اللعين وهو داهية العاشقين :

فقلت لها بل قادي الشوق والهوى اليك ، وما عين من الناس تنظر
فاطمأت وارتاح بالها فجأرت بالدعاء الذي يبذره عمر بسخاء كلما تحدث
عن مقامه عندهن . . . ثم عقب ذلك الدعاء سلام واطمئنان حتى مطلع
الفجر . . .

فلما رأّت من قد تنبّه منهم وأيقاظهم قالت اشر كيف تأمر
وكانت حيرة عقبها بطولة دونكيشوتية :

فقلت اباديهم فاما افوتهم واما ينال السيف ثأراً فيثأر
واخيراً انجلت الغمرة وكان مؤتمر ثلاثي اسفر عن استحالة عمر امرأة
تمشي بين ثلاث ، بعدما شاء ان يكون مكرهاً لا بطلاً .

ولما اجزنا ساحة الحي قلن لي اما تستحي او ترعوي او تفكر
وفي الختام كان هذا الدرس الخبيث :

اذا جمّت فامنح طرف عينك غيرنا لكي يحسبوا ان الهوى حيث تنظر
اما ما يجيء بعد هذا البيت فثرثرة . غفر الله لعمر كل زلة فنية من
اجل خالدياته هذه ، فقد جعلته في الذروة حتى الساعة .
وهناك اخت رابعة للخالديات الثلاث قلما ذكروها بخير ، هي على
الراء ايضاً ، ومطلعها : قل للمليحة قد ابلتني الذكر .

عرف عمر هذه الفتاة بالمروتين ، وسميها تقول لفتاة :

أرائح ممسياً ام باكر عمر
الله جار له امّا اقام بنا وفي الرحيل اذا ماضيه السفر
لقد هزّت هذه الكلمات قلب عمر ، فانتظر الليل وجاء راجلاً كما

يعترف :

فجئت امشي ولم يغف الألى سمروا وصاحي هندواني به أثر
فلم يرعها وقد نصّت مجاسدها الا سواد وراء البيت يستتر

فلطّمت وجهها واستنّبت معها بيضاء آنسة من شأنها الحفر
 ما باله حين يأتي ، اخت ، منزلنا وقد رأى كثرة الاعداء اذ حضروا
 لشقوة من شقائي ، اخت ، غفلتنا وشؤم جدّي ، وحين ساقه القدر
 قالت اردتَ بذّا عمداً فضيحتنا وصرم حيلي وتحقيق الذي ذكروا
 هلاًّ دسست رسولاً منك يعلمني ولم تعجلّ الى ان يسقط القمر
 فقلت داعٍ دعا قلبي فأرقه ولا يتابعني فيكم فينجزر
 وهنا يفيض عتيق الحمر والشهد والمسك الخالص والعنبر والكافور
 والقرنفل ، ويظل عمر سادراً حتى يقال : قوما بعيشكما قد نور
 السحر . . .

وبعد ، فلا تظنن ، ايها القاريء العزيز ، ان عمر لم يسلك الجادة التي
 عبّدها الزعيم امرؤ القيس ، فقد وقف في قصائد على الديار فقال كما قالوا:
 قف بالديار عفا من اهلها الأثر عفى معالمها الارواح والمطر
 بالعرصتين فمجرى السيل بينهما الى القرن الى ما دونه البسر
 منازل الحى اقوت بعد ساكنها امست تروود بها الغزلان والبقر
 وهو هنا لا يتعفف عن السرقة الشعرية فيقول :
 وقفت فيها طويلاً كي اسألها والدار ليس لها علم ولا خبر
 ثم يصف صاحبة تلك الدار فيغير على القدماء اذ يقول :
 هيفاء لفاء مصقول عوارضها تكاد من ثقل الارداف تنبت
 ويقول ايضاً :

لمن دمن بخيف منى قفور كأن عراض مغناها الزبور
 وفي شعره من هذا غير هذا ، فارجع الى ديوانه كاملاً اذا شئت . والى
 الاغاني ايضاً اذا شئت معرفة رأي القدماء فيه ، اما انا فحسبي ما قلت .

الْعَبَّاسِيُّونَ

عصر النرف

العصر العباسي عصر ترف ، فالحب ظل حباً وزاد . ملأت الجواري
اسواق بغداد فكانت تباع بالميزاد . وهذا الرشيد يردّ جارية على الموصلي ،
بعد ان جرّبها ، ويقول له : هذه ليست من بابتنا .

والى جانب الجواري غلمان وولدان ومن يستطيع فليقتن ما شاء .
اما الشرب فاحتالوا له مجتهدين ، ففرّقوا بين الخمر والنيذ ، وبين
بنت النخل وابنة العنب ، وبين المطبوخة على النار والمعمولة في
الشمس ، وكان بين الائمة خلاف فقال في هذا ابن الرومي :

أحلّ العراقيّ النيذ وشربه وقال الحرامان المدامة والسكر
وقال الحجازيّ الشرابان واحد فحلّت لنا بين اختلافها الخمر
قصور ودور وحانات وخمارات لم يرها العرب في باديتهم فتأثروا بها ،
وكان لها في شعر الموالي ، ورثة هذه المدينيات ، اثر بيّن ، فتطوّر
الشعر بمقدار . كان منه لوانان : لون حضري ولون بدوي ، فالحضري من
عمل الموالي ، اما البدويّ فيقولوا الوافدون على الخلفاء فينفق عندهم .
والغناء بعد ان كان رجزاً وحداً اصبح فارسياً موقعاً ، وأقبل
عليه حتى ابناء ملوك العرب ، اما الحرب فظلت حرباً ولكنها سمّيت
جهاداً ، وهكذا في كل زمان تتغير الاسماء وتبقى الجواهر .

اما العلوم والآداب فازدهرت في هذا العصر ، كان المنصور مفعوداً

فترجمت له كتب الطب ، وكان الرشيد اديباً شاعراً فكثرت الشعر في زمانه واعتز الشعراء . وكان المأمون ابن فارسية فكثرت الفلسفة في زمانه ، وانتشرت حرية الفكر ، فقال دعبل الخزاعي فيه وفي خلفاء بني العباس هجاء لو قيل في احد السوق لما صبر ، ومع ذلك سلم دعبل وظل حاملاً خشبته اربعين سنة ولم يجد من يصلبه عليها كما قال .

فتح عصر المأمون للعرب باب التفكير الحر فورثت بغداد اثينا . لقد فاز العرب في اللغة والدين ولكنهم تقهقروا في السياسة ، وآفة ذلك تلك العناصر الاجنبية التي صهرها الاسلام ليجعل منها امة واحدة ولكنها لم تتحد وظل السوس كامناً في الجذع ، فما انفك ينخره حتى هوى .

لم يكن يجسر شاعر او غير شاعر من الموالي ، في العصر الاموي ، ان يتطاول الى مقام عربي ، او ان يحلم بالمساواة ، اما في هذا العصر فيرتفع صوت بشّار وابي نواس هازئين بالعرب ، وبكل ما عند العرب الا الدين ، وما ردهما عن الدين الا خوفهما على رأسيهما .

وقصارى الكلام كان العصر الاموي عصر عصية عربية وشعر ، وجاء العصر العباسي فكان عصر فلسفة وعلم وجوارٍ ، وشعر وخمر . هو العصر الذي خلق شهرزاد واخوان الصفاء . واذا شئنا كلمة شاملة قلنا : الامويّون جمّعوا ، والعباسيون بدّدوا .

بشار زعيم العلماء

فانك ماءُ الورد ان ذهب الورد . ما اصدق هذا القول على الأدب ،
فالأدب خلاصة عقل الأمة يدلّ الأواخر على السبل التي اختطتها اوائلهم ،
وما مروا به من شعاب . يبدو الهرم ويستولي الفناء على آثار الأمة
وبقايها ما خلا الاصيل من ادبها فهو لا تفارقه نضارة الشباب لأنه ابن
الحياة الحي .

ان هذه الثورات التي تضطرم في كل حقبة لدليل على ان الأدب
كائن حي ، فهو ابدآ في تفاعل كعناصر الحياة الأخرى . اذا واءمته الأنواء
برعمت غصونه الهاجعة وازهرت واثمرت ما يموت وما يعيش ، سنّة الحياة
الحالدة التي تحارب أبناءها فلا يثبت في جبهة النضال الا الأشدّ الاشدّ .
يتأثر الأدب بالحياة لأنه وليدها ، ويصعب الاختراع فيه لأنه صورة عنها
وهي لا تتغير الا بمقدار ، ولهذا تقلّ الاكتشافات فيه ، ويظلّ قديمه
متصلاً بجديته ، يتمشى تمشّي السلالات والانواع ، وينمو نمواً حسابياً لا
هندسياً . فالأديب الحق هو المصور الحاذق تلتقط ريشته المشاهد الرائعة
فتمسي في محبس الفن لتتمتع بجمالها الحواس دائماً وأبدآ . فانك ماء
الورد ان ذهب الورد .

مضى ذكر الملوك بكل عصر وذكر السوق العلماء باق
هكذا قال شاعرنا ، وان آثرنا الصدق ولم نذهب مع الشعراء في

كل واد قلنا : اخلد الملوك وأسيرهم ذكراً من نفقت عنده بضاعة الأدب . وليست الدول العظمى احرص على ذكر ملوكها منها على ذكر ادبائها ، فهم سجل مجدها الباقي ومؤنلو ملكها ، فحيث تلقى بذور آداب امة ينبت النفوذ والسيطرة ، فما تأثر بعض الأمم ببعضها تجارياً وصناعياً بأقل منه عقلياً ، ففي الحياة مجار خفية كللناجاة لا يلتقطها الا ذهن الأديب لأنه اشد احساساً من زجاجة المصور الشمسي .

تقع الثورة في الأدب فتظنها طوفاناً عرمرماً وتحسب ان الساعة قد دنت ، حتى اذا لفظت العاصفة آخر انفاسها وطلعت الشمس ضاحكة بدا لك غير ما كنت تتوهم أنه كائن . فهذا الثبات يدلك على خلود الأدب فلا تأخذ منه الثورات الا كما تأخذ السيول من الجبال الصلعاء . فالأدب الرفيع ، وهو نزر جداً ، هو آخر صفحة تمحوها العوادي من تواريخ الأمم والشعوب . وهي أشد آثارها الأخرى صبراً عليها .

قد يقول القارىء : هنيئاً له ما افضى باله ، يحدثنا عن الادب وثوراته في هذه المعامع . الدنيا قائمة قاعدة وهو غارق في هذره وسخفه . فليحدثنا عن المفاجآت الحربية ، عن الجبز والملح ، عن الرزّ والسكر . . .

اما الجواب فهو اني لا اصلح لهذه ولا لتلك ولا يعنيني غير الثورات الادبية ، فاصحابها هم الذين وضعوا المثل العليا التي تناضل عنها الدنيا قاطبة ، وتقوم الحروب في كل عصر تحت ألويتها .

كل اديب ثائر ، والاديب الهاديء لا يهدم ولا يبني بل هو من الذين تجرفهم شبكة الصياد فتخرجهم من بحر الحياة العجاج الى المقلّي او الى الفرن ليتغذى بهم الحيتان الصالحون للبقاء .

ان أول ثورة أدبية عربية أوقد نارها اديب أعشى مستعرب . وكأنه نظر بعين الغيب الى أثره في الأدب فقال بيته الذي تتمثل به الآن :

أعمى يقود بصيراً ، لا أبا لكم ، قد ضلّ من كانت العميان تهديه
لا يا بشار ، ما ضلّ من يقوده أعمى مثلك ، وكم من أعمى قبلك
وبعدك رأى ما لم تره نحن البصراء ، فانعم بالآ .

أسمع الكثيرين يقولون : لماذا زعم القدماء بشاراً ، وماذا رأوا فيه
حتى أقرّوا له بزعامة لا خلاف فيها ؟ فالذين لا يدركون ما غمض
ودقّ يقولون : كان لبشار لسان كالسوط فألقى الرعب في نفوس العلماء
والرواة - والرواة هم نقّاد ذاك العصر - فاعترفوا له بالسبق خوفاً
ورغبة . وكما يصير الباطل حقاً ويصبح الكذب صدقاً ، في رأس قائله ،
متى تقادم عهده ، هكذا ثبتت زعامة بشار كما ثبتت زعامة الحريري بعده .
ان هنالك شيئاً غير ذلك ، ان هنالك لفناً ليس رمية من غير
رام ، فبشار زعيم أدبي رغماً عن وطأته الثقيلة . ففي ذلك الجسم
الجاموسي نفس فنية ما رأى الأدب العربي مثلاً . نفس ادركت عفواً
ان الادب ابن البيئة فتحسست بيئتها تحسناً فكان لها من كل اصبع
الف عين . رأى بشار بأنفه وأذنيه ولسانه ما لم تره ملايين الناس بأعينهم ،
وهو من العباقرة الذين سبقوا دهرهم دهوراً .

اراد بشار ان يكون لعصره أدبٌ غير أدب الجاهليين والأمويين
فتعمّد ذلك ووضع معالم فنه صامتاً . لم تكن له نفس ابي نواس
المرحة ولا حريته الواسعة ، ضيق عليه عمامه فانطوى على نفسه متأملاً
فأخرج فناً شايعه عليه ابو نواس وغيره فكان أدب المولدين ، وهذه
الحكاية تؤيد ما نزعّم .

قال الاصمعي : كنت أشهد خلف ابن ابي عمرو بن العلاء وخلفاً الأحمر
يأتیان بشاراً ويسلمان عليه بغاية التعظيم ، ثم يقولان : يا ابا معاذ ، ما
أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما . ويسألانه ويكتبان عنه . فأتياه يوماً فقالا

له : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما . قالوا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب . قال : نعم ، بلغني أن سلماتاً يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه . ثم انشدهما القصيدة ومطلعها :

بكرّا صاحبيّ قبل الهجير ان ذاك النجاح في التكير
فقال له خلف الأحمر : لو قلت يا ابا معاذ ، مكان « ان ذاك النجاح »
« بكرّا فالنجاح » كان احسن .

فقال بشار : اني بنيتها أعرابية وحشية فقلت « ان ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون . ولو قلت « بكرّا فالنجاح » كان هذا من كلام المولّدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة .

فقام خلف وقبّله بين عينيه . وشاء خلف الآخر ابن ابي عمرو بن العلاء بمازحة بشار فقال له : لو كان علاثة والدك يا ابا معاذ - أي لو كان عربياً - لفعلت كما فعل أخي ، ولكنك مولى . فمدّ بشار يده فضرب بها فخذ عمرو بن العلاء وقال :

ارفق بعمرو اذا حرّكت نسبته فانه عربيّ في قوارير
ما زال في كير حدّاد يردّده حتى بدا عربياً مظلم النور
ان جاز آباؤه الأنذال في مضر جازت فلوس بخارى في الدنانير
ارأيت مثلي أنّ بشاراً كان في فنه متعمداً وانه زعيم مدرسة حقاً ؟
انه لا ينظر أبداً الى موادّ الجاهلين في هجوهم ، فكل مواده مأخوذة من بيئته وبما تتناوله يده من محيطه . انظر كيف تناول صورته من زمانه واخرج منها هجاء مرأ . فلبشار مدرسة زاهرة لا بأس علينا ان سمينها « مدرسة الخلاء » ، فللأدب العربيّ كغيره من الآداب الأخرى شعراء ملعونون ، وقد ذكرهم ابو الأدب العربيّ فقال :

كان والبة بن الحباب ، ومطيع بن أياس ، وابن المقفع ، وحماد
عجرد ، وبشار المربعي ، وأبان اللاحقي الخ ندماء يجتمعون على الشراب
وقول الشعر لا يكادون يفتقون ، يهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً وكلهم
منهم في دينه .

فهؤلاء ، أضف إليهم أبا نواس وأتراه ، هم رجال الثورة الأولى في
الأدب العربي ، أما موقد نارها فبشار . وسنريك في قابل أثر بشار وزعامته
فيها ، ثم كيف نحمدت نارها قروناً حتى اتقدت في هذا العصر .

اغلاق بشار

لا متسع لدرس عصر بشار ومحيطه اللذين يعرفهما كل متأدّب ، فاهيك ان بشاراً ابن الغريزة العمياء الموروثة . فما رأينا له ضرباً الا نفراً تتلمذوا له فأعدهم . ليست الاوبة النفسانية بأقل عدوى من الأمراض السارية ، وليس بشار اول المتهتكين ولا آخرهم ولكنه تفوّق على كل من تقدموه بثورته الشاملة كلّ ما تواضع الناس على تقديسه ، فكان يزدرى تقليدهم ، وعرفهم ، وعاداتهم ، ونواميسهم ، ولولا فنه الاصيل لأحصى مع السفلة الرعاع . ولكن فن هذا الاعمى الوقح ، ونظراته البعيدة المدى تستهويني فاعلو في تقديره . يدهشني قوله : عدم النظر يقوّي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر اليه من الأشياء فيتوفّر حسه وتذكرو قريحته . وأزداد دهشة اذ أقابل قوله هذا بقول بول فاليري زعيم الشعر المحكك في فرنسا . ففاليري يدعو الشاعر والكاتب الى الخلوة في الغرفة السوداء لتأمل ما تصوّر وكتب .

اما بشار فكان في غرفة أبدية الظلام ، لم يعيش قط الى ضوء النار التي قدّسها وقدمها على الطين . . . فقضى عمره بين نارين : شهواته وفنه . فلننظر اذن في سجايه قبل فنه لان هذا ابن تلك ، وان كانت جميعها لا ترضي . فما رأيت فناً خلا من «كريمة مثل الشيخ بشار» . كان بشار خائفاً على شعره فقال : أزرى بشعري الأذان . فجاء الجاحظ

بعد قليل وقال : ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولدين منهم بشار
 الأعمى ، كان شاعراً راجزاً سجعاً خطيباً صاحب منشور ومزدوج ، وله
 رسائل معروفة ، وهو اطبع شعراء زمانه كلهم . ثم جاء ابو الفرج فاقتفى
 أثر يوحنا الانجيلي في تدوين سلسلة نسب بشار فبلغ به الى أدريوس بن
 يشتاسب بن يهراسب الملك . وقال آخرون بشار مولى وأبوه طيان . وسواء
 عندي أكان ابن طيان أم صنو كسرى انو شروان ، فقد كان هوراس
 ابن مولى ، وفرجيل ابن خطاب .

لا يعيننا بما ذكره ابو الفرج الا هذه الكلمة التي ختم بها تلك السلسلة
 الملكية : « ويكنّى بشار أبا معاذ ، ومحله في الشعر وتقدمه في طبقات
 المحدثين فيه باجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك . »
 فكيف أتته الرئاسة منقادة ، وما هي الحصال التي جعلت منه زعيماً
 لا خلاف فيه ؟ قال تين : الشاعر ابن العرق والزمان والبيئة ، وبشار
 هو حقاً ابن عرقه وزمانه ومحيطه . قد نظم عصر بشار اذا جعلنا هذا
 الفاجر الفاسق مثلاً له . قد كان في ذلك الزمان اناس فضلاء يقولون :
 اما لهذا الاعمى من يبيع بطنه !

وقد نكون — اذا اتخذنا بشاراً وعصابته نموذجاً لعصره — كمن يزور
 مواخير بيروت وملاهيها ، ولا يلمّ بكنائسها ومساجدها ، ومدارسها
 وجامعاتها ، وديورتها ونواديا الادبية ، ثم يقول : بيروت مدينة لهو ودعارة .
 لسنا نظهر ذاك المحيط فخطبة زياد تكذبنا . وهذه النواة — أي بشار —
 لو لم تصادف تربة ذات حرارة ورطوبة ملائمتين لاحتضانها لما انفلقت
 وجئت جنوناً ورأينا لها أخوات .

لا يعيننا ان يكون بشار خفيف الظل او ثقيله ، وسواء عندنا أحبه
 الناس ام ابغضوه ، ولا يهنا صدقه او كذبه ، فالفن كذب كله .

ولست اطلب ديواناً ضخماً لأحكم على فنّ بشار ، فحسبي ما وصلني من شعره . وربّ كتاب صغير يضمّ بين دفتيه نفساً كاملة تامة الخطوط صادقة الالوان .

يرينا شعر بشار شينين في وقت معاً : اباحية بشار وانخطاطه ، وسمو قريحته وفنه . فبشار بن برد أنانيّ من الطراز الاول كأنه انسان لاروشفوكو الذي لا يهدأ ابداً ، فلا يقف عند الآخرين الا كما يقف النحل على الزهر ليمتصّ منه ما هو بحاجة اليه . فبشار معجب بنفسه معتدّ بها ، وحسبك بآن طيّان يصبح نداءً لكسرى انو شروان فيقول وهو من عرفنا :
نبتت بائع عرضه يغتاني عند الامير ، وهل عليّ امير
ناري محرّقة وبيتي واسع للمعتفين ، ومجلسي معمور
أدعر فاسق ، شمس حرون ، غضوب جسر كناقة عنقوة . لا تردعه النصيحة ولا يتأثر باحد . عدو الجميع ، ثائر على النظم جميعها تمهيداً لشهواته المتأجّجة . فاتك جسور لا يثنيه عن غيه لجام ولا تكبحه الخزامة :
أمامة قد وصفت لنا بحسن وانّا لا نراك فالمسينا
فكان من امرها معه ما كان ، واذا شئت الخبر كاملاً غير منقوص
فارجع الى كتاب الأغاني .

ولكن بشاراً خليّ من حساسات الحياء ، والحياء بالنظر . يبتهر بالمعائب وكره الناس . ما أحبّ الا بنيه . متقلب كأني بواقش . يخفر ذمة بني عقيل كما يزدري الدين والمعتقد . يهجو الخليفة كما يهجو الحياط والقصاص . يندري كيفها طابت له الريح ، ولا كبير عنده الا الجمل . هو على حدّ قول رابله : يبكي كالبقرة ويضحك كالعجل . يبذل كل شيء حتى فذه ارضاءً لربابة ربّة البيت وطمعاً بأكل البيض طازجاً . فلسفته دُرّ مع الزمان كيفها دار :

وما أنا الا كالزمان اذا صحا صحت ، وان ماق الزمان اموق
مادي ممتلىء شبقاً ، زنديق اذا خاف ، ملحد حتى الهذيان اذا اطمان .
ليس الدين عنده شيئاً ولا الفروض ولا الصلاة ، فأجاب حين لاموه على
تركها : من يقبلها تفارق لا يرفضها جملة . الحياة عنده في اللحم والعظم .
ولا يردعه عن الفجور الا الخوف على جلده :

انا والله اشتهي سحر عينيك واخشى مصارع العشاق
شاب وما تاب . ظلت نفسه خضراء في السبعين . أذن في الضحى
وهو سكران ، فكأن المتنبى يعنيه بقوله :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم
الحياة عنده هوى عاصف ، وشهوات كالتنور المسحور . وهكذا كان
له مدرستان ، واحدة علمت الجسارة والفتك ، وأخرى علمت الفن .
لم يحث الا على مكرمة واحدة وهي رعاية الصديق ، ولكنها كقول
الدهري : خلق الله السموات والارض ، لأنه لم يكن له صديق ولم يرع
عهداً لأحد .

يصوب مدفع فنه الى حصنين : المرأة والصندوق :
عسر النساء الى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمعا
تعطي الغزيرة درّها فاذا أبت كانت ملامتها على الحلاب
هو لا يمدح ريجانة قبل شم ، هائج كالبركان . الحياة عنده مأدبة يجب
ان تنوع ألوانها لتقوي شهوة النهم . وقد قال لبعضهم : لا تصيروا
مجلسنا هذا شعراً كله ، ولا حديثاً كله ، ولا غناء كله ، فان العيش
فرص . ولكن غنّوا وتحدثوا وتناسدوا وتعالوا نتناهب العيش نهياً . قوي
الميل حتى الغضب والبهيمية :

الصق بي لحية خشت ذات سواد كأنه الابْرُ

يَتَّبِع هذه الغريزة كما يتبع الملاح نجمة القطب ، شعاره الوقاحة
والفك :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك' اللهب'
واذا كان الانسان أضغاث ميول كما يعلم علم النفس فيقول بشار
نطّاحة . يقولون ان الميل قوة عظمى اذا وجهته الارادة ، واداره
العقل ، ولكن ميل بشار عنيف خلق منه لصّ اعراض ومجرماً خطراً
على المجتمع . ناهيك ان ميل بشار لم يعرف الشيخوخة فكان في السبعين ،
طور السأم والهرم ، كأثّه ابن عشرين . كل شيء عنده محلّل ، وصاحبنا
جوعان دائماً ، ينطح الزاد كلما رآه : زودينا يا عبدّ قبل الفراق . وقد
عرف بشار اعوجاجه هذا فاعتصم « بالجبريّة » فقال مبرئاً نفسه :
طبعت على ما في غير مخيّر هواي ولو خيّرت كنت المهذبا
لم يقعد ولم يتوان عن طلب المال ، فلم يحل عماء دون الاسفار
والزيارات المثمرة :

يسقط الطير حيث ينتثر الحبّ وتُغشى منازل الكرماء
وقد اعترف بهذا اذ قال : دخلت على الهيثم بن معاوية ، وهو امير
البصرة ، فأنشدته :

ان السلام ايها الأمير عليك والرحمة والسرور
فسمعته يقول : انّ هذا الاعمى لا يدعنا او يأخذ من دراهمنا شيئاً .
فطمعت فيه فما برحت حتى انصرفت بجائزة .

ان حمية بشار تعمل دائماً لاتمام رغائبه ، فما هجا الا ليستدرّ ، وما
نظم شعراً لناثجة او مغنيّة الا ليفوز منها بشيء . وما تغزل الا ليستهوي
ويغوي ، وما مدح الا ليجاز . كان فنه أحبولة صيد ، والفنّ مكّار .
قد يكون للتقاليد والعرق يد عظمى في توجيهه ، فما عصمه اسلام ، ولا

حجبه شرع او حدّ . أما أجاب جوارى المهديّ : ونحن على دين كسرى ،
حين قلن له : أنت ابونا . . .

ان بشاراً عبد اللحم والعظم ، لقد كان مصاباً بحمّى الحياة ولم
يفارقه الدور حتى ضربه المهديّ ضرب التلف وألقي في البطيحة .
وقد يدلنا خلقه على خلقه ان كان كما وصفه حماد عجرد :

واعمى يشبه القرد اذا ما عمى القردُ

او كما قال فيه آخر :

ان بشار بن بردِ
تيس اعمى في سفينه

اما فنه فموعده قريب .

الطاقة البشّارية

روى الاصفهاني عن بشار ، قال : لما دخلت على المهدي قال لي :
فيمن تعتدّ يا بشار ؟ فقلت : اما اللسان والزي فعربيان ، واما
الاصل فعجميّ كما قلت يا امير المؤمنين :

نمت في الكرام بني عامر فروعي وأصلي قریش العجم
واني لأعني مقام الفتى وأصبي الفتاة فلا تعصم
وكان ابو دلامة حاضراً فقال : كلا ، لوجهك اقبح من ذلك ووجهي مع
وجهك . فقلت : والله ، ما رأيت رجلاً اصدق على نفسه واكذب على جليسه
منك . والله ، اني لطويل القامة عظيم الهامة ، تام الألواح اسجح الحدين .
ولرب مستوخي المزورين ، للعين فيه مراد ، قد جلس من الفتاة حجرة ،
وجلست منها حيث اريد . فانت مثلي يا مرقعان .

لم يكذب ابو دلامة ، وقد رحم الله بشاراً فاعماه لئلا يفجعه بروية قبحه .
وان قيل : من كان هذا شكله وتلك سجاياه فاي فن سام يخرج منه ؟
قلت : الوردة والتفاحة والبيضة من بنيّات المزابل . ومن هذه الدمنة التي
سميت بشاراً بسقت فروع الشعر مخضلة ، فلنبحث عن الطاقة Energie
البشّارية .

لا يفرّق علم النفس بين جهد وجهه . فسيان عنده جريح يتجلد في
سبيل المجد والوطن ، ولص يصبر على جرحه خوفاً من الفضيحة والسجن .

فأننى توجهت ركائب طاقة بشار فهي طاقة ولها الاولى بين خصاله . فلولاه
جهده العنيف المستمر لظل لعبة الصبيان وكرة يتلقفها من لا يرحمون
ذا عاهة بل يقولون : اضرب الاعمى واكسر عصاه ، ما انت خير من ربه
الذي أعماه . ان هذه الطاقة المتقدة قد سيرت بشاراً نحو الابداع المستمر ،
والدليل قوله : لم ازل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيهه شيئين
حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا واسيافا ليل تهاوى كواكبه
لا يعني هذا انه سرق امرأ القيس كما ظن احدهم ، فالتخيل لا يبدع
مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور الى بعض ، فيحلل ويركّب
ويصغّر ويكبّر كما عمل بشار . ان ارادة بشار مسلحة بقريحة عجيبة
وقوة بادرة ، وشدة عارضة يخفّرها العقل الذي ألزمه عمود الفكر فيما
نظم . اصف الى هذا كله ذوقاً مرهفاً مكّنه من نقد شعره ادق نقد
فجاء كلامه نقيّاً كأنه الفضة المسبوكة ، فقصرت قصائده ولم تتشعب
اغراضها ، وقد قال بشار في هذا : « لم اقبل كل ما تورده عليّ قريحتي
ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري . نظرت الى مغارس الفطن ومعادن
الحقائق ولطائف التشبيهات فنرت اليها بفهم جيد وغريزة قوية فأحكمت
سيرها وانتقيت حرّها ، واحترزت من متكافئها . »

لا بد للشاعر الكبير من مخيلة قوية ، ومخيلة بشار اشبه بطائر عجيب
يطير بجناحي الحساسة Sensibilité والانتباه . وان قيل ماذا يدرك
الاعمى المسكين اجبنا مع غلماء النفس ان الانسان مدرك بغير عينه .
وقد دأبنا بشار على هذا قبل علم النفس الحديث فقال :

ان سليمى ، والله يكلؤها ، كالسكر تزداده على السكر
بلغت عنها شكلاً فأعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر
ثم قوله لعبدة :

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذان الا من القلب
أفلا يؤكد هذا القول كل ما جاء في علم النفس عن الهوى والهيجان
والتخيل والاحساس وغير ذلك من فصول ؟ وما علينا لو اقحمنا شيخنا
المعظم بين جيمس وريبو وبرغنسن وغيرهم ، فقد خلق بذكائه وانتباهه
الشديدين ما لم يخلقه الملايين من البصراء .

الانتباه خاصية اولى في العميان يدلك عليها تقلص عضلات جباههم
وارتفاع حواجبهم والاخاديد الافقية . ولكن ليس كل اعمى قوي الخيلة
فيأض الذهن والقرينة كبشار ليخلق مثله . وما يضر فقد البصر فلمسمع
والشم والذوق وغيرها من الحواس الاخرى صور تالية Image
consécutive كما للنظر . والصور التالية بنت الاحساس الذي هو من
اصدق صفات بشار التي أتمت مخيلته . روى ابو الفرج قال : مرّ ابن أخ
لبشار ببشار ومعه قوم ، فقال بشار لرجل معه : من هذا ؟ قال : هذا
ابن اخيك . فقال بشار : اشهد ان اصحابه سفلة . قال : وكيف علمت ؟
قال : ليس عليهم نعال .

ليس هنا موضع القاء درس في الانتباه واثره في الفن ، ولكننا نقول
ما لا بد منه لموضوعنا ، اي انه يجمع ملكات العقل حول نقطة واحدة .
وانتباه بشار تجمع كله حول مخيلته فصيح في بشار ما زعموه عن
العبقرية ، اي انها القدرة على جمع الفكر حول موضوع واحد مدة طويلة .
ومن مميزات بشار الحس البديعي Sentiment esthétique ، فلهيكل

البشاري « دينمو » احساسات مختلفة تخلق طاقته قوى وانواراً مذهشة . وهذا الحس البديعي الذي تتعب في مراده الاجسام حمل بشاراً فسمى بعض غرف بيته « الرقيق » و « البردان » ، وكلف المصور رسم طير في جامة . وهو الذي وجهه صوب السخر اللاذع واستطابة النوادر وابداعها . هذه عناصر بشار الغريزية ، اما عناصره الاكتسابية فهي ثقافته الشاملة ، ان صح التعبير ، والا قلنا اطلاعه الواسع على معارف عصره ومقدرته الجدلية ، فقد كان شيخنا من ابطال هذا العراق وله فيه حجج وبراهين شعراً ونثراً . اما الادب فعرف منه الغالي والرخيص ونقده نقداً عجباً . قال مروان ابن ابي حفصة : قدمت البصرة فأنشدت بشاراً قصيدة لي واستنصحته فيها ، فقال لي : تقدم بغداد فتعطى عليها عشرة آلاف درهم . فجزعت من ذلك وقلت : قتلني . فقال : هو ما اقول لك . ثم قدمت عليه فأنشدته : « طرقتك زائرة فحيّ خيالها » فقال : تعطى عليها مئة الف درهم . ثم عدت الى البصرة فأخبرته بحالي في المرتين وقلت له : ما رأيت اعجب من حديثك . فقال : يا بني ، اما علمت انه لم يبق احد أعلم بالغيب من عمك ؟

اما بصره بالغريب فأمكنه من فهم سر كل لفظة فحملها ما تستطيع تأديته ، وأحلاها محلها بين اخواتها لتؤدي فكرته التي بدت كالبحر الهادئ ، تبصر قعره بعينيك وهو عنك بعيد .

فاذا كان لمركب النقص عمل في الانسان كما زعموا فعلى بشار وقبح منظره حملاه على التسامي Sublimation في فنه ، فشأنه في قبح منظره وعماه شأن عنترة . هناك استغل سواده فنياً وهذا اندفع لبيذ الكاملين . اما تهالكه على الملذات فقد اذكاه الكبت Refoulement . فملذات بشار بقيت منقوصة ، ولم يور غلته كل ما ارتكب من

الموبقات . لقد بقيت طاقته فتية في الهرم فهجا الخليفة وسب الوزير .
كان سلاح هذا الرجل لسانه ، في كل أطواره ، وبه رد الثقلاء عنه
وانفتحت له ابواب القصور .

خبرونا انه كان يعطي ابا الشمقم مئتي درهم في كل سنة . وبلغ
ابا الشمقم ان بشاراً اعطي عشرة آلاف درهم فوافاه فقال له :
يا ابا معاذ ، اني مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون :

هالينه ، هالينه طعن قنّاة لتيه

ان بشار بن برد تيس اعمى في سفينه

فأخرج اليه بشار مئتي درهم فقال : خذ هذه ولا تكن راوية الصبيان
يا ابا الشمقم . . .

لا نعجب ان رأينا الشاعر الكبير المهوب يخاف هراجاً كهذا ، فمن
يسقط من عل في صغره لا يجرؤ فيما بعد على تسوّر حائط عالٍ . وشاعرنا
ذاق طعم عبث الصبيان صغيراً فأثر ارضاء من يهوسهم .

واذا صحّ قول ابيقور في ان السعادة في الجمود وفقدان الشهوات
فبشار لم يسعد يوماً في حياته ، ولا شك ان تنفسه لم ينقص عن سبع
عشرة مرة في الدقيقة ، ولم يكن نبضه قط عادياً . . . فهو رجل ملاذ
ومسرات . ظل من فنه في جهد جهيد ينفق من طاقة لا تنضب . فكان
كالدجاجة المرخمة لا تبرد ولو طمرتها بالثلج بل تنتفض وتعود الى بيضها
تخصنه .

فن بشار

عاش الشعراء الجاهليون على الانعام فاحتلت صورها ساحة مخيلتهم واستأثرت بشعورهم . فكان الله لم يخلق الفرات ليسقي الفردوس الارضي كما جاء في كتابه المقدس ، بل ليشبه به النابغة ابا قابوسه ربيع الناس ، والاخطل سيده عبد الملك ، خليفة الله الذي يستسقى به المطر . لم يهمس بردى في أذن التغلبي حرفاً ، ولم تومىء اليه « الغوطة » باصبع . فلولا ذلك « الخبر » الذي أتى ابن مروان ما ذكر اسمها شاعر « خفّ القطين » . فالزهور عند قدمائنا مخمل وارجوان ، والشقيق اعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد ، والورد والتفاح خدّ لوناً وطعماً ورائحة ، وقطر الندى لآلىء ، والنجوم درر منشورة على بساط ازرق ، والاعشاب بساط زمرديّ ، وبعض الثمار كرات ذهبية والبعض الآخر كهرمان ، والحليب كوثر ، والمياه فضة سائلة الخ ما هنالك من صور جافة . ولا عجب في هذا ، فخيال الجاهلي خيال طفل كبير .

لم يعجب هذا النحو بشار بن برد فثار عليه وقال مستهزئاً بزعيمهم امرئ القيس : لم يطل ليلى ولكن لم انم . ثم أنحى بسوطه على قفا زهير ، مخوّف الاعراب بيوم الحساب ، فقال :

كيف يبكي لمحبس في طلوع من سيفضي لمحبس يوم طويل
ان في البعث والحساب لشغلاً عن وقوف برسم دار محيل

فلا يظنّ من ظنّ من دارسي بشار ان بشاراً مؤمن هنا ، فبشار شيخ الزنادقة وفتح باب السخرية بالاقدمين . راز بشار شعر القدماء فاستخفه وجرو عليه ، وقعد يخلق صوراً جديدة من عمل وطن الف ليلة وليلة ، فhez نفوس الرواة والسامعين بشعر ينطق بصور حياتهم المتحركة ، فأعجب به الاصمعي وفضّله على ابن حفصة المحبوس في قفص التقليد البازيدي .

جاري بشار الاقدمين وسأل الطلل مثلهم ولكنه حدثه بروح بشارية ولغة مولدة فقال :

أبى طلل بالجزع ان يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيا فهو لا يدع ابدأ اسلوبه ومنطقه ، يطعم شجرة الجاهلية بالبراعم العباسية المشربة ، ويلقح ذلك الهيكل الهرم بدم جديد ، يقوده في ذلك المعتوك الفني ذوق نقدي مرهف يحسن به الانتقاء والاختيار ، فلا يضع حجراً في بنيانه ما لم يقلّبه على جميع وجوهه عارضاً اياه على بركاره وزاويته . انشد بشار مروان ابن ابي حفصة هذا البيت :

واذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم فقال مروان : جعلني الله فداك ، يا ابا معاذ ، هلاّ قلت : خروست بالصمت . فأجابه بشار : اذاً انا في عقلك ، فض الله فاك . أتطير على من احب بالخرس ؟ انظر الى اي افق من آفاق الفن يذهب ببشار ذوقه ونقده .

شعر بشار مديح وهجو وغزل . اما مديحه فنصائح وحض على الجود ، وایاء الى الجائزة ، وتهديد ان أبطأ الممدوح . واما الهجو فيمدح الالهام فيه فن بشار أيما مدد ، ويغلي مرجل سخطة ، وتبلغ حساسته حد الفوران اذا حرم . واما غزله فمشوقٌ مُغرٍ بالفسق والفجور ، اقض على

العلماء الصالحين مضاجعهم فحملوا الحليفة على نهى بشار عنه ففعل .

ادرك بشار الجمال بعين الغريزة العمياء ، فتخيل المرأة مادة غذائية لا غنى عن استهلاكها ، كالسكر والرز مثلاً ، فقال مستعطفاً عبدة :

نَفْسِي يَا عَبْد عَنِّي وَعَالَمِي اِنِّي يَا عَبْد مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ

صورة رائعة نادرة خلقتها مخيلة بشار من اتفه المواد واخسها . رأى نفسه محقونة في زق الجسد ، وخشي ان ينشقّ ذاك الزق البشاري ان لم ينفس عنه ، فأنطق كل حرف من بيته باستعطاف صارخ بلغ به ذروة الفن الرفيع . تعالى عن العوام وظل بينهم ، وهذا سرّ فنّه وموضع التعجب منه . فحلاوة فن بشار هي في استعارة هذه الصور التي لم يحلم بها القدماء ، وكسوتها بألفاظ مألوفة وضعت في مكانها الملائم ، يحوطها الشاعر بهالة فنية شفاقة فتبدو كوجه الحسناء من خلال البرقع . وهكذا يجمع شعره صفاء مع قوة ، وموسيقى مع شدة ، فيغذي الذوق والعاطفة معاً . انظر الى هذه الصور التي اخرجها في مدحه خالد بن برمك :

لعمرى لقد أجدى علي ابن برمك ، وما كل من كان الغنى عنده يجدي
حلبت بشعري راحتيه ، فدرّتا سماحاً ، كما در السحاب مع الرعد
اذا جئته للحمد أشرق وجهه سماحاً ، واعطاك الكرامة بالحمد
له نعم في القوم ، لا يستثيبها جزاء ، وكيل التاجر المد بالمد
مفيد ومتلاف ، سبيل ترائيه ، اذا ما غدا او راح ، كالجزر والمدّ
لمست بكفي كفه ابتغي الغنى ، ولم ادر ان الجود من كفه يعدي
فلا انا منه ما افاد ذور الغنى أفدت ، وأعداني فأتلفت ما عندي
وكقوله لآخر :

أورق بخير ترّجى للنوال ، فما ترّجى الثمار اذا لم يورق العود
فهذه الصور وهذا الاسلوب يغلبان على شعر بشار الذي خاطب

الناس بلغتهم ففتنهم ، واراننا انه اقدر الشعراء على تأليف الكلام حقيقة
وبجاءاً . والقرآن الذي جعله العرب ملاك الشعر تتناوله يد بشار متى
شاء . تأمل كيف اخرج هذه الفكرة بأسلوبه الحي الناصع :

خذي من يدي ما قلّ ، ان زماننا شمس ، ومعروف الرجال رقيق
ففي كل مجال يمدّه هذا النفسُ الفني فيبعد شعره عن اليبوسة والجمود
اذ يحفل بالكلمات التي تهيج أعرق لجج الشعور . قال بشار يهجو باهلة :
قد هجاني معشر كلهم حمق ، دام لهم ذاك الحمق
ليس من شيء ، ولكن غاظم شرفي « العارض » قد سدّ الافق
فانظر كم حمل كلمة « العارض » من أثقال ، ثم دعمها بقدر سدّ الافق
فنهضت بفكرته نهوضاً عجباً مروّعاً قول الاصمعي : وبلي على هذا العبد
القنّ ابن القنّ . لا شك ان بشاراً قنّ ابن قنّ ولكنه في فنه ابو
الاحرار ، وشرفه الفني قد طبّق الآفاق .

فهذه الثورة الفنية الجامحة تلهب نفس بشار في كل غرض من اغراض
شعره وخصوصاً متى هجا ، واين لا يهجو بشار ؟ فهو يتفلسف هاجياً ،
ويتنطق هاجياً ، ويتمذهب هاجياً ، ويأكل ويشرب هاجياً . لا يطيب
له عيش الا اذا سبّ واخرج شعره مفزعاً . ان رقة بشار في ألفاظه
تلك لا في صورته التي يضخمها ، ففي مخزنه مصنوعات لدنة شفافة ،
واخرى قاسية جافة كقوله : والشمس في خدر امها ، وبنو الموت ، وام
المنايا ، وقناديل ابواب السموات تزهري . ولكل منها موضع وأبرعها واشدها
يأتيه متى احتاج . واذا رأيت وهو الاعمى ، يتحدث عن النور ، ويشبهه
بالسراج ، ويشقّ العمى بالسيوف فاذا ذكر أنه مجوسي النبعة ، وعرق
الاصل نواز .

قال لامرئين حين قرأ مجموعة هيفو « العقاب » : ثلاثة آلاف بيت في

اليغض ، هذا شيء كثير ! فما تراه كان يقول لو سمع ابن برد يذكر
ان له اثني عشر الف قصيدة ، ابتدأها بهجو آدم ، وختمها بهجو الخليفة
الذي يلعب بالدبوق والصولجان وأشياء أخرى . . .

ولشعر بشار خواص أخرى منها حرارة متقدة تنتشر في كل مقطع ،
وسرعة كأنها البرق . اقرأ ارجوزته العجيبة التي مطلعها :

يا طلل الحي بذات الصمد بالله خبر كيف صرت بعدي
أوحشت من دعد وترب دعد سقيا لاسماء ابنة الأشد
قامت تراءى اذ رأني وحدي كالشمس تحت الزبرج المنقد
صدت بخد وجلت عن خد ثم انثنت كالنفس المرتد
اسلم وحييت ابا الملد مفتاح باب الحدث المنسد

كل امرئ رهن بما يؤدي ورب ذي تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد فصلته عن ماله والولد
فتخال ان صخوراً تتدهور ورعوداً تقصف ، ومدافع رشاشة تنصب
قذائفها على الهدف . فشعره يجري كأنهار لبنان ، فيه جمال وموسيقى
يخرجها الشاعر من تزاوج الفاظ ذات مخارج ملائمة ، وحروف شديدة غير
متنافرة . وفي كل غرض تحس هذه السرعة . اقرأ قصيدته : قد لامني في
خليلتي عمر ، ترّ انه لا يقتفي اثر امرئ القيس كابن ابي ربيعة ، بل
ترى على قصيدته الطابع البشاري الذي لا يقلد . وحسب بشار تعبيره الناصع
واتباع قصيدته خطة مثلى لا دوران فيها ولا لف ، كعنترة وزهير ، ولا
تلهم بالالفاظ كالبحتري ، ولا يفتلق قارئه بشروحه الباردة كابن الرومي ،
ولا يستغيث مثله بالله ورسوله من مهجوه بل يضربه ضربة تقرض اللحم
وتكسر العظم . له في هذه الوغى سلاحان : اما تصوير مضحك كما

في قصيدة الشاة ، واما نكتة موجهة كقوله :

كيف لا تحمل الامانة ارض حملت فوقها ابا سفيان
 يعضده في هذا العمل الشاق دقة تفكير ، وحدّة شعور ، وحسن
 أداء ، كما يطلب بيفون . زد على ذلك ذكاء عجبياً ، وبديهة وثابة ، وارادة
 نهضة لا تقنع بما دون التمام .

غارات بشار القبة

لبشار غارات فنية تصدّق قول الاخطل : الشعراء اسرق من الصاغة .
فرغم كل دفاع سلمي تصيب قنابل بشار اهدافها ويعود ، كالشفرى ،
والليل أليل . انظر ما فعلت يده بيت النابغة المشهور :

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شعث ، أيّ الرجال المهذب
فقد طرّق هذا الصائغ الحاذق تلك السيكة الذهبية ومدّدها وصيّرها
اشكلاً وانماطاً طريفة تقرّ له بالاستاذية . قال :

اذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لا تلقى الذي لا تعاتبه
فعش واحداً ، او صل اخاك فانه مقارف ذنب تارة ومجانبه
وان انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربهم
ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه
لسنا نستدل بهذين النمطين الادبيين على عقلية شاعرين كبيرين بل على
عقلية أمّتين مختلفتين . فعروبة بشار لم تجرّده من آريته فيفكر تفكيراً
عربياً خالصاً . العربي يوجز ، اما بشار فابن عرق منطقي مطبوع على
التبسط والاسهاب . ولكن منطق بشار منطق مجنّح ، يفر في المأزق فلا
يعرقل سير الفن ، ولا يسفّ اسفاف ابن الرومي في بسط الصور وعرضها .
والغريب العجيب ان الكلام المنتقى يركّ حين يرصفه ابن الرومي ،
واللفظة المبتذلة تزهو وتسمو في شعر بشار . فكم من عبارة تلوكها

اللسن كل ساعة أدخلها بشار في شعره الرصين فما نبت ولا اشتكت غربة .
فهو يقول : دار البلى ، ومن لحم ودم ، ومحسن ومجمل ، وكم نسمع حتى
الساعة من يقول : يا محسن يا مجمل . فكأن لدى هذا الرجل اكسيراً
فنياً عجيباً يلامس الحجر فيجعله كالذهب الابريز . انظر كيف امسى ببت
الفرزدق الأعجز ليّناً ناضراً كالغصن الرطيب :

وكذا اذا الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه
انها سرقة صيرها ذوق بشار الرفيع حللاً زلالاً . اما من يأخذون
عن بشار فيقصّرون عنه تقصيراً فاضحاً . قال بشار في جارية اسمها
رحمة الله :

يا اطيب الناس ريقاً ، غير مختبر الا شهادة اطراف المساويك
قد زرتنا مرة في العمر واحدة ثني ولا تجعلها بيضة الديك
يا رحمة الله حلّي في منازلنا حسي برائحة الفردوس من فيك
فاخذ البيت ابو نواس ليقول في رحمة بن نجاح :

يا رحمة الله حلّي في منازلنا وجاورينا ، فدتك النفس من جار
فستان والـف شتان بين « رائحة الفردوس » وبين « جاورينا » في
ملاءمتها لرحمة الله . ناهيك ان فدتك النفس من جار ، من سقط المتاع .
ولست محتاجاً بعد الى ذلك على استدراك بشار الدقيق بقوله : غير مختبر .
ولا على « بيضة الديك » وهي بضاعة بشارية ذات « ماركة مسجلة » . ولا
تعجب ان رأيت بشاراً مولعاً بالرائحة ، فسلّحه من الحواس سمع
ولمس وذوق وشم .

فالحديث العذب عنده تمر الجنان ، او قطع الرياض كسين زهراً ، وهو
يرى باذنيه واصابعه كقوله مخاطباً سهيلاً :
تمرّم يا سهيل درّ وهل يطمع بالدرّ من يدّي متعت

فاحبني يا سهيل من ذلك التمر نواة تكون قرطاً لبنني
فزاده سهيل قرأ على اب لا يزيد به بشار هجاء .

وبشار فنان في كل موقف حتى الحديث ، وله في هذا الباب آيات
تثير الضحك وتستدعي التفكير . وكأن غريزة بشار الفنية ، واطلاعه
الواسع ، وبصره باللغة اوحى اليه فأقل من التشابه ولم يخرج الصور
في قوالها المعهودة ، فاستغنى عن كأن والكاف وما اشبهها . والشيخ
بشار من كبار علماء الكلام ، يظهر ذلك من اخذه بيت لبيد القائل :
وما المال والاهلوت الا ودائع ولا بد يوماً ان تردّ الودائع
فطبعه على غراره المعهود مخاطباً خالد بن برمك :

أخالد ، ان الحمد يبقى لاهله جمالاً ، ولا تبقى الكنوز على الكد
فأطعمم وكل من عارة مستردة ولا تبقيها ، ان العواري للرد
لم يقل وديعة لعلمه ان الودائع لا تمس شرعاً بل تعاد عيناً ، اما
العارية فلها دواء اذا هلك . . . وزاد بشار « اطعمم وكل » موافقة
لفنه المولّد ، وتحريضاً على الجائزة التي يحلم بها شيخنا دائماً ، ويدور معها
كعباد الشمس . تنبئنا عن ذلك صوره التي اصطفاه وآثرها في مديحه :
يعقوب ، قد ورد العفاة عشة متعرضين لسيدك المنتاب
فسقيتهم وحسبني كمّونة نبت لزارعها بغير شراب
تعطي الغزيرة درّها واذا ابت كانت ملامتها على الحلاب
وكقوله :

دعاني الى عمر جوده وقول العشيرة بحر خضم
ولولا الذي ذكروا لم اكن لأمدح ربحانة قبل شم
واخيراً :

كأنما جثته ابشره ولم اجيء راغباً ومحتلباً

وهذا البيت الاخير من غنائم بشار في احدى غاراته على زهير ،
 وكلمة «محتلبا» هي الطابع البشاري الذي لا يقلد . ولم يسلم الاخل من
 غزوات ابي معاذ ولكنه لم يوفق فأسف في خريته التي مطلعها : يا ابن
 موسى ماذا يقول الامام . ثم قصر عن التغلي في تشبيه الزقّ يسحب على
 الارض . فما بعد قول بشار : وكأن الزقّ زنجي سرق ، من قول شاعر تغلب :
 اناخوا فجرّوا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا
 واذا طلبنا لبشار مثلاً بين شعراء الفرنجة فما نجد غير بودليو .
 الشاعران يتفقان في الصناعة الفنية ، والاخلاق الصاخبة المعربة ، والزعامة
 الادبية ، وفي الثورة على ما يقده الناس ، وصدقة ابليس ، وحب
 العبداء السوداء ، واسخاط الرأي العام ، واغضاب الحكومة والمجتمع .

واذا كان لا بد من خلاصة لكل بحث فاقول ما يأتي :

- ١ - يقوم فن بشار على خلق صور حضرية لا صلة لها بالجاهلية ،
 يخيّط لها من فصيح المولدين ثياباً مغرية ، مفصلة على قدّها .
- ٢ - على السرعة والموسيقى المطردة ، يتوسل الى ذلك بانتقاء الالفاظ
 الملائمة وتجنب التقديم والتأخير والجلل الاعتراضية ، وتقسيم اجزاء شعره
 تقسيماً دقيقاً كما ترى في هذا البيت :

وجيش كجنح الليل يزحف بالخصى وبالشوك والخطي حمر ثعالبه
 فالبلغة العربية لا تعتمد على الحروف الصوتية ، كما توهم المتمشرق
 بلاشير ، بل لها موسيقى تجدها في الحروف الساكنة ، والفنان الاصيل يأخذ
 منها غير متعمد ما يلائم غرضه ، كما فعل بشار في البيت السابق . فللفرض
 الواحد احرف متعددة في لفتنا ، تتفاوت ضخامة وصوتاً كالطاء والثاء ،
 والصاد والسين والثاء وهلم جرّاً .

- ٣ - يضخم شعر بشار ويشد حين يحاكي المتقدمين ، ويظل سهلاً لانه

يجتنب الفاظهم الوحشية وطرق تعبيرهم .

٤ - لم يخطئ الجاحظ حين أحصى ابن برد بين مشاهير خطباء عصره ، فشعره كله مصوغ صياغة خطابية ، وقصائده مهيأة تهيئة منطقية لا تطفئ من حدة العاطفة ولا تمحو شيئاً من سمات الفن .

وبعد ، فتورة بشار التي افضنا في الحديث عنها لم تتناول كل ما نطلبه نحن اليوم ، ولكنه فك اغلالاً ، وحطم قيوداً تحلّى بها بعده البحري وابو تمام ، فعاد الشعر العربي سيرته الاولى .

اما ابو نواس ، وله من يفضلوه ، فما أراه الا تلميذ بشار النجيب ، وحسي البرهان على زعمي قول الجاحظ : بشار وابو نواس معناهما واحد ، والعدّة اثنان . قد يكون ابو نواس أخف ظلاً ، واطرف نكتة وأرشق ، اما بشار ففنان لا يضاهاى ، والكلمة العامية « شيخ كار » لا تنطبق الا على الشيخ بشار .

شعراء الحمرة

لا نستطيع ان نعدّد شعراء الحمرة ، فهوانها كثيرون ، وكأني بها قد كانت من مقومات السيادة العربية فادّعوها جميعاً حتى صعاليك العرب واغريتهم ، فافتخر عنقوة انه شربها بالمشوف المعلم . ليس وكدنا كل من شرب كأس خمر ببعلبك او دمشق وقاصرين ، فلا يهمننا في هذا الباب الا الاختصاصيون ، والاختصاصيون في الحمرة من شعراء العرب ثلاثة : الأعشى والاخلط وابو نواس .

كان اول عمل اتاه ابن آدم ، بعد خروجه من سفينة نوح ، زراعة الكرمة . . . وعلماء الزراعة يؤكّدون ان اقدم خمرة عرفت هي خمرة هذا القطر . واذا أحصينا ورود ذكر الخمر في الكتاب المقدس وجدنا انه نحو مئة وثلاث مرات ، كما اننا نرى الكتاب المقدس يختص خمرة لبنان ، وحدها ، بالثناء العاطر ، فيقول هوشع : ويكون ذكركم كخمر لبنان .

الاعشى اول شعراء الحمرة ويقال انها حالت دون اسلامه ، لانه لا يستطيع هجرانها . وصف الأعشى الحمرة واجاد ، ثم جاء الاخلط فأتى على جميع ما قاله الأعشى وزاد عليه ، فوصف لنا منشأ هذه الاسرة الكريمة ، التي اهدت الى الآداب العالمية عروساً فريدة قال فيها بوانجه الشاعر الفرنسي : ان خمرة قبرس خلقت جميع الآلهة . قال الاخلط

يصف مسقط رأسها :

ربت وربا في حجرها ابن مدينة يظلّ على مسحاته يتركّل
إذا خاف من نجم عليها ظمأة أدبّ اليها جدولاً يتسلسل
ثم ذكر عتقها ، والعناية بها في خدرها ، وكيف هي ملثمة ، وعليها
أردية شتى من نسيج العنكبوت ومن ليف ، ومن قار . وكيف كلف
لون هذه العروس لطول مكثها في الحباء . وظلت هناك محبوسة محبوبة
حتى اجتلاها عباديّ بدينار - الاخلط .

ثم يصف تقلّب صاحبها ، رغماً عن فقره ، فكأنه ممن عرفوا السوق
السوداء :

إذا أقول تراضينا على ثمن ضنّت بها نفس خبّ البيع مكار
واخيراً تمت الصفقة وفاح المسك بما تزوع من ناجودها الجاري .
وانتقل الاخلط الى وصف السكران فأجاد وأبدع . جسّد الحمة
ووهبها الحياة ، ولما جاء دور شاربها أماته موتاً موقتاً فهو :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
وحين أقرأ هذه القصيدة الرائعة اخالني اشاهد الاخلط ملاقياً القافلة
الفلسطينية ، واقفاً على الطريق ينتظر حتى اطل عليه الموكب العظيم :
عليه من المعزى مسوك روية بملاءة ، يعلى بها وتعدّل
فقلت اصبحوني لا أبا لأبيكم وما وضعوا الاثقال الا ليفعلوا
اناخوا فجرّوا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا
تمرّ بها الايدي سنيحاً وبارحاً وتوضع بالهمّ حيّ ، وتحمل
ثم يصف فعلها فيقول :

تدب ديباً في العظام كأنّه ديب نمال في نقا يتهمّل
ثم يعود الى تجسيدها ، وان سبقه الى مثل هذا حسان بن ثابت

قبل اسلامه ، فيقول :

فقلت اقتلوها عنكم بمزاجها فحبّ بها مقتولة حين تقتل
وقد اغرب الاخطل في حب الحمة حتى هجا جريراً وقومه وعيّرهم
بالسكر القبيح فقال :

بئس الصعاة وبئس الشرب شربهم اذا جرى فيهم المزاء والسكر
واخيراً يتحدث الى امير المؤمنين عبد الملك عن بلاء قومه فيقول :
فأسرينَ خمساً ثم اصبحن غدوة يخبرن اخباراً الذّ من الحمر
ويظل لواء شعراء الحمة معقوداً للاخطل حتى يظهر ابونواس فيستولي
على الامد .

ضمرة ابي نواس

كانها وجدت منذ قيل للدنيا كوني فكانت ، فهي أشبه بقول
ابن الفارض : فلا قبلها قبل ولا بعد بعدها . يخبرنا ابو نواس عن سن
عجوزه فيقول :

شمطاء تذكر آدمًا مع شئته وتخبّر الاخبار عن حواء
صفراء تمرج فيبدو الزبرجد المتألق ببدايع الاضواء ، او لؤلؤات شبيهات
بواوات ، او حصباء درّ على ارض من الذهب . وهي تارة بدر ، وحيناً
شمس ، لا يحتاج ، اذا وجدت ، الى مصباح . اذا مست الحجر يسرّ ،
ويكاد يغفو من ينظر اليها .

اما الساقى الذي يدور بها في مجلس ابي نواس واصحابه ، فهو
من سلالة العم يافث ، اي ناصع البياض احور ، قدّه قضيب بان فوق
كثيب . ان ابا نواس ، كان ابي ربيعة ، لا يعجبه الرشح . ولذلك قال
في ذلك الغلام حين قام للصلاة :

ما شئت من دنيا ، ولكنه منافق ليس له آخره
ويتخيل ويتفنن في التخیل فيرى حبب الحمرة حدقا ترونو الى الشاربين ،
ثم لا يقف عند حد فيسلك اودية ما سلكها احد ، كما قيل فيه ، فيخال
ان مازجها طوقها سلخ ثعبان او افعى . وابو نواس المدمن اصبحت
لا تؤثر به الحمرة الخفيفة ، فهو يريد لها سميكة ، من عصير الارجل لا اليدين ،

تلدع كأنها مفلفة . وخمرته الاثيرة ، وهو شيخ كار ، هي المجوسية التي
فارقت اهل دينها لبغضها النار . يعني بقوله الحمرة التي قال فيها الاخطل ،
زميله : ولم تعذب بادناء من النار .

وخمرة النواصي « دينمو » رائع :

رقت عن الماء حتى ما يلائمها لطافة وجفا عن شكلها الماء
ولو مزجت بها نوراً لمازجها حتى تولد انوار واضواء
فلو كانت هذه الآية النواصية في عصرنا فكم كانت تغني عن شلالات
ومعامل وامتيازات . . . بل كانت « عين كفاع » مدينة النور الدائم
والضياء الابدي .

ليس يعني ابا نواس غير الحمرة وما تؤدي اليه من ملاذ ، فاذا
حصلت فليمت من شاء ، شرط ان تسلم للشاعر كأسه ، وقد اوضح
هذا بقوله :

كذاك اني اذا وزئت اخاً فليس بيني وبينه نسب
قطربل مربي ، ولي بقرى الكرخ مصيف ، وامي الغنب
ترضعني درها وتلحفني بظلمها ، والهجير يلتهب
ووصف مشهداً كنسياً وافق ذوقه فقال :

ملس وامثالها بحفرة صور فيها القسوس والصلب
يتلون انجيلهم وفوقهم سماء خمر نجومها الحب
والحمر عند ابي نواس تكون احسن منها اذا تمت في شربها
شروط معلومة :

يا حسنها من بنان ذي خنث تدعوك اجفانه الى الرب
فاذكر صباح العقار واسم به لا بصياح الحروب والعطب
احسن من موقف بمعتك وركض خيل الى هلا وهب

صبيحة ساق محابس قدحاً وصبر مستكره لمنتخب

حلّ على وجه الكمال كما حلّ يزيد معالي الرتب
والسقاء من الجنسين منزلة رفيعة عند الشاعر ، يستحيل طعم الخمرة في
أيديهم فيلذّ ويطيب ، وخصوصاً حين يمشين في قص مزمرات .
وللندمان احترام وكرامة عند أبي نواس ، وللشراب آداب نجب
مراعاتها ، فلا تحلّ الخمرة لأي كان :

والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عدّوا باكفائها
أما آداب أبي نواس التي يراعيها - مع الشارب لا مع الساق -
فوصفها أولاً فقال :

فاذا خلوت بشرها في مجلس فاكفف لسانك عن عيوب الناس
في الكأس مشغلة وفي لذاتها فاجعل حديثك كله في الكأس
صفو التعاشر في مجانبه الأذى وعلى اللبيب تحيّر الجلاس
وقال يعظ الثقلاء من الشاربين :

ولست بقائل لنديم صدق وقد أخذ الشراب بمقلتيه
تناولها والا لم اذقها فيأخذها وقد ثقلت عليه
ولكنّي أدير الكأس عنه واصرفها بغمرة حاجبيه
وان مدّ الوساد لنوم مكر دفعت وسادتي ايضاً اليه
فذلك ما حيت له وازّي ابرّ بمثله من والديه
عاش المرئي الكبير . . . وكانّ ابا نواس عرف اخيراً قدره الخمرى ،
ومقامه الاسمى ، وان له في هذا المقام حق الاشتراع واصدار المراميم ،
فقال :

حقوق الكأس والندمان خمس
وثانيها مساححة الندامى
وثالثها وان كنت ابن خير
ورابعها فللندمان حق
اذا حدثته فاكس الحديث
وخامسها يدل به اخوه
كلام الليل ينسأه نهاراً
فأولها التزين بالوقار
وكم حمت السباحة من دمار
البرية محتداً ترك الفخار
سوى حق القرابة والجوار
الذي حدثته ثوب اختصار
على كرم الطبيعة والنجار
فان الذنب فيه للعقار

هذه نصائح « الاستاذ الاعظم » للذرية ، فعلى من لا يقلع عن السكر
ان يعمل بها على الاقل ، فتستريح الشرطة . . .

ويتأمل ابو نواس حبيته - الحمرة - حين تمزج بالماء فيراها تتألم
وتتوجع . . . فيخلق صوراً عديدة ، ويولد تشابه كالانوار والاضواء التي
والدتها خمرته ، اكتفي منها بذكر هذا التشبيه الغريب :

تخال فيها ألسن الحيات او وقد نيران على الحافات
ويدفع ابا نواس طيشه فيخلع على الحمرة كثيراً من الصفات الربانية
فيقول :

أئن على الخمر بالآلها وسمها أحسن اسمائها
فجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا
وابو نواس يعلم ان الحمرة محرمة وان شاربها هالك ، ولكنه بشرها
في كل حال ، متكللاً على عفو ربه ، ويجادل في ذلك النظام فيقول له :
لا تحظر العفو ان كنت امرأ حرجاً فان حظرك بالدين ازراء
ثم ينظر الى قضية « العفو » وقد شبت « الفرق » حولها حرب
الكلام فيقول :

اترك التقصير في الشرب وخذها بنشاط

من كُمت كسنا البرق
لم وعفو الله مبذول
اضاءت في البواطي
لنا عند الصراط
خلق الغفران الا
لامرء في الناس خاطي

ثم يقول في توبته قول مجتهد عالم مخاطباً ربه :

ان كان لا يرجوك الا محسن
ما لي اليك وسيلة الا الرجا
فبمن يلوذ ويستجير المحرم
وجميل عفوك ، ثم اني مسلم
وتارة يهزأ ويسخر فيقول :

بكيت وما ابكي على دمن قفر
ولكن حديثاً جاءنا عن نبينا
وما بي من عشق فأبكي على الهجر
فذاك الذي اجري دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا
سأشربها صرفاً وأعلم انني
فلما نهى عنها بكيت على الخمر
اعزّر فيها بالثمانين في ظهري

ثم يعطف على الحليفة فيلذعه هذا اللذع المؤلم فيقول :

أأرفضها والله لم يرفض اسمها
ويرى ان لذته تكون منقوصة اذا ظلت وراء الستار فيقول :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سراً اذا امكن الجهر
ولا خير في فتك بدون مجانة
ولا في مجون ليس يتبعه كفر

وينادي صديقه احمد ليستفيق ويعصيا معاً جبار السموات . ويهيب

باللاحي هاتفاً :

قل لمن ينبغي صلاحي
أطيب اللذات ما كان
بعث رشدي بصلاحي
جباراً باقتضاح

ويقول لساقيه الغرير :

اسقني واسق يوسف
اسقنيها ملاً وفا
مزّة الطعم قرقفا
لا اريد المنصفا

وضع الزقّ جانباً ومع الزقّ مصحفاً
واحسّ من ذا ثلاثة واتلّ من ذاك احرفاً
خير هذا بشرّ ذا واذا الله قد عفا

ويجيء الصوم فيضيق به ابو نواس صدرأ فيقول :

منع الصوم العقارا وزوى اللهو فغارا
غير أزا سناداري فيه من ليس يداري
نشرب الليل الى الصبح صغاراً وكباراً
اسقني حتى تراني احسب الديك حماراً

واخيراً يلجأ الى العلم لعله يجد عنده باب فرج يدخل منه الى خدر
هذه الحبيبة فيقول :

سألت اخي ابا عيسى وجبريل له عقل
فقلت الراح تعجني فقال كثيرها قتل
رأيت طبائع الانسان اربعة هي الاصل
فاربعة لأربعة لكل طبيعة رطل

ثم يعتصم بالاجتهاد ، فيتوسل الى تحليلها بمنطقه المعكوس فيقول :
ما قال ربك ويل للألى سكروا بل قال ربك ويل للمصلينا
ويرى لنفسه رأياً جديداً فيقول :

حجّ مثلي زيارة الحمار واقتنائى العقار شرب العقار
ما ابالي اذا المدامة دامت قول ناه ولا شناعة جار

وينتهي به الطواف فيوصي ابن يقبر فيقول :

خليّ بالله لا تحفرا لي القبر الا بنقطة رطل
خلال المعاصير بين الكروم ولا تدنياني من السنبل
لعلّي اسمع في حفرتي اذا عفرت ضجة الارجل

اما وقد اتينا على ذكر القبر فيجدر بنا ان نقسم الميراث ، فلائي
نواس تقسيم طريف احب ان تسمعه :

جنان حصّلت قلبي فما ان فيه من باق
لما الثلثان من قلبي وثلاثا ثلثه الباقي
وثلاثا ثلث ما يبقى وثلث الثلث للساقي

ولا يدعنا ابو نواس في حيرة من امر دينه ، فيكشف الغطاء ، وما
دعاه الى ذلك غير النكتة التي كان يؤثرها في كل موقف فقال :

عتقت في الدنّ حتى هي في رقة ديني
وللكأس حظ كبير من وصف ابي نواس ، والابيات السنية التي
أطراها الجاحظ في غنى عن الذكر . وابو نواس مولع ، كعنتوة ،
بالكووس الفارسية ذات التصاوير ، وله في ذلك بيتان مشهوران اعجب
بهما الرواة القدماء :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكلّلة حافاتها بنجوم
فلورد في كسرى بن ساسان وروحه اذاً لاصطفاني دون كل نديم
ثم يصفها ايضاً فيبدع :

كأنهم ، والجر من فوقهم ، كائب في لجنة تفرق
وابو نواس الشريّب المذهب لم ينس احداً من شركائه في المأدبة حتى
قال فيه شيئاً ، فهو لا يهمل الدنّ المسكين :

ما زلت استلّ روح الدنّ في لطف وأستقي دمه من جوف مجروح
حتى اثنتيت ولي روحان في جسد والدنّ منطرح جسماً بلا روح
وينظر الى الدنّ فيراه ميتاً ، أي فارغاً ، فيكتب الى احد السادة :
قل لأبي مالك فتى مضر مقال لا مفهم ولا حصر
جشاك في ميتّ نكفنه ليس من الجن ولا البشر

واللهم قار، والروح من عكر
فكفّن الميت يا اخا مضر
ونحن في موته على حذر
عزف عليه ، والنقر بالوتر

لكنّ ميتاً عظامه خرف
ليس لنا ما به نكفّنه
واعجل قدمات فاعلمن ضحى
يا لك ميتاً صلاة شيعته

ويجرّ حب الحمرة ابا نواس الى الهزء بالشعر العربي القديم فيعمل على
نادي الطلول حملات غاشمة ، ويدعو عليهم دعاء العجاثر :

ايا باكي الاطلال غيرها البلى بكيت بعين لا يحف لها غرب
ويقول في قصيدة اخرى :

رقيق العيش عندهم غريب
واكثر صيدها ضبع وذيب
ولا تخرج فما في ذاك حوب
واين من الميادين الزروب

ذر الالبان يشربها اناس
بأرض نبتها عشر وطلح
اذا راب الحليب فبّل عليه
فأين البدوم ايوان كسرى

ثم يقول :

منزل خمّارة بأنبار
احسن من اينق باكوار
بنان رود الشباب معطار
وام عمرو وام عمّار

احسن من منزل بندي قار
وشمّ ريجانة ورجسة
ونقر عود اذا ترجّعه
احسن عندي من أم نلجية

ويقول :

ويندب اطلاقاً عفون مجرول
حرام علينا في الكتاب المنزل
فقد طال ما واقعت غير محلل
سبوح الى خلف بسعي مهول

لقد جنّ من يبكي على رسم منزل
ولكنني أبكي على الراح انها
سأشربها صرفاً وان هي حرّمت
وبتّ على أوراك طرف محجّل

ولأبي نواس غزل نسائي يضاهاى خمرته جودة ، وخصوصاً المقطع الذي
قاله على الباء :

حامل الهوى	تعب	يستخفّيه	الطرب
ان بكى فحقّ له	ليس ما به لعب		
كلما انقضى سبب	منك عاد لي سبب		
تعجبين من سقي	صحتي هي العجب		
تضحكين لاهية	والمحب	ينتخب	

ان هذه الابيات لتتمّ عن وصف عشق صحيح ، كما يتمّ هذا البيت عن
براعة فنية :

خلّيتُ والحسن تأخذه تنقي منه وتلتخب
وكم في هذا البيت من مطابقة لما يقوله علم النفس الحديث عن
« الهوى » :

صار جداً ما مزحت به ربّ جدّ جرّه اللعب
ولكي يتصل أبو نواس من التبعات الغرامية قال :
انا ابتدعت الهوى وحدي فتظلمني هذا نبي الهدى داود قد عشقا

مقدرة ابي نواس

ان مقدرة ابي نواس التي تميزه من اصحابه لا تتركز على تشابهه واستعاراته وان دلتنا على خياله القوي ، ولكنها تتجلى في هذا الخلق القصصي الذي تشيع فيه روحه ، ويحيا بظرفه فيكشف عن عبقرية شعرية نادرة ، مسدحة بتعبير سهل تنعشه موسيقى شديدة ، وجو فني تخلقه لفظة بسيطة . انظر كيف يصف قدم الحمرة :

يا شقيق النفس من حكم نمتَ عن ليلى ولم انم
فاسقني البكر التي اختمرت بجوار الشيب في الرحم
فلو كنت مزارعاً مثلي ، تزور الكروم حين تبرعم ، لرأيت بعينك
هذا الحمار الابيض ، وعلمت كيف تتخمر بنت الكرمة في الرحم . فنحن ،
الفلاحين ، نقول في تلك الساعة : قطن الكرم . وهذا ما عناه ابو نواس .
ثم لي في هذا المعنى وجه آخر : اذا رافقنا الحمرة الى الحابية رأيناها ، وهي
مسطار ، حين تغلي ، تلبس خمراً حقاً ، خمراً من نوع « الكريشة » التي
كانت تلبسها ستي رحمها الله . الخ . ويقول ابو نواس :

نمت انصات الشباب لها بعدما جازت مدى الهرم
فهي لليوم الذي بزلت وهي ترب الدهر في القدم
فهذه الحمرة تشب كلما تقدمت بها السن . واليك التجسيد الاخير ، او
المفاجأة المسرحية ، ان صحت التسمية ، فقد عودنا ابو نواس هذا « الزخم »

في قصصه :

عثقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفهم
 لاحبت في القوم ماثلة ثم قصت قصة الامم
 انني لأتخيل الحمرة عجوزاً دهرية مقرضة قرب الموقد في ليالي
 كانون تقص علينا قصة ثود وعاد... ولا ينسى ابو نواس « مهنته »
 فيقول في البيت الذي يلي :

« فرعتها » بالمزاج يد خلقت للسيف والقلم
 قد مرت بك شروط ابي نواس على النديم ، فاسمع وصفه الآن :
 في ندامى سادة زهر اخذوا اللذات من أمم
 فتمشّت في مفاصلهم كتمشّي البرء في السقم
 ان هذا البيت ينظر الى بيت الاخطل : تدب ديباً في العظام ...
 ولكن فلنوجز : ان منتوجات الاخطل والاعشى وشعراء الحمرة كلهم تجدها
 كلها عند النواصي . فلندع هذا اذن ولنشغل بما هو اجدى وانفع .
 قلنا انه يقصّ في وصف الحمرة . ولنقل انه يقصّ ايضاً في المديح ،
 فاسمع قوله الطريف :

الحمد لله ليس لي نشب فخفّ ظهري وقلّ زوّاري
 واحسنت نفسي التعزي عن شيء تولّى ، ومتنّ اوطاري
 فلست اخشى نفسي على طمع اخاف منه دريكة العار
 من نظرت عينه اليّ فقد احاط علماً بما حوت داري
 خيري من البيت كامن ، وعلى مدرجة الشائنين اسراري
 ان انتجعت العباس ممتدحاً وسيلتي جوده واشعاري
 وفي مدح الحبيب قصّ ايضاً . ان قصة اقحام المرأة في القصيدة
 لتخلص الى المدح لغريبة في ادبنا .

قال الاخطل ولم يعدُ الواقع :

واني غداة استعبرت ام مالك لراضٍ من السلطان ان يتهددا
فقال الفرزدق بكل وقاحة :

تقول لما رأني وهي طيبة على الفراش ومنها الدلّ والحفر
وقال جرير :

تعزّت ام حزرة ثم قالت رأيت الواردين ذوي امتياح
ثم قال بشار :

وقائلة لي حين جدّ رحيلنا وأجفان عينيها تجود وتسكب
وكذلك قال ابو نواس حين قصد الحُصيب :

تقول التي عن بيتها خف مركبي عزيز علينا ان نراك تسير
فقل انت معي : الشعراء كالغنم . . . والمعاني عندهم كلعبة الكرة
الصغيرة . . . ثم عد لنرى تجسيد ابي نواس في الهجو . انه يجعل لرغيف
محمد بن اسمعيل قرطاً وشفناً وخلخالين ، ويجعل رغيف سعيد بن مسلم
ولداً مدلاً يقبل ويلعب ويداعب ويخاطب . ويقول في هجو الرقاشي
وهو احد ابطاله :

رأيت الفضل مكتئباً	ينبغي الحبز والسكا
فأسبل دمه لما	رآني قادماً وبكى
فلما ان حلفت له	بأنني صائم ضحكا

ويقول في قدره :

قدرُ الرقاشي مضروبٌ بها المثل في كل شيء ، خلا النيران ، تبذل
تشكو الى قدر جارات اذا التقتا اليوم لي سنة ما مسني بلل
ويقول واصفاً « أيوب » كما روى الجاحظ في كتاب « الحيوان » :
من ينأ عنه مصاده فمصاد أيوب ثيابه

تكفيه فيها نظرة
يا رب محتزجيب
فاشي النكابة غير معلوم
او طامري وائب
أهوى له بمزلق
لله درك من ابي
قتل من علق حرابه
الردن تكنفه صوابه
اذا دب انسيابه
لم ينجه عنه وثابه
ما بين اصبعه نصابه
قنص اصابعه كلابه

اما في وصف مجالس الشرب فقصصه كثيرة ، حسي ذكر اثنتين
منها وتقص انت الباقي . الاولى مع امرأة اسمها حنون :

فقلت لها : ما الاسم والسعر بيّني
فقلت لنا : حنون اسمي ، وسعرها
ولما توّلى الليل او كاد أقبلت
فقلنا لها : جئنا وفي المال قلة
فقلت لنا : انت الرهينة في يدي
وله قصة كهذه مع خمار :

فلما حكى الزنار ان ليس مسلماً
فقلنا على دين المسيح بن مريم
فقلت له : ما الاسم ؟ قال : سموأل
فقلنا له عجباً بظرف لسانه :
وللدلالة على اقتداره في التخيل اذكر هذا ، وان جاء متأخراً ، قال

مدح فأجاد في البيت الاول وأغرب في الثاني :

انما انت عطايا
ابدأ لا تستريح

بع صوت المال بما
منك يشكو ويصيح

وله في قصص الحرة ايضاً شيء لا يجوز تركه ، قال يصف الساق

اولاً والخمرة ثانياً :

فقرَّب من نحو الأباريق خدّه
فصبَّ فأبدت ثم شجَّت فكُنَّبت
فقلت لها : يا خمر ، كم لك حجة
فقلت لها : كسرى حواك ، فعبَّست
سمعت بذي القرنين قبل خروجه
ولو انني خللت فيه سكنته
وقال ناحياً هذا النحو :

فجاء بها قد انهك العمر جسمها
فقلت لها لما أضاء سناؤها
اييني لنا يا خمر ، كم لك حجة
شهدت ثموداً حين حلَّ بها البلى
فقلنا : أنسقاها على وجه أهيف
فما زال هذا دأبنا وغذاءنا
ترى عندنا ما يكره الله كفه
وينحصر همَّ النواصي في اربعة اشياء :

اربعة يحيا بها
الماء والبستان
قلب وروح وبدن
والخمرة والوجه الحسن

فما أوردناه يتضح لك ان أبا نواس يعتمد في قصيدته على الاخراج ،
كأنه أدرك ان مواضعه واحدة فلجأ الى الفن الذي يقضي عنه الملل .
ان أقصى همَّ ابي نواس هو ان يختم قصيدته ختاماً جيداً ، فاذا لم يوفق
بشيء من عنده عمد الى بيت قديم يختم به القصيدة ، كقوله :
فغنى وما دارت له الكأس ثالثاً تعزى بصبر بعد فاطمة القلب
وهذا « التضمين » شائع جداً في ديوانه .

الساعر الساذ

اتخيّل أبا نواس تائهاً بين قطربّل وطيرناباذ ، يتبع آثار الخنّثين ،
مخموراً ، هازئاً ضاحكاً ، يجمش هذا ، ويغمز بعينه ذاك . لا يصحو حتى
يسأل عن الكأس . يهزأ في كل مكان ، وفي كل شيء ، في المسجد وفي
القصر ، في الطريق وفي الحمار .

له عين لا يفلت منها شيء ، فتقدمه الى مخيلة قوية تخرج منه صورة
جميلة .

حياة بوهيمية ، ابتدأت منذ الصغر ، نشأ على يد استاذ فاسق فبدّ
استاذة في كل ما أخذه عنه وتعلّمه منه . . . قال الشعر بعد ان حفظ
عشرات الألوف من القصائد ، كما يروون ، ثم نسيها كما امره خلف الأحمر
الذي ألحقه بأقيال اليمن زوراً وبهتاناً .

برز في الشعر ، وان أغار على القدماء . أطاعته اللغة فأوضح
عاطفته وفكرته أمّا بصورة تتجلّى فيها شخصيته ، وأمّا بأسلوب قصصي
يظهر فيه روحه وشخصيته .

السخر المضحك المبكي ، دعامة الادب النواسي ، اما مصادر روحه في
الحمرة فهي من شعر الذين تقدموه ، فقد نهيم ولم يدع لهم شيئاً . ومن
حوادث عصره ، فهو يصوّر حياة الفتة التي لابسها ، ويصف حياة عاشبا .
يخطئ من يظن أبا نواس شيئاً من الاشياء او ذا لون اجتماعي او

سياسي . فأبو نواس لا يعنيه من الحياة غير لذتين . واذا قال :
 اذا راب الحليب فبُلْ عليه ولا تخرج فما في ذاك حوب
 فهذا لا يعني انه شعوي ، فأبو نواس خمري لوطي . لا يعنيه شيء من
 المذاهب السياسية والاجتماعية ، الا بمقدار ما تتصل بمهنته . وان قال :
 قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ، ما ضرَّ لو كان جلس
 فهذا ما توحيه اليه شخصيته من هزء بعيش الذين بكوا على الاطلال .
 اما تجديد الشعر فما خطر له ببال .

لم يكن ابو نواس مولعاً بالمطالعة كالجاحظ ، بل كان مولعاً بالسماع ،
 حاضر الذهن ، سريع البديهة . وُهب خاطراً مولداً يكاد ينتفع بكل ما
 يسمع ويرى ، ومهما تأزَّم المضيق فله منه منفذ ومخرج .
 خاصة التصوير قوية في شعره ، وهي تدلنا دلالة صارخة على انه ليس
 من حاء وليس من حاكم . شعره اسهل من شعر بشار ولكنه أشد أسراً
 من شعر عمر ، وليس فيه شيء من رائحة بداوة شعر جرير ، وان كان
 فيه من سهولته .

عاش ابو نواس كولد ، وظلَّ كولد حتى انتهى . وفي هذا يتفق مع
 بشار ، ولكن شتات بين مراح الرجلين ، فمراح بشار مراح رصين ،
 ومراح ابي نواس مراح هازيء مستهتر ، مراح مخدَّث :

يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي بحمد الله ، غير وقار
 قلنا : والحمد لمن لا يحمد على مكروه سواه . . . وهذا التخث
 اورثه اياه اليم ، ونشأته في حجر امه ، ثم التحاقه بوالبة الفاسق .
 لم يربَّ تربية جدية ليقدِّر المسؤولية ويقوم بأعبائها . فتى رؤي عند
 عطّار وحمل الى بؤرة فاسدة . كان جميلاً ، وسوق الجمال رائجة ،
 وخصوصاً في ذلك العصر ، فألت اليه زعامة عصابة الخلعاء حين شبَّ .

تجري الاحداث السياسية الجسام حوله وكأذنه غريب عن اورشليم ، ولا بدع ، فقد لا يكون صحا ليفتكر :

وما الغبن الا ان تراني صاحباً وما الغم الا ان يتعتني السكر
ان بين ابي نواس وبين غيره من شعراء الحمرة فروقاً ، فالأعشى
يشرب مفتشاً عن رزقه والاخلط يشرب ويأكل :

ونوقف احياناً ويفصل بيننا غناء مغنٍ او شواء مرعبل
وابو نواس يشرب وعينه على النديم والساقى .
قضى العمر بين الحمارة والسجن وقلما رؤي صاحباً ، فهو اما نائم ،
واما متنع ، فمن اين له الساعة التي يفكر فيها بالعواقب :

وقائل هل تريد الحج ، قلت له نعم اذا فنيت لذات بغداد
اما وقطربل منها بحيث أرى فقة الفرق من اكناف كلواذ
فالصاحية ، فالكرخ التي جمعت شذاذ بغداد ، ما هم لي بشذاذ
فكيف بالحج لي ما دمت منغمساً في بيت قوادة او بيت نبّاذ
وهبك من قصف بغداد تخلصني كيف التخلص لي من طيوناذاذ
ألا تذكرك هذه الاعلام تلك الاسماء التي ذكرها الجاهليون حين
وقفوا على الاطلال ؟ هناك تحسر على الخيام وهنا تحسر على الحانات
والخمارات ، والشاعر يحيا بذكرياته .

والغريب في ابي نواس انه لم يأسف على ما فات لعلمه انه لم يضع
الفرص ، ولا شك عندي انه اغتم ما سنع له في سجنه ، ولذلك لم يذكر
السجن بشرّ كما اعتاد ان يذكره المسجونون .

اما الطبيعة فهي عنده كزينة للمأدبة تستثار بها القابلية ، ثم تنسى عند
نشوب المعارك النواسية ، ولا يذكرها الا لتشويق نديم او ساقٍ
ليتبعه . . .

ولا يصوّر ابو نواس غير حالة نفسية شاملة ، وهو يصوّر ولا يوحى ، ولوحاته تثير ضحكاً يمازجه الاعجاب .

واذا كان الفن ، كما عرفه بعض الفرنسيين ، هو ان يضع الانسان نفسه كلها فيه ، فابو نواس اعترف اصدق اعتراف للذرية . لم تهمل الحكمة ابا نواس ، فحكيمته كلها في اللذات ليس غير . انه لم يقل شعراً على هامش حياته ، بل صورها لنا كما هي ولم يخف خطأ واحداً من خطوطها ، فكأنه يفتخر بدعائه وشبهه . ادخلنا بيته وأرانا ما في زواياه من خبايا ، وما في صناديقه من طرف ، ولبراءة الذمة ، قلب امام اعيننا جيوبه ، ونفض اجرته . . . ومع كل هذا « الاخلاص » ارى شعر ابي نواس كجرس ينقطع رنينه عند التوقف عن قرعه ؟ بخلاف الاجراس التي ترسل نغماً اثر نغم ، ورنيناً اثر رنين فتستوعي سمعك الى ما لا يدرك .

اما اوزانه فتجري تبعاً للموضوع ، فاذا كان مديحاً او قصصاً اختار له البحور الواسعة الرصينة ، وان كان هواً اثر الضيقة السريعة . وفي الحالين تأتي قافية ابي نواس منقاداً طائعة ، كندمانه وغلمانه . . . وروح ابي نواس تطفو دائماً فوق مجوره ، فهي تعمل عملها المرح في شعره فيطيب ويحلو .

شعره مرنان ، والفاظه مختارة ، وعبارته ليّنة سهلة لا تعقيد فيها ، تغلب مرونتها على شدتها . موسيقى كمناجاة ينابيع لبنان لا كهدير انهاره . والخطبة مرعية عنده لانه لم يركب المركب الحشن الذي ركبه شعراؤنا في تعدد اغراضهم .

شعر ابي نواس واضح جداً ، وقد يكون هذا الوضوح مقللاً من ايجائه ، وحائلاً دون بقاءه في النفس . فلذة شعر ابي نواس عابرة كأنها لذة النكته ، انه يحاول ان يريك لا ان يحملك على ان تحلم .

وابو نواس يتراءى لي كأنه مركَّب من جسد فقط ، جسد بلا نفس
او نفس لا قيمة لها فيما بعد ، فهي آلة في يد اللهو والطرب . لا يذكرها
بخير ، فكأنه لا يدرك الا بجواسه فقط . وان نظم في « التلية » والزهد ،
فاكراماً لعيني جنان ، ومعارضة لأبي العتاهية . ان ابا نواس آلة شعر ،
يقول لك ما تريد شعراً ولا تدري مدى تأثره بما يقول . هو عارف -
سطحياً - بعلوم دهره وقد ينتفع بها في شعره حين الحاجة .

لقد اقلَّ ابو نواس من استعمال التعابير المعدة ، فلا تجد بعضها في غير
طردياته ، اما مواضيعه فواحدة تقريباً : خمرة وساق جميل مقرطق ، او ساقية
غلامية . يشبه عمر في اعاداته ، واذا لم يذكرها ما ادرك شعر عمر من ملل
فلأن نفسية ابي نواس واخلاقه مرحلة هازلة . ان عمر كرّر مواضيعه
وقصصه متبعاً نسقاً واحداً ، اما ابو نواس فمسلّح بخيال أقوى ، وتعبير
فيه كثير من الحلاوة والاغراء .

لقد ساعد تحريم الخمرة الديني قريحة ابي نواس فخلقت كثيراً من
الصور والنكت الطريفة ، ولأجل هذا التفرد نجعله فوق الاخطل في
خمرياته . فهو شاعر الخمرة بلا منازع ، كما كان عمر شاعر المرأة ، وكلاهما
قليل الحياء والمروءة .

ان صور ابي نواس لا تحصى ، وهي مستمدة من ملاحظاته ومطالعاته
ومن نفسه الهازلة كما قلنا . يُضحك اذا هجا ، بضد زعيم المدرسة بشار
الذي يؤلم ويُبكي . وابو نواس ، وحده ، هو الشاعر العربي الاسطوري .
له وجهان : وجه عامي واليه تنسب كل نكتة طريفة ، ووجه أدبي أحله
مقاماً رفيعاً بين الشعراء الكبار .

مُعَاَصِرُونَ

ابو تمام ودعل

هم اربعة شعراء ، ولكنهم صنفان مختلفان : ابو تمام وابن الرومي من مقلع واحد ، ودعل والبحري من أرومة تختلف اصولاً وفروعاً . فهذان عربيان لساناً وجناناً ، وصاحباهما ليس لهما من العروبة غير اللسان ، وان كان لأبي تمام ابن تيودوس صبغة اسلامية قلما تجدها عند الاعراب الاقحاح .

مات ابو نواس فانهارت بموته « مدرسة الخلعة » ، وبكت الدوالي على شاعرها ، وانطوى بساط المرح ، وتحطمت الكؤوس العسجدية ، وفرّ الشعر من منطقة الحياة وتقلّص وانكمش حتى عاد الى ارسقراطيته وترصنه ، فامسى يقال في مناسبات لا يعني الشاعر منها الا ما تدره من مال . كان الشعر حافلاً بالوان عصره وزمانه يصور العاطفة الشاملة ادق تصوير فصار آلة كسب واستجداء بل مهنة من المهن الحرة . . . كان الشعر في الحقبة التي مضت بعيداً عن الدجل والرياء والنفاق لا ينبثق الا من نفس قائله ، فالشاعر يخالف ، ولا يبالي ، العرف والتقاليد ، ويتجاوز بلا خجل التخوم التي وضعها الشرع الديني والمدني . فجّل ما يعنيه ان يقول شعراً يطرب له السامع ويصور له نفسه الأمانة بالسوء وما فيها من ميول مضطربة ، وشهوات متقدمة ، لا تكبح بلبجام ولا تردّها شكية . فالحمرة ، وهي رجس من عمل الشيطان ، توقظ الحواس النائمة نومة اهل

الكهف .

انها فترة مرّت فانقطعت كل صلة بينها وبين الجيل الذي جاء بعدها .
 فقلّما تسمع ضحكة ، بعد تلك القهقهات ، في ديوان العرب . فهذا
 الشيخ ابو تمام وهو من « الرؤوس » لم تب لنا سنّه قط . فهو ذو عينين
 ورأيتين تلتفتان الى خلف تبحثان ما خلفه القدماء ولا يعنيه الا مضاهاتهم
 في الاغراب ، والصلابة ، واقتباس صورهم واخراجها محسّنة مجمّلة .
 وهو ذو عينين اماميتين تحدّقان الى ما تقعان عليه فتلتقطانه بدقة
 وتخرجانه شعراً . ان فاته الموسيقى فليست تفوته الصور والتعابير الطريفة
 والقبیحة التي لم يألّفها الادب العربي . فأبو تمام زهيريّ في مديحه ، ترصن
 كذلك « المتألّه » وتوقّر ما استطاع فردّ على الشعر وقاره وابهته . لم تفلت
 من بين شفّيته ابتسامة كأنه ما عرف غير الجد وليس الهزل من طبعه . فأبو
 تمام مقلد في مدحه ، ومبدع مجيد في وصف الانتصارات ، صورّ وقعة
 عمورية ، وفتح باب الملاحم لشاعر القومية العربية الذي جاء بعده .

ان وصف كتّاب الحرب ، اليوم ، للحرائق التي تشبّها غارات السلاح
 الجوي يوضح لنا ملحمة ابي تمام ، فتتذكر قول شاعرنا :

لقد تركت امير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والحشب
 غادرت فيها بهم الليل ، وهو ضحىّ يشلّه وسطها صبح من اللهب
 حتى كأن جلايب الدجى رغب عن لونها او كأنّ الشمس لم تغب
 ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب
 سماجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا ، او منظر عجب
 رأيت ما احلى هذه السماجة في عين المنصور ؟ فكم كنت تقرأ مثل
 هذا في حرب الطائرات .

ان قصيدة « السيف اصدق انباء من الكتب » للمحمة خالدة

الرؤوس

واروع ابياتها :

تسعون الفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
وقد فات تاريخ هذا البيت احد الكتّاب المصريين فتساءل عن العلاقة
القائمة بين نضج التين والعنب وبين هؤلاء التسعين الفاً الذين نضجت
جلودهم . وليست هذه اول مرة يبتلى بها ابو تمام ، وقد اجاب على ذلك
بقوله لقارئه : لم لا تفهم ما يقال ؟ ..

واذا فتش راغب في تفهم اسرار « الرؤوس » عن نبوغ ابي تمام
وجده في وصف المحسوسات وصفاً لا يدع شيئاً .
فهو اذا استولى على فكرة أتى على كل ما يقال فيها ، تعضده عيناه
الأماميتان وتحمي ظهره العينان الحلفتان بجنود من اللغة التي يستوعب
اكثر مفرداتها .

ان لأبي تمام تعابير خلقها ، وهي ومضات عجيبة في ظلمات تلك
العبقرية المدهمة ، وقد سماها ابن الاثير الكلمات الجامعة ، وضرب مثلاً
عليها « وطن النهى » في قول ابي تمام :

سبق المشيب اليه حتى ابتزه وطن النهى من مفرق وقذال
فقال : فقلوه وطن النهى من الكلمات الجامعة ، وهي عبارة عن
الرأس ولا يجاء بمثلها في معناها مما يسدّ مسدّها .

اما انا - كما يعبر ابن الاثير - فرأيت ان قوام فن ابي تمام
هو في منحه الحياة لما لا حياة فيه ، واسناد الشيء الى غير ما
هو له .

كان اكثر شعرائنا توكؤاً على المجاز ، فتوغل في هذه الغاية حتى
بلغ اقصاها ، وأثار هذا معاصريه فهاجموه ، ولكن حبيباً غير هيابة ولا
نكس فما بالي بهم ولا بمن جاء بعدهم من عبّاد القديم ، وان جاء حيناً

بالقبيح فمن له الحسنى فقط ؟

لا اخال قارئى الا قائلًا : اعطنا بعض نماذج تؤيد بها زعمك ، قلت فاسمع :

نامت همومي عني حين قلت لها هذا ابو دلف ، حسي به وكفى
واليك مثلاً آخر من القصيدة عينها ، واظنه ليس يعجبك لانه
لم يعجبني :

لو لم تُتَقَّ مسنّ المجد مذ زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا
فهذا المجد المسنّ كاد يخرف لو لم يعد اليه ابو دلف شبابه ، ففتّاه غير
محتاج الى ما احتاج اليه فورونوف . . . وهو يحاول في مكان آخر نفخ
الحياة في اضعف الاشياء فيقول في الدمع :

اعني افرّق شمل دمعي فاني ارى الشمل منهم ليس بالمتقارب
ويقول :

وما صار يوم الدار عدلك كله عدوي حتى صار جهلك صاحبي
أرأيت كيف احيا العذل فصيرته عدواً كما صير الجهل صاحباً ؟
وفي القصيدة عينها يحبي العطايا ايضاً فيقول :

تكاد عطاياه يحنّ جنونها اذا لم يعودّها بنعمة طالب
ويصف ممدوحه بالبأس فيتخيل ويخرج صورة ، لك ان تقول فيها
ما شئت ، ولكنها ، كيف كانت ، تؤيد زعمي :

فان المنايا والصوارم والقنا اقاربكم في الروع دون الاقارب
ثم يتصور مكارم ممدوحه فيراها :

مكارم لجّت في علو كأنها تحاول ثاراً عند بعض الكواكب
هذا بعض ما وجدته في هذه القصيدة التي مدح بها ابا دلف القائل
فيه علي بن جبلة :

انما الدنيا ابو دلف بين مبداه ومحتضره
 فاذا ولّى ابو دلف ولّت الدنيا على اثره
 كل من في الارض من عرب بين بادية ومحتضره
 مستعيرٌ منك مكرمة يكتسبها يوم مفتخره

وقد روي ان هذين البيتين الاخيرين أحفظا المأمون ، وهو اعظم
 الخلفاء حُلماً ، فسلّ لسان الشاعر من قفاه . . .

اما وقد عرفت ابا دلف ، وقرأت الابيات المقولة فيه ، فاخالك
 ادركت ما حمل ابا تمام على الجد وراء هذه الصور . فلندع شعره في
 ابي دلف راوين لك بعض امثلة من هنا وهناك لتسير بالفانوس الذي
 يجب ان يُدرس ابو تمام على ضوئه .

قال ابو تمام متخيلاً الصيف :

من يزعم الصيف لم تذهب بشاشته فغير ذلك امسى يزعم الجبل
 فاقترض هذه الصورة البحري من ابن عمه - وانا اشك جداً بطائية
 ابي تمام لان تفكيره غير طائي - والبسها الربيع حين قال :

اتاك الربيع الطلق يخال ضاحكاً من العجب حتى كاد ان يتكلما
 وفي هذه القصيدة يهب ابو تمام الحياة للحاجات والامل فيقول :
 ان يسّر الله امرأ اثمرت معه من حيث اورقت الحاجات والامل
 ولست اذكر لك : مات مضرب سيفه ، ولا الحفاظ المر ، فهذه
 القصيدة يعرفها كل متأدب ، ولكنني اعطيك مثلاً آخر منه ابياتاً وجّهها
 الى عيّاش ، وعيّاش هذا كافور ابي تمام ، وان لم يحسن ابو تمام ما
 احسنه ابو الطيب .

قال ابو تمام يعاتبه على الابطاء :

الفطر والاضحى قد انسلخا ولي امل ببابك صائم لم يفطر

عام ولم ينتج نذاك وانما تتوقع الجلى لتسعة اشهر
 قصر ببذلك عمر مطلق تحو لي حمداً يعمر عمر سبعة انسر
 اظنك ادركت ما فيها من منتوجات الشاعر التي حدثناك عنها .
 وابو تمام ثالث اثنين ، هما ابو نواس والمتنبي ، وقد طاشت سهامهم جميعاً
 في الكنانة . . .

واحب اخيراً ان اريك كيف يتصور الشاعر الايام فيقول :
 وايامننا خزر العيون عوابس اذا لم يخضها الحازم المتلبب
 اذا اليوم امسى وهو غضبان لم يكن طويل مبالاة له حين يغضب
 ان ابا تمام لجريء على الكلام يتصرف به كما يشاء ، ولذلك تراه يأتي
 بلفظة يستعمل الناس غيرها حيث يستعملها هو ، فيقول :
 نرمي باشباحنا الى ملك نأخذ من ماله ومن اديه
 يفعل هذا ليقول فيه احد شراحه : ولكنه يريد ان يكون غير
 الناس .

وهو في كل ناحية من نواحي الشعر يتوكأ على عصا التشخيص ، فاذا
 تغزل قال لحبيبه :

لهف نفسي عليّ لا بل عليك ان تجول العيون في خديكا
 فكأثره اخذ هذا من قول ابي نواس :

في صحن خدّ لم يغض ماؤه ولم تخضه اعين الناس
 واذا خاطب صاحبه « ابا جعفر » جعل الحسن شخصاً يعقل او ملكاً
 يغزو فيقول :

يا ابا جعفر اقرّ لك الحسن وحلّت جيوشه في ذراكا

يا ابا جعفر خلقت بديعاً فاق حسن الوجوه حسن قفاكا

رحم الله ابا جعفر هذا وغفر لأبي تمام . . . واذا تحرّيت الصور التي

خلقها ابو تمام وجدتها كثيرة ، وكلها من ملتقطات تلك العين الحادة التي لا
يفلت منها شيء ، فيستوعبه خنان يستطيع اخراجه ولو معقداً احياناً .
اقراً وصفه « الحلة السابرية » التي كساه اياها محمد بن الهيثم ، واقراً
وصفه قلم ابن عبد الملك الزياد الكاتب الوزير ، واقراً وصف الفرو ،
واقراً رثاءه لابنه واخيه ، ذلك الرثاء الجاف ، لتعلم ان ابا تمام شاعر بعينه
اكثر منه بقلبه ، فكأنه كان يشهد مرض ابنه ونزع اخيه ليلتقط ويصف .
واقراً ايضاً وصفه احراق الافشين لتعلم ان شاعرنا كوافد البراجم
يجب رائحة القطار ، ويتهلل لرؤية « الشاورمه » .

واذا شئت ان تعلم ما توحيه الطبيعة لأبي تمام فاقراً وصفه الربيع .
فمن كل ما ذكرنا تعلم انه كان السباق الى « التشخيص » لا ابن الرومي
كما يزعم بعضهم :

ان الربيع اثر الزمان لو كان ذا روح وذا جئان
لكان بسّاماً من الفتيان

ثم ينظر فيها الى ما وراء القبر فيقول :

عجبت من ذي فكرة يقظان رأى جفون زهر الالوان
فشكّ ان كل شيء فان

ويتهم ابو تمام بشن الغارة على معاني القدماء وسرقتها . فكان يزعم معاصره
دعبل ان ابا تمام يتبع معانيه ويسرقها . روى له محمد بن صابر الازدي
شعراً لأبي تمام وقال له : كيف تراه يا دعبل ؟ فأجاب : احسن من
عافية بعد يأس . ولما اخبره انه لأبي تمام اجاب : لعله سرقه .

ان شعراءنا ، وشعراء الامم كلها ، قد يحومون حول صورة فتعاورها
اقلامهم ، كما ستري صورة « المفتاح » هدفاً لثلاثة اقلام كبار .
قال بشار :

اسلم وحييت أبا الملدّ مفتاح باب الحدث المنسدّ

فتناولها بعده ابو تمام وقال في بائته : والله مفتاح باب المعقل الأسب .
وأخيراً جاء الشاعر الضخم فقال ، وكأزّه ينظر الى مفاتيحنا الحديثة :
ومن طلب الفتح الجليل فانما مفاتيحه البيض الحفاف الصوارم
فكرّ قليلاً يدلك هذا المفتاح على الكثير من نفسية الشعراء الكبار
الثلاثة ، فأعمل فكرتك . واذا تأملت بعض التأمل ، وكنت من القارئ ،
تساءلت لماذا قال المتنبي الفتح الجليل ولم يقل الفتح المبين مع انها على
كل لسان تدور .

ان صاحبنا ابا الطيب كضريه ابي تمام يجب الخلق ويتعد عن
المألوف . انه يجب الضخامة والجلجلة ولهذا آثر الجليل على المبين . ثم الا
يذكرّك نعتة المفاتيح بالبيض الحفاف بمفاتيح اليوم الصغيرة التي تفتح
الابواب جميعاً ؟

ان ابا تمام هو من الشعراء المحرّكين ، من السلالة الزهيرية المتحدة
الجزور والفروع في الادب العربي ، ولو لم يقل الشعر في المواضيع
الجديدة التي اشرنا اليها لما كان الا شاعراً مداحاً نوّاحاً كما قال فيه ابن
عمه البحري ، ولم يبق له ما يميزه الا صناعة المطابقة التي نعتها نحن
اليوم تكلفاً وتعملاً ، ولكن كان له حظ فوصف ما وصف ، فظل ذكره
حيّاً وسيبقى الى حين .

اما مخيلته فمن الطراز الاول . لا يتكلم الا بالصور ، واذا فاته الرقص
المرح فلم تقته الخطوات الثابتة الجبارة . ففي شعر الطائي رائحة ثقافة لا
عهد للشعر العربي بها من قبل ، ولا غرو فقد نشأ وشب في شرح صبا
الفلسفة العربية . والكلمة الاخيرة هي ان السيد الشريف الرضي « شخص »
مثل ابي تمام واستعار مثله فصار في نظر احدنا شيخ الطريقة الرمزية

وواضع اسسها قبل بودلير وغيره من شعراء الغرب . . .

اما معاصره دعبل وعدوه الالد فكان اكثر عروبة في اللسان والجنان من صاحبه . كان هذا الشاعر خالعا العذار ولكن على غير طريقة الخلعاء الذين تقدم ذكرهم . روى صاحب الاغاني : خرج ابراهيم بن العباس ودعبل بن علي واخوه رزين في نظرائهم من اهل الأدب رجالة الى بعض البساتين في خلافة المأمون ، فلقبهم قوم من اهل السواد من اصحاب الشوك فأعطوهم وركبوا تلك الحمير فأنشأ ابراهيم يقول :

اعيضت بعد حمل الشوك أمالاً من الحرف
نشاوى لا من الصهباء بل من شدة الضعف

فقال رزين :

فلو كنتم على ذاك تولّوْت الى قصف
تساوت جالكم فيه ولم تبقوا على خسف

فقال دعبل :

واذ فات الذي فات فكونوا من بني الظرف
ومروا نقصف اليوم فاني بائع خفي

فانصرفوا معه فباع خفه وانفقه عليهم . . .

لقد تظرف دعبل فلم يفلح ، فالظرف سجية ليست من طبع ابي علي ، بل « الشطارة » طبعه الاصيل ، قتل صيرفياً طمعاً بصرة رآها معه فاذا بها ثلاث رمّانات . . . ثم صار شاعراً فغلبت سجية اللؤم على شعره فقال فيه الاصفهاني : شاعر متقدم مطبوع خبيث اللسان لم يسلم عليه احد من الخلفاء ولا من الوزراء ولا اولادهم ، ولا ذو نباهة أحسن اليه او لم يحسن ، ولا افلت منه كبير احد . ولم يزل مرهوب اللسان وخائفاً من هجائه للخلفاء ، فهو دهره كله هارب متوارٍ . كان يقول : لي خمسون

سنة أحمل خشبتي على كتفي ادور على من يصلبني عليها فما احد يفعل ذلك . وما سلم الا لأن له حزباً سياسياً يحميه ، فكان يدافع عن العلويين ويحتمي عند اهل اليمن .

مع هذا الشاعر العربي الخالص بلغ الهجاء الذروة . كان مع الاخل وجريز والفرزدق هجاء اموات او هجاء اناس احياء كالاموات فصار هنا هجاء ملوك ووزراء كالمملوك . صار هجاء سياسياً فكان دعبل يناضل غضبان على السلطان وحكومته يريد تقويمه واصلاحه . لقد بدت طلائع هجاء دعبل السياسي مع بشار العقيلي ، ولكنه بلغ حدّه وتجاوز المدى الابعد مع هذا الشاعر الشاطر . امّا هجاء الوجه فابتدأ مع دعبل وتمّ عند ابن الرومي . قال دعبل يهجو وجه صالح بن عطية مخاطباً المعتصم :
اضرب به جيش العدو فوجهه جيش من الطاعون والبرسام
وقال ابن الرومي :

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
وفي الشاعرين يقول المعري :

لو ينطق الدهر هجاء نفسه كأنه الروميّ او دعبل
فجميع الخلفاء العباسيين نعموا بهجاء هذا الشاعر الفذ ، وخير ما ذكره في هذا الكتاب الضيق قوله فيهم جميعاً :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة خيار اذا عدّوا وثامنهم كلب
واني لأعلي كلبهم عنك رفعة لانك ذو ذنب وليس له ذنب
كان المأمون رحب الصدر تتسع اخلاقه للطغيان الادبي - وان
سلّ لسان ذاك الشاعر من قفاه كما مرّ بك - فلو كان دعبل اليوم في
ارقي دولة واوسعها حرية وهجا ملوكها او رؤساءها كما هجا الخلفاء لما

سلم رأسه ، ومع ذلك يروون ان المأمون قال لاحدهم حين استأذنه
بالجئي برأس دعبل : لا . هذا رجل فخر علينا فافخر عليه ، فأما قتله بلا
حجة فلا .

وعندما جاء ابراهيم بن المهدي المأمون يحرضه على دعبل ضحك
المأمون وقال : انما تحرضني عليه لقوله فيك :

يا معشر الاجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنيئة يلتذها الامرد والاشمط
والمعبدات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده خليفة مصحفه البربط
ولما قرأ المأمون ابياته في ابراهيم هذا :

نفر ابن شكلة بالعراق واهله فهوى اليه كل اطلس تائق
ان كان ابراهيم مضطجعاً بها فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ولتصلحن من بعده للمارق
أننى يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافة فاسق عن فاسق
ضحك ، وأمن دعبلاً واستدعاه واحسن اليه . ولكن الشاعر لم يسكت
وشاعت له ، بعد ذلك ، ابيات يهجو بها المأمون . . .

والغريب ان يولّى شاعر لصّ كدعبل كما وُلّي ابو تمام ، والاغرب
ان يموت ابو الطيب وفي نفسه شوق الى الولاية ، واشدّ من هذا غرابة
ان يهجو دعبل المطّلب الذي ولاّه أمرّ الهجاء واقذعه :

وتلصق مصر بك المخزيات وتبصق في وجهك الموصل
وعاديت قوماً فما ضرهم وشرّفت قوماً فلم ينبلوا
شعارك عند الحروب النجاء وصاحبك الاخور الافشل
فانت اذا ما التقوا آخر وانت اذا انهزموا أوّل

ومن العجب العجاب ان تكون اخلاق الشاعر كما عرفنا ويقول
قصيدة تفيض عاطفة وبلاغة وقوة كقصيدته الخالدة التي مطلعها :

مدارس آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلٍ وحيٍ مقفر العرصات
وان يقول في الغزل مثل قوله :

ابن الشباب وأية سلكا لا اين يطلب ضلّ بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي
يا ليت شعري كيف يومكما يا صاحبي ، اذا دمي سفكا
لا تأخذوا بظلامتي احداً قلبي وعيني في دمي اشتراكا
انني ليعجبني كل طريف واياه اقصد ، ولهذا تراني اخالف غيري ،
فأجعل دعبلًا من الرؤوس وهو عندي من كبارها ، اللهم في الهجاء
الذي جاء فيه بالبدع .

اذا قرأت شعر دعبل فلا ترى الا عريان الكلام ، ومع ذلك تجد
شعره حياً ينبض لان روح قائله الثائرة المتمردة تتردّد فيه .

كان الشاعر عدو ابي تمام ومع ذلك كان صديقاً حميماً لابن عمه
البحثري ، وميتة دعبل وابي تمام كميّة جرير والفرزدق وشوقي وحافظ -

تاريخياً - فرثاهما البحثري بهذه الابيات الثلاثة التي لا تدلنا على شيء غير
التاريخ والجغرافيا :

قد زاد في كلفي وأوقد لوعي مئوى حبيب يوم مات ودعبل
اخوي لا تزل السماء مخيلة تغشاكما بسماء مزن مسبل
جدث على الاهواز يبعد دونه مسرى النعي ورّمة بالموصل

ابن الرومي

لو راعينا الانواع الادبية وجب علينا ان نشد ابن الرومي واما تمام في قرن ، ودعبلاً والبحثري في قرن . ولكننا نظرنا الى الزمان والى ما اعتبره غيرنا من القدماء ، ناهيك ان تداعي الافكار يذكرنا دعبلاً الخزاعي كلما ذكرنا حبيباً الطائي ، ويجرنا الى تذكر لحة البحثري التي تغنى بها زميله ومعاصره ابن الرومي ، حتى كاد يتفرد هذا الشاعر بصورة « المحلاة » وان لم يكن المبدع الاول لهذه الصورة .

اذا رمنا المقابلة بين شاعرين رأينا المقابلة ميسورة جداً بين ابى تمام وابن الرومي ، فكلاهما يحتفل للمعاني ايام احتفال ، وكلاهما يحاول اخراج « صورته » كاملة الخطوط تامة الالوان وان تنطس ابن الرومي اكثر . لا ارى ابن الرومي في اخراج صورته الا كخاص قصب السكر ، يظل في عراقك مع تلك الألياف حتى يمتصها . اما ابو تمام فلا يفرط في عمله هذا كل الافراط ، ولا يهمل البلاغة اهمال ابن الرومي ، بل يبالي باللغة والموسيقى مبالاة اخرجته تشدده فيها من زمرة المطبوعين ، واحصاء بين الشعراء المحكمين ، بل المتعمقين لما غناه من تصيد البديع .

لا ريب في ان ابن الرومي شاعر كبير ولكن بعض المعاصرين بالغوا في تكبير صورته لان « ثرهم اشبه باشواكه وحطبه اليابس » . اتخذوا من رفع مقام الشاعر ستراف يغطي عيب شعرهم ، ويا ليت لهم معنى واحداً من

معاني ابن الرومي فتختفي معانيهم ، ولكنهم فازوا بالبليد من تعبيره وما حصلوا حتى على الدون من تفكيره . لم تغفل العرب شأن ابن الرومي الا لأسباب : منها ان الشعر عندهم موسيقى اولاً ، والشعر عند كيوركيس استقامة وزن ومعنى ، ولهذا نراه اذا ظفر بمعنى طريف فلا يحصره في بيت واحد بل يشرحه بابيات تليه ، ويظل يفعل ذلك حتى يفقده روعته ، ويخسر جماله الفني ، فيبتعد صاحبه في هذا عن العرب الذين لا تروقه الثثرة ولا يحبون الا الایجاز .

واليك مثلاً من شعره يعرفك بالذوق العربي . اكثر العرب لا يروون لابن الرومي الا هذين البيتين في العدو والصديق :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من الصحاب
فان الداء اكثر ما تراه يحول من الطعام او الشراب
وتركوا له الابيات الخمسة التي تليها لأنها تعليل وشرح . ولا بأس علينا ان اوردنا مثلاً آخر :

واخال الايوان ، لو كان يسعى جاء سعيًا اليك قبل الأذان
ولو افاك كي تمهرج فيه غير ان ليس ذاك في الامكان
ارأيت الى ركافة البيت الثاني الذي لم يدل الا على حماقة صاحبه وجبه الاطالة ، التي يسميها « اصحابنا » نفساً طويلاً ؟ فلو شئت ان انفي ما في طويلاته من مثل هذه الحماقات لما ابقيت الا ربع ديوان ابن الرومي ولقلت له في قصائده تلك ما قاله هو لصاحب اللحية : القها عنك يا طويلة . ولكن اصحابنا قعدوا على طريق الادب يضربون بالرمل ، فعدوا هذه الاطالة الشنيعة ارثاً يونانياً ، واليونانية بريئة من مثل هذه الثثرة . أرشدتهم الى هذا الزعم كلمة رومي فالصقوا بصاحبهم المنطق ، والعقل ، والحيال ، والتفكير ، ووحدوا القصيدة ، حتى كادوا يعدون ابن الرومي شاعراً يونانياً .

قد يكون لأصل ابن الرومي بعض العلاقة بشعره ، وقد يكون تفكير ابي
تمام يحملنا على الشك في عروبتة ، ولكن هذا لا يخرج الشاعر من
نطاق الشعر العربي . لست اعزو الى « الجنس » الا شيئاً قليلاً من هذا ،
فشعراء الامة الواحدة أشكال واجناس ، كما انك تجد - اذا تأملت -
لكل شاعر في كل امة مشابهاً في امة أخرى .

لست اعزو وصف ابن الرومي الدقيق الى أصله ، فشراشته ونهمه
وحرمانه حملته على وصف تلك المأكولات فقال في وصف الدجاجة :

وسميطة صفراء دينارية ثناً ولوناً زقياً لك حزور
عظمت فكادت ان تكون اوزة ونوت فكاد اهابها يتفطر
ظلنا نقشّر جلدها عن لحمها وكأن تبرأ عن لجين يقشر
ومدح الموز بقوله :

للموز احسان بلا ذنوب ليس بمعدود ولا محسوب
يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع الى القلوب
ووصف العنب فاجاد اجادة يحسد عليها :

ورازقيّ مخطف الحصور كآزّه مخازن البلور
لم يبق منه وهج الحرور الا ضياء في ظروف نور

واذا شئت ان تتذوّق مثلي جمال هذه الصورة فتعال الى عين كفاع
في صدر ايلول الذي يقول فيه ابن الرومي ايضاً :

قل فيه ماشئت من شهر تعهده في كل يوم يد الله بيضاء
وقال صاحبنا في وصف القطائف :

قطائف قد حشيت باللوز والسكر الماذي حشو الموز
تسبح في آذيّ دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي

سرور عباس بقرب فوز

ولست اذكر لك وصفه قالي الزلاية ، ولا وصفه الحجاز ، ولا قوس
قزح ، فهي معروفة من كل متأدب ، ولكنني أروي لك ابياتاً تدلّك على
ان الحياة عند ابن الرومي أكل وشهوات ، ثم شعر يصفهما حتى كاد ان
يكون من ناظمي كتاب « استاذ الطباخين » شعراً ، واليك البرهان
من شعره :

يا سائلي عن مجمع اللذات	سألت عنه انعت النعّات
فهاك ما انشأته من قصّه	مسلماً من شوبة ونقصه
خذ يا مرید المأكل اللذيد	جرداقي خبز من السميد
لم تر عين ناظر مثليهما	فقشّر الحرفين عن وجهيهما
حتى اذا صارتا طفاطفا	اضف الى احدهما تفاففا
من لحم فروج ولحم فرخ	تدور جوذا باهما بالفسخ
واجعل عليها اسطراً من لوز	معارضات اسطراً من جوز
اعجامها الجبن مع الزيتون	وشكلها النعنع بالطرخون
حتى ترى بينهما مثل اللبن	مقسومة كأنها وشي اليمن
واعمد الى البيض السليق الاحمر	فقدّرهم الوسط به ودّثر
وترب الاسطر بالملح ولا	تكثّر ، ولكن قدراً معتدلاً
وردّد العينين فيه لحظاً	فان للعينين منه حظاً
ومتع العين به مليّاً	واطبق الحبز وكلّ هنيّاً
املاً ثناياك واكدم كدماً	تسرّع فيما قد بنيت هدماً
لهفي عليها وانا الزعيم	بعدة شيطانها رجيماً

ان قوله « كل هنيّاً » ذكرني بكلمة « صبّ وقدم » في كتاب استاذ
الطباخين . . . واحاول ان اعنف ابن الرومي على هذه السخافات فاسمعه

ينادينني من وراء العصور :

لا تلحني في المنطق السخيف فأنني في حالة اللهيف

وأحوج الناس الى الرغيف

ان تطير ابن الرومي حوله صوب هذه الاشياء فوصف المأكولات كثيراً ،
والطبيعة قليلاً ، كما صرفه تشاؤمه الى هجو اشكال الناس ، فصورها تصويراً
هزلياً ، فقال في ذم اللحية الطويلة :

ان تطل لحية عليك وتعرض فالحالي معروضة للحمير

علّق الله في عذاريك مخلاة ولكنها بدون شعر

كما قال في وجه عمرو :

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول

وقال في الانف الطويل :

حملت انفاً يراه الناس كلهم من رأس ميل عياناً لا بمقياس

واذكر لك هجوه طبيباً يستحقه الكثير من محترفي الطب :

أفنى وأعمى ذا الطيب بطبه وبكحله الأحياء والبصراء

فاذا مررت رأيت من عميانه أمماً على امواته قرءاء

وتطير ابن الرومي جعله يتخيل الاشياء اشخاصاً يأمن شرها ، واحب

الطبيعة لكرهه بنيتها ، الذين ازدروا شعره لتطويله المملول المسلح

بالايضاحات التي ابعده عنهم ، حتى جعل مدحهم قصصاً واحاديث . اذا

قرأت قصيدته « البائية » في مدح احمد بن ثوبة ضجرت كما ضجر اكثر

مدوحيه في ذلك الزمان ، فردوا اليه مدحهم فهجاهم لاجل ذلك امرّ هجاء :

رددت اليّ مدحي بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديداً

وقلت امدح به من شئت غيروي ومن ذا يقبل المدح الرديداً

ولا سيما وقد أعقت فيه مخازيك اللواتي لن تبيداً

وما للحَيِّ في اكفانٍ ميتٍ لبوسٍ بعدما ملئت صديداً
وابرز نواحي شعر ابن الرومي واعظمها تأثيراً في النفس هي تلك
الناحية الابدية الازلية ، ناحية التلهف على الشباب واستقبال المشيب أسوأ
استقبال . لم ار ضرباً في هذا لابن الرومي الا عنما الاخطل ، القائل
في النساء :

واذا دعونك عمهن فانه لقب يزيدك عندهن خبالا
كان ابن الرومي محبباً للحياة اشد حب ، وهو في هذا ايضاً يتفق مع
التغلي . كلاهما يتصور نفسه قد مات فيقول في ذلك شعراً ، كما تصور
ذلك مثلها شاعر غربي هو سيلي بريدون فقال قصيدة مشهورة .

كان ابن الرومي يتبع المغنيات لامين : الجمال ، وحسن الصوت . وصف
المغنية « وحيد » اصدق وصف وامكنه وفصل وقوعه في شباك حبها
تفصيلاً دقيقاً جداً ، فهو ابدأ في دائرة هواها لا يخرج منها لحظة ،
والشقية تلعب بالشاعر لعب الهرة بالفأرة . مختار ابن الرومي في تحليل
حب وحيد فيقلبه على جميع وجوهه ، فيقول فيه كل ما يقوله علماء النفس
في الهوى واحتلاله ساحة الشعور احتلالاً انكليزياً . وله في قصيدة
« المهرجان » وصف للمغنيات رائع جداً يدل على خيال هو من القوة في
الذروة ، ولو سلّح هذا الخيال بموسيقى البحتري لكان صاحبه سيد
الشعراء . ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، قال خير شعره في وحيد التي
عشقها ، وبستان التي احبها ، ومظلومة التي هام بها ، واني اذكر بيتاً
قاله في رثاء بستان يسوى عشراً من قصائده :

انا الى الله راجعون لقد غال الردى سيرة من السير

ولكنه يغالي في هجو المغنيات الآخر فيقول في احداهن :

فاذا غنت بدا في جيدها كل عرق مثل بيت الأرضة

ويقول في غناء قينة أخرى :

واستوجبت منا أليم الضرب

قد أصدأت سمعي وغمّت قلبي

غنّت فمسّ القلب كل كرب

لها فم مثل اتساع الدرب

ويقول في مغنية اسمها شنطف :

والارضُ وشمس النهار والقمر

يداه مقابح الصور

القبج ، وفحش العيوب والقدر

شنطف يا عوذة السموات

صورك المارد اللعين فاعطتك

بل انت فوق المنى ، اذا ذكر

ويقول في واحدة غيرهن :

ضعفي ثواب صلاة الليل والصوم

عليه ، بل طلباً للسكر والنوم

لها غناء يشب الله سامعه

ظلمت اشرب بالأرطال لا طرباً

ثم يجمع مغنيتين معاً فيقول فيها :

دريرة تجلب الطربا ونزهة تجلب الكربا

تغني هذه فيظلّ عنك الحزن قد عزبا

وتعوي هذه فتطيل منك الحزن والوصبا

ومن يولع هذا الولع برّبات الطرب ، وسيدات « التخت » في عصرهن ،

ومن يهاجم هجوماً لا هواة فيه من يجلسن على سرير الغناء ولا يصلحن

له ، فلا شك انه يبكي شبابه بتوجع ابن الرومي وتفجّعه ، فهو بحق

شاعر الشباب المفقود . انه يخاطب ممدوحه ، طالباً ان تأتية الجائزة

الى البيت لانه يخاف البحر ويخشى البر حتى امسى يخاف كل شيء ، لما

حلّ به من بلايا ومصائب ، ولو لم يحلّ به غير مصيبة فقد الشباب لاستحق

العذر من الكرام :

ومن لم يصب الا بشرخ شبابه لكان قد استوفى جميع المصائب

ولا ريب ان الجائزة قد ابطأت ، كما هي العادة ، فنسمعه يقول :

جعلت فداك لم أسالك ذاك الثوب للكفن
سألكه لألبسه وروحي بعد في البدن
وهو يطلبه منه ويريده جميلاً متيناً لا كالذي يقول فيه :

طيلسان اذا تنفست فيه صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا
تتغنى احدى نواحيه صوتاً فتشق الأخرى عليه الجيوبا
فاذا ما عدلته قال مهلاً لا يكون الكريم الا طروباً
ان ابن الرومي على املاقه وعدمه يحب الحياة ، ولا تحدته نفسه بالرحيل .
هو مقيم برغم انف الكوارث والدواهي . ان صرخته على الشباب لا ينقطع
صداها من زوايا نفسي ، فهي صادرة من قلب مقروح كقلب مدام
دي نواي :

أفجع بالشباب ولا اعزى لقد غفل المعزى عن مصاي
ومن يبكي الشباب فلا شك في انه يذم الشيب ، وهكذا فعل ابن
الرومي كما فعل الاخطل قبله ، فقال :

لما رأت بدل الشباب بكث له والشيب ارذل هذه الابدال
هل للشباب الذي قد فات مردود ام هل دواء يرد الشيب موجود
ولكن ابن الرومي يبكي شيبته ويزيد قائلاً :

لا تلح من يبكي شيبته الا اذا لم يبكيها بدم

ويقول في الشباب والشيب والحضاب :

عجباً للشباب يرمي فيصمي وظباء الانيس عنه رواض
والشيب البريء يعرض عنه او يلاقى بجفوة وانقباض
وغناء الحضاب عن صاحب الشيب غناء الرقي عن المراض
ملبس فيه فرحة من غرور وهو باق ، وترحة وهو ناض
خدعة ثم فزعة ان هذا لحقيق بكثرة الرفاض

وظاهر القول يدلّ على ان الاخلل حين يطلب دواء يردّ الشيب فهو
لا يطلب الحُضاب ، بل القوة التي تذهب بذهاب الشباب والتي من اجلها
قال في النساء :

اعرضن لما حنى قوسي موتّرها وايضّ بعد سواد اللمة الشعر
ما يرعون الى داعٍ حاجته ولا لهن الى ذي شيبة وطر
اما ابن الرومي فيرى الشيب حداداً على الشباب :

والا فما يغرو امرؤً بخضابه أيطمع ان يخفى شباب مدلس
وكيف بأن يخفى المشيب لحاض وكلّ ثلاث صبحه يتنفّس
وهبه يوارى شبيه ، أين ماؤه وأين أديم للشيبه املس
ثم يصرخ صرخة الاخلل ، فتخالها زفرة تصعدت من صدر واحد :
أيام لهوي ، هل موازيك عودّ وهل لشباب ضلّ بالامس منشد
ويسلّم امره الى من يعنيه الامر فيقول :

لو يدوم الشباب مدة عمري لم تدم لي بشاشة الاوطار
كل شيء له تناءٍ وحدّ كل شيء يجري الى مقدار
ثم يتمّ فيقول :

ليت شباب الفتى يدوم له ما عاش او ينقضي مع الوطر
لكنّه ينقضي واربتّه في القلب مثل الكتاب في الحجر
واخيراً يقعد حسيراً في درب الغايات ويصبح صياح ابن طيا للسيد :
اريد ان ابصر ، فيقول :

بان الشباب فلا يد نحوي ولا عين تشير
ولقد اسرت به القلوب فقلبي اليوم الاسير

ثم يستكين فيعذرهن على الاعراض قائلاً :
اعر طرفك المرأة وانظر فان نبا بعينيك عنك الشيب فالبيض اعذر

إذا شئت عين الفتى وجه نفسه فعين سواه بالشناة اجدر
هذه حرقه الشيخ ذي النفس الخضراء ، فعينه بصيرة ويده قصيرة ،
والدنيا أدوار .

وشاعرنا منكاح مزواج يتمنى النساء دائماً ويغضب ان رآهن في حوزة
غيره ، فيلجأ الى فنه يستنجد به ليخفف من عرام حنقه فيقول في هذا
كلاماً يلبسه خير حلة بعد الابتذال :

شرط خولوا عقائل بيضاً لا بأحسابهم بل الانساب
فاذا ما تعجب الناس قالوا هل يصيد الطباء غير الكلاب
لم اكن دون مالكي هذه الاملاك لو أنصف الزمان المحابي
لست استقصي تحرقات ابن الرومي على النساء وما قال فيهن فيخرج
بحي عن حده ، ولكنك متى عرفت انه يتخيل الطبيعة امرأة ، ادركت
مدى شهواته :

تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الانثى تصدّت للذكر
وما ارى الطيرة عنده الا نوعاً من الغيرة والحسد ، ولكنها بصورة
اخرى . فلم يسبب كره ابن الرومي لمعاصريه الا تقصيره عن التهام ما
يعرض في اسواق بغداد من هذه البضاعة . فها هو ينظم الشعر لأحدهم
مستعيناً على الزفاف ، فاسمعه يقول :

يا سميّ الخليل اياك أدعو دعوة يمتّ سميعاً مجيباً
أمة من اماء طولك أجمعت على نقلها الي قريباً
ما تزوجتها على غير تأميلك فانظر ، أجاز ان اخيباً

عجيب أمر شاعرنا وأيّ عجيب ! يستجدي الرغبة هاتفاً :

أيلتمس الناس الغنى فيصيبهم وألتمس القوت الطفيف فيلتوي
فلا ألومه ، ويطلب الثوب فلا اعنّفه ، اما ان يطلب تكاليف زفاف

وهو جوعان ، فهذا غريب . . . لقد كدت اعذر اناساً جوّعوه وحرّموه
واناساً كانوا يعبثون به . لم أرَ مثله رجلاً ، فهو كما يقول مثلنا : دجاجة
منقارها فولاذ .

هذه امرأة تغتصب داره فيصبح :

أجرني وزير الدين والملك انني اليك بحقي هارب كل مهرب
فلا تسلمني للأعادي وقولهم الا من رأى حقراً فريسة ارنب
ثم يتخطى - ولكن مرة واحدة - من التغزل بالخور الى التغزل
بالولدات فيقول في واحد قولاً يلمح فيه الى داهية العرب :

ليت شعري ، اسحر عينيك داء القلب أم نار خذك الوهاج
ايها الناس ويحكم هل مغيث لشج يستغيث من ظلم شاج
من يحيري من أضعف الناس ركناً ولعينه سطوة الحجاج
ان البيت الاول لا يدلني على كلف ابن الرومي بالالوان كما دلّ
غيري ، والنظر الادبي قد يختلف . وبعد كل هذا فابن الرومي في نظري
شاعر الشباب المفقود ، والمطبخ المنشود ، والمديح المردود .

لقد فصلنا بحثنا هذا على قدّ كتابنا ، وتركنا الاستقصاء ، ثقة منا
بذكاء من يهه التعمق في درس ابن الرومي . فالتحسر على الشباب ، وعلى
الاكل ، وعلى الجوائز ولّد ما ولّد في مخيلة ابن الرومي العجيبة ، فاطال
القول وتبسّط في الايضاح ، والعرب يكرهون كل ما يأتي على سحر
البيان ، والسحر لمع وخطف . ولهذا حرّموا ابن الرومي واجازوا البحتري
الذي حدثهم بلغتهم ، ونهج نهج شعرائهم ، فثار ابن الرومي على البحتري
وعلى غيره انتقاماً لشعره ، وان اعترف ابن الرومي بغثاة شعره اذ قال
فيه ما يغنيننا عن كل تحديد :

قولا لمن عاب شعر مادحه اما ترى كيف ركّب الشجر

ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينه الثمر
 اذا صحّ هذا في النبات وغيره من الاشياء فلا يصحّ في الفن . كان
 على ابن الرومي ان ينحّي الهراء ويبقي من شعره ما طاب ، ولكن
 الطيّب من شعره ليس فيه اقل شبه من شعر معاصره البحري ، وآفة
 الشعراء في حياتهم ، معاصر يماشي رجال زمانه . انه يكسف نورهم واذا
 طلع لم يبد منهم كوكب . اما الغد فقد يرفع من حطّ ويحطّ من
 رفع .

خليل اظلّ اذا زارني كأي أنشأ خلقاً جديداً
 ان في هذا البيت وثبة رائعة ، وهو ثمرة لذينة ، اما ما يليها فقشر
 وخشب يابس وشوك ، واليك ما قال :

اراني وان كثر المؤمنون ما غاب عني وحيداً فريداً
 بلوت سجاياه في النأبات فلم ابلُ منهنّ الا حميدا
 البيت الاول فوق السحاب والآخران تحت التراب ، فتأمل .
 وعلى ضعف موسيقى ابي تمام بالقياس الى البحري فان البون بعيد
 بينه وبين ابن الرومي ، واليك ما قال في غرض واحد . قال ابو تمام :
 نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ الا للحبيب الاول
 كم منزل في الارض يألفه الفتى وحينه ابدأ لأول منزل
 فقال ابن الرومي :

وحبّ اوطان الرجال اليهم مآرب قضّاها الشباب هنالكا
 اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
 الا ترى ابا تمام شاعراً — هنا — وابن الرومي منطيقياً ؟ على الشاعر
 ان يقول وعلى الناس ان يفهموا . اما ابن الرومي فيريد ان يعرقل
 سيده . انها لحجج فاوغة يتحلها ابن الرومي ليدافع عن شعره ، فمهما

عمل ومهما بذل من جهود فلا يكون غير ما كان . ولكن قد كان في
مكنته ان يدع للسوقة قول : ولا سيما ، والعامه لا تلفظها مخففة كما فعل .
ثم ما له وللمشار اليه في قوله :

يا ابا بكر المشار اليه بانقطاع القرنين في الادباء

وما كانت احراه ان لا يكثر - على الاقل - من هذا الاستعمال
الكريه : المعتدريكم ، حبّيك ، نقديك واقتضائيك ، وهجائيك وبغضيك ،
ولبسها ، وهذا كثير في شعره . واخيراً عضّيك في هذا البيت :

وعزّيز عليّ عضّيك باللوم ولكن أصبت صدري بداء

واذا كان لا بد من العض فلماذا لا يعض ابن الرومي « مثل
الاوادم » ؟ . . فلو قال عضّك لما فقد البيت شيئاً من قوته ولا من وزنه .
وفي هذه القصيدة التي اخذنا منها هذه النماذج ، أبيات شائعة تدلّك
على مخيلة الشاعر ، واليكها :

لك مكر يدبّ في القوم أخفى من ديب الغذاء في الاعضاء

او ديب الملل في مستهامين الى غاية من البغضاء

او مسير القضاء في ظلم الغيب الى من يريده بالتواء

او سرى الشيب تحت ليل شباب مستحير في لمة سمحاء

اقرأ وصف ابن الرومي لقيان المهرجان وآلات الطرب في احضانهم
لتقدر هذه المخيلة حق قدرها ، وان شان ذاك الابداع سوء ظنه بقرائه
فعمد الى الشرح والتعليق . . . لقد وهب ابن الرومي مخيلة عجيبة ولكنه
لم يوهب « قوة النقد » التي تسيّر تلك المخيلة في الطريق الامثل .

اسمع كيف يتخيل ليهجو رجلاً ادعى نسباً :

بيناه علجاً على جبلّته اذ مسّه الكيمياء فانقلبنا

عربّه جدّه السعيد كما حوّل زرنينخ جدّه ذهباً

وهكذا هذه الحدود لها اكسير صدق يعرّب النسا

يا عربياً آباؤه نبط يا نبعة كانت اصلها غربا
 كم لك من والد ووالدة لو غرسا الشوك أثمر العنبا
 بل لو يهزات هزة نثرت من رأس هذي وهذه رطباً
 لو ذكر غيري هذه الابيات لعدّها دليلاً عظيماً على ثقافة ابن الرومي
 الطويلة العريضة العميقة ، ولكنني لست اراها الاّ معلومات بسيطة يعرفها
 اهل عصره كلهم ، وحسب الشاعر ان يدرك ما يراه الناس كلهم ويحسّ
 به غير احساسهم ، كما فعل بشار وابو تمام . وابن الرومي يعلم كما نعلم
 ان شعره ينقصه شيء فيدافع عنه بقوله :

ان تكن سهلة القوافي فليست في المعاني بسهولة الوجدان
 ابسط العذر في ارتخااص القوافي واتباعي سهولة الاوزان
 فابن الرومي عارف انه اذا قصر في ميدان البلاغة فقد وفّق في
 التصوير والتخيل الى أبعد مدى . وقد كفانا ابن الرومي تحليل نفسيته
 فقال عن نفسه :

شكري عتيد وكذاك حقدي للخير والشر بقاء عندي
 كالارض مهما استودعت تؤدي واين عن طينتنا نعدّي
 احفظ للاعداء والأودّ ما استودعوا من بغضة وودّ
 ماذا يقول القائلون بعدي

لا نقول شيئاً الا ان هذه القريحة لو كان لها منها مذهب لجاءت
 بغير ما نقرأ . وابن الرومي يشكو الجد كغيره من شعراء هذه الحقبة ،
 ويقول شيئاً من هذا بمناسبة الكلام عن ابي الصقر الذي حوّل زرنينج
 جده ذهباً :

ولعمري ما ذاك أعجب من ان كان عجباً فصار من شيبانا
ان للجد كيمياء اذا ما منّ كلباً احاله انسانا
يفعل الله ما يشاء كما شاء متى شاء كائناً ما كانا

والظاهر ان امثال ابن الرومي كانوا عبئاً ثقيلاً على الصناديق
وخصوصاً على صناديق الأنانين البخلاء اصحاب الجمع والمنع ، فلا تسمع في
ديوان ابن الرومي الا اينناً موجعاً فهو يناقش بمدوحه الحساب :

ان اكن أحسنت في مدحك فأخو الاحسان أولى من رقد
او اكن قصّر جهدي عنكم فأثيبوني ثواب المجتهد
او فردّوا المدح مستوراً ولا تشمتوا بي أعيناً نحوي تقد
هو باز صائد ارسلته فارجعوه سالمأ ان لم يصد
واذا استبطأ واضطر فقد يتحرك اذا لم ير في دربه من يتطير منه ،
ولكن المسكين لا يفوز بغير برودة الاستقبال فيصيح بأبي القاسم :

لاقتني ساعة لاقتني أثقل خلق الله أجفانا
كأتما كنت تضمّنت لي ردّ شبائي كالذي كانا
او كلّ ما لم يستطع فعله عيسى ولا موسى بن عمران

ولا يغضب ابن الرومي شيء مثل عيب شعره ، فيثور ويفور
كالنور ، ويسبّ أمّ من يعيب شعره :

عاب أشعاري وفي منزله كل عيب ومخازير وريب
انا لا أستم الا أمّه فليزدي غضباً فوق غضب
ما لمن يغمر في انسابه ويعيب الشعر من اهل الادب

ولا اخاله هجا ابا سليمان الطنبوري وغيره من مغنين ومغنيات الا
لأنهم لم يتغنوا بشعره ، ولهذا السبب ايضاً هجا الأخفش كما هجا بشّار
سيبويه . قال ابن الرومي في ابي سليمان :

ابو سليمان لا ترضي طريقته
له اذا جاوب الطنبور محتفلاً
عواء كلب على اوتار مندفة
وتحسب العين فكّيه اذا اختلفا
وقال في مغنٍ آخر وقد أجاد :

جلسه مآتم اللذاذة والقصف
وعرس الهموم والاحزان
والحسد كان ولم يزل آفة الادباء ، وخصوصاً المتأدين ، ومن هذا
يشكي ابن الرومي فيقول :

أقول شعراً لا يعاب شبيهه
فتكون أول عائب تشبيهه
ما كل من يعطى نصيب بلاغة
ينسبه من رعي الوداد نصيبه

واخيراً يلوم الشعراء على المديح ، وهو واحد منهم :
« يقولون ما لا يفعلون » مسبة من الله مسبوبة بها الشعراء
وما ذاك منهم وحده بل زيادة يقولون ما لا يفعل الامراء
ويحاول ابن الرومي ان يلمّ باقوال الاخطل في المرأة والشيب فيقصر
عنه ، كما انه المّ بفكرة سبق اليها بشار فاستمدّها من القرآث الكريم
ليقول في رجل اسمه ابو سفيان :

كيف لا تحمل الأمانة ارض حملت فوقها ابا سفيان
فقال ابن الرومي في رجل اسمه ابن حريث :

اين من يشتري حمراً ضليعاً ليس في مشيه ونية ريث
يحمل الدين والأمانة والمنّ اضطلاعاً ويحمل ابن حريث
ويأخذ قول ابي تمام :

واذا جفاك الدهر وهو ابو الوري طراً فلا تعتب على اولاده
فيقول قولاً قبيحاً يدل على فساد ذوق :

وما الدهر الا كابنه فيه بكرة. وهاجرة مشمومة الجو صيخد
تذيق الفتى طوري رخاء وشدة حوادثه ، والحول بالحول يطرد
ويصف بيته وخصوصاً ثلبسه فيفتت القلوب :

ولي الحفّ ذو الرقاع ولي النعل وللعبد ساحب يعبوب
وهومومي محدثاتي ، وبستاني شوك ثماره الحروب
عكست امري النحوس فعنزني أبداً حائل ، وتيسي حلوب
غير اني رأيت نحسي على نفسي فعودي لا غيره المنجوب
اصحب المرء فهو مني بمطور ولكن واديه لي مجدوب
رحمك الله يا ابن الرومي فكم في الحياة من امثالك . . . ولو كنت
حيّاً لما قلت في شعرك غير ما قلت ، وان مثلت بي كما مثلت بالاخفش
وغيره من عائي شعرك . ان القليل من شعرك يعجبني كأسمى الشعر ،
اما ما بقي فنثر موزون ، ولست ازعم غير هذا ولو اتفق على عكسه
الانس والجن .

المختري

اول ما نعلم اولادنا كلمة قالها ابن الأثير : اراد المختري ان يشعر
فغنى ، نستدل بذلك على الديباجة المخترية التي نفقت شعر المختري
وكسدت بضاعة ابن الرومي .

ان نقاد الأدب القديم ودارسيه كالغنى يتبع بعضها بعضاً . شهد
الثعالي ، صاحب يتيمة الدهر ، لشعراء الشام بالتبريز قديماً وحديثاً لقربهم
من خطط العرب ، ولا سيما اهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة
ألسنتهم من الفساد العارض بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم ، ولما جمع
شعراء عصره من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة . ثم
روى ، تأييداً لزعمه ، ان صاحب بن عباد كان يعجب بطريقة الشاميين
التي هي طريقة المختري في الجزالة والعدوبة والفصاحة والسلاسة . انني
أؤيد شيخ نيسابور في زعمه هذا ، وان لم اجد في شعر المختري ناحية
جديدة لم يطرقها الشعراء قبله غير وصف القصور ، وقال ابن خاقان
للأسد ومقاتلة المختري والذئب . لم يجد المختري قيد شعرة عن خطط
القدماء . أدرك ذلك خصمه ابن الرومي فقال في هجوه : عبد يغير على
الموتى فيسلبهم حر الكلام . . . أي أنه صورة مطابقة لهم كل المطابقة .

شاء المختري في بدء اتصاله بالخلقاء ان يكون شاعراً سياسياً ، فشهد
بالخلافة لبني العباس ولكن شهادته جاءت بعد وقتها فلم يؤبه لها . والتفت

الشاعر فرأى قصر الخليفة في زمانه ، كمناطحات السحاب في هذا العصر ، فقال في ذلك شعراً استال به الخلفاء وأعجبهم ، لأن المرء يحب الثناء على بيته ، ولو كان كوخاً ، فكيف به اذا كان قصراً لا نظير له في عصره ، كالجعفري والكامل . وأعجب البحتري وصفه القصور العربية فشاء ان يكون موضوعه بنية فخمة فقصد ايوان كسرى يرافقه اليه ولده ابو الغوث الذي سقاه ولم يصرد . . . فوصف الإيوان ومن بنوه وصفاً رائعاً شكك النقاد في عروبه . لقد فاتهم ان الشاعر عموماً ، والبحتري خصوصاً ، يميل مع الهوى ، وحسبك برهاناً على ما أزعم ان تذكر تنبيهه لو كان سيفه في يده ساعة الفتك بالمتوكل ، ثم ما كان بعد ذلك . فالبحتري ليس من اصحاب المبادئ الثابتة ، انه ككل بخيل يشمر للحاق بالقرش في أوعر السبل ، ويغوص عليه في الحمات . لا يبالي بكرامته اذا كسب . لست اقول هذا لأدعي ان البحتري كان له غنم في وصف ايوان كسرى ، لكن لأدلّ على خلق البحتري ، فالبخل رأس مزايا هذا الشاعر . والمال هو الحكّ الذي تهدي به سفينة البحتري في خضم الحياة . وهل أدلّ على بخل هذا الذي يسمونه شاعر الطيف ، من تحسره على افلات الطيف منه ؟ . . البحتري - أخلاقياً - يصحّ به قول مثلنا : يلحس الفرن على ريحة الكبة . . . كان يمدح ثم يهجو ، ويهجو ثم يمدح ، مهتدياً بالجائزة والامل البرّاق في كيس الممدوح .

كان البحتري بيّاع شعر وكانوا يعرفون منه ذلك فيعشّون به ، ويتنادرون عليه ثم يرضونه ، وكل شيء جائز متى حصلت الجائزة ، وهكذا شأن كل بخيل . سبّ اباة وامه وأنب عنك قرشاً ولو من قروش هذه الأيام ، في الاعتذار اليه ، فقد وصل له حقه . هذا ما اصاب البحتري بعد عبث الصيمري به ذاك العبث الشائن .

فتن البحري معاصريه بسلاسة شعره ، ورنته وسهولته . وقال في قصور
الخلفاء قولاً جديداً فقرّبوه وأذنوه من الحضرة . وصف بركة المتوكل وهذا
الوصف شهير يعرفه كل مطلع ، ثم وصف « الجعفري » فقال في علوه
وشموخه وضخامته :

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت شرفاته قطع السحاب المطر
ثم ذكر المتوكّلية في قصيدة اخرى . قد بلغ البحري في هذا
الوصف قمة الشعر لأن أحداً لم يساجله في هذا المضمار ، فقال في وصف
قصر المعتز :

دعر الحمام وقد ترنّم فوقه	من منظر خطر المزلّة هائل
وكانّ حيطان الزجاج بجوّه	لجج يمجج على جنوب سواحل
وكانّ تفويف الرخام اذا التقى	تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر	ومسيّر ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه	نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق	متلهّب العالي انيق السافل
اغتنه دجلة اذ تلاحق فيضها	عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطّفت	اشجاره من حيّل وحوامل
مشي العذارى الغيد رحن عشية	من بين حالية اليدى وعاطل

فلولا ما قاله في هذا القصر المسمّى « بالكامل » ولولا صورة اخرى
اخذها قلّمه عن ايوان كسرى ، لقلت ان البحري عيال على ابن عمه ،
وعلى شعراء العرب القدماء . فانظر كيف يصف الربيع ، وعد الى قول
ابي تمام :

اناك الربيع الطلق يخال ضاحكاً من العجب حتى كاد ان يتكلّم
ومن وصف البحري لقتال الاسد تدرك مدى خياله متى قابلت

قصيدته بقصيدة المتنبي . ليس عندي زيادة في هذه المقابلة عما قاله ابن الاثير النقاد الفذ ، فعد الى قوله في محله من المثل السائر .

اما وصف قتال الذئب فقد تفوّق فيه البحرى على الفرزدق ، جعل هذا موضوعاً مستقلاً وان بدأه بالغزل والفخر والعتاب ، وختمه بشكوى الزمان . دع كل هذا وابدأ بقوله :

وليل كأنّ الصبح في اخرياته حشاشة نصل ضمّ افرنده غمد
ثم قف عند قوله :

ونلت خسيساً منه ثم تركته وأقلعت عنه وهو منعفر فرد
تجد ان البحرى أحاط بأطراف موضوعه كل الاحاطة ، رسم صورة صغيرة ولكنها ناتئة الخطوط . قد سبقه الفرزدق الى شيء من هذا وتجاوز الوصف الى الاخلاقيات ، اما البحرى فما عناه غير المشهد ، فكأنّه في هذا من جماعة « الفن للفن » .

أذكر ان كاتباً قابل بين ذئبي الفرزدق والبحرى وذئب دو فيني فخلص من بحثه الى ان الشاعر العربي يرمى الى غاية بينما شاعرانا لا غاية ورا* ما قالوا . لقد ضلّ صاحبنا ، فلكل امة تفكير ومرمى . العربي يعنيه ان يقهر خصمه ويقتله ، واذا حصل ذلك فهو البطل الذي ادى الرسالة القومية ، بينما الشاعر الفرنجي يريد ان يجعل من ذئبه مثلاً للنضال العنيف والثبات الشريف ، ولا يحمله على هذا التفكير غير موقف امته من جاراتها .

وبعد فماذا نرى في شعر البحرى من خصائص لم نرها عند من تقدموه ؟ نرى سهولة وشدة في وقت معاً . نرى شاعراً لا يقدم كلمة ولا يؤخر كلمة ، فنظمه كنظم العقد حقاً . قصيدته كالكتيبة مصفوفة جنودها صفّاً لا عوج فيه ولا أمت .

نرى كلاماً مقسماً ، فكل بيت تستطيع ، ان تأملت ، ان تراه جملاً متتابعة كأنها موقعة ايقاعاً . لا زحام ولا تسابق ، تعرف الكلمة دورها فلا تتقدم ولا تتأخر .

نرى شاعراً يكثر من استعمال الأفعال فيتحرك شعره ويهتز ايما اهتزاز . ونرى شاعراً لا تعرقل معانيه سير قصيدته ، فهو يوصف الكلام ، وعلى هذا الكلام ان يؤدي المعنى كيفما اتفق . نرى شاعراً يسير طبعه ولا يخالفه بأمر ، وطبعه يمدّه بهذه الرنة . واذا كانت الشعر رقصاً ، كما حدّده احد الفرنجة ، فشعر البحتري هو « الدبكة » الرقصة المعروفة . وما رأيت أبا العلاء المعري قد تجاوز الحد حين سمى شرح ديوان البحتري : عبث الوليد . واذا كان الشعر كما يزعمون لذة عارضة لا معاني ، فشعر البحتري هو الشعر ، لأنك تخرج من قراءته كالشجرة من العجين ، اللهم اذا استثنينا ما ذكرت لك . والذي يلوح لي ان البحتري لم يقرأ كتاباً من كتب زمانه — وان جمع ديواناً — . مات الجاحظ في عهده ، ونعي الى الخليفة فتلف حتى كاد يبكي على رجل الجليل ، بينا لا نرى البحتري يشعر بموت ابي الأدب العربي ، ولا يعنيه ان يرثي غير مجزيه .

والخلاصة عندي ان قول البحتري في ابي تمام : مدّاحة نواحة ، اكثر انطباقاً عليه هو منه على ابن عمه . في مدح ابي تمام ونوحه عبر منشورة ، وحكم ناصعة ، بينا كل شعر البحتري خالٍ الا من ألفاظ تستلذ منفردة ومجتمعة وان لم يكن تحت تألفها طائل . لا يعني هذا انني اشايح ابن الرومي اذ يقول فيه :

رقى العقارب او هذر البناء اذا اضحوا على شغف الجدران في صخب
لا يا جورجيوس ، ولكنه كالموسيقى تطربك وان لم تقل لك شيئاً تقوله
فيها او ترويه عنها .

رأس ضحنه

نَسَبُ الْمُتَنَبِّي وَهَجَرَتُهُ

«مالي الدنيا وشاغل الناس» كلمة قيلت في أبي الطيب فسارت مع الدهر . ثم انقضى الف عام والناس ، كما كانوا في عهده ، رجلاً ، واحد عليه وآخر معه .

قتلوه بجنّاً وتمحيصاً وما انكشفت لهم صفحته . وكانت ذكراه الالفية ، منذ اعوام ، فاشترك في تمجيدها من يعنون بالادب العربي في الشرق والغرب ، فصدرت كتب عديدة اضمحها كتاب للاستاذ طه حسين - دكتور في الآداب - عنوانه : « مع المتنبي » ، تربي صفحاته على السبعائة ، وهو خمسة فصول وان شئت فخمسة كتب كما سماها الاستاذ . افتتح المؤلف الكتاب الاول بفصل يقع في ثلثي صفحات مآلها ان طه قال كراهاً لصاحبه ان يصطحب المتنبي . ثم خبرنا كيف اخذ ذاك صاحب يعبىء الكتب والدفاتر والكراريس ويرزما ، وكيف نهاه او تقدم اليه في ان يكتفي بأيسر طبعة من طبعات المتنبي . الى غير ذلك من احاديث تعود طه ان يسدّ بها الفراغ ويملاً الصفحات .

ثم يقول لقارئه في الصفحة السابعة : « وقل انه كلام يمليه رجل يفكر بما يقول ، وقل انه كلام يهذي به صاحبه هذياناً . » فقلنا انه كلام بين بين ، يغلب فيه الهذيان على التفكير ، فهو كالليمون اليابس قشره

أكثر من لبه . وهذا شأن الدكتور في أكثر ما يكتب ، يَغْطِ الكلام ويمطّه كالعلكة ، فطوراً تراك امام حسناء فلا تتكرّه ولا تتقرّز ، وتارة تجدك امام عجوز تكره محضرها ، وتسال الله الفرج .

ان طه في صناعة الكلام اقدر المعاصرين على التخيير ، فعجينة يرفخ ويطفطف فتحسب المعجن يمون البيت شهراً حتى اذا مدت الأيدي الى الزاد عرفت ان هذا العيش هشّ » ككرايج حلب » .

ابتدا عميد كلية الآداب بتشريع المتنبي حلّة ونسباً ، فأنكر اباہ وجدّه ، ثم سلّم اخيراً ان المتنبي اباً وجداً فحمدنا الله وقلنا استرحنا ، كما قال البهاء زهير في الشيخ الامام . . . ولكنه عاد الى « عبدان السقاء » والد المتنبي وشرع يتنقل على شجر نسب الشاعر يفلت غصناً ليتعلّق بآخر ، حتى تمسّك بكلمة « الكذاب » ولم يفلتها الا بعد جهد :

ان « الكذاب » الذي أكاد به أهون عندي من الذي نقله فظن ان هذا « الكذاب » يتصل بنسب المتنبي ، وهذا شأن طه في « اكبر ظنونه » كلها كما ستري . ثم ترك أبا المتنبي ليفتش عن امه ، « ولكن الخطب في أم المتنبي أعظم من الخطب بأبيه ، فالمتنبي يسكت عنها كما يسكت عن ابيه ، والرواة لم يذكروها » .

حقاً انها مصيبة كبيرة امتحن بها الأدب العربي أجيالاً وحقباً ، فجاء طه اليوم يكشفها عنه ، جزاه الله خير الجزاء . كيف لم يذكر المتنبي امه ؟ هذه بدعة ! اذن المتنبي لا امّ له . ثم انتقل الى المرحوم جدّه فوقف عند هذا البيت - ليشكّ وليشك فقط :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي امّا فاستنتج ان المتنبي يشكّك في نسب جدّته بعض التشكيك لأنه قال هذا البيت « الذي أملاه الغرور وصاغته الكبرياء » ، ثم قعد يطالبه بذكر

ابي جدته الذي كان اكرم الناس ، فمن هو هذا ؟ وما اسمه ولماذا لم يسمه لنا ؟ الى غير ذلك من تساؤل بارد .

مسكين ابو الطيب ، فهو من طه في جهد جهيد . ان يقل عيِّره بالغرور والكبرياء وان سكت أحرجه ، ولكن المتنبى كالجاحظ عنده ألف جواب مسكت . متى كان الشعر موطن التراجم يا ترى ؟ ان « متى » وحده كتب انجيل السلسلة ، وكثيراً ما تضحكنا قراءته ، فهل مثل هذا ما يطلبه طه من المتنبى ، وهل كنا نصبر عليه لو نظم لنا سيرة تلك المستورة ؟ اما ضقت به يا دكتور لأنه ذكر جده ، وتساءلت من هو هذا الذي كان أكرم الناس ؟

وهكذا يسود طه عشرات الصفحات مفتشاً عن لا شيء ثم لا يظفر بشيء الا الشذوذ الذي رآه في حياة المتنبى فعزاه الى ضعف اسرته . نحن مثلاً نرى في حياة طه شذوذاً - ومن تخلو حياته من شذوذ؟ - فلماذا لا نعزوه الى شيء من هذا ، ولماذا لا نطالبه باسم امه وقد ورد ذكرها مئات المرات في « الايام » ؟ لماذا لا نسأله عن اسم ضيعته ، لماذا لا نسأله عن اسم ابيه - ذكره مرة - بل لماذا لا نسأله عن اسم جده البغيض اليه ، ذاك الجد الذي « صلى ونسك حين اضطرته الحياة الى الصلاة والنسك » ؟ فهل في هذه الاسماء ما يستحي منه ؟ وهل لنا ان نسأله هذا السؤال البليد ؟ ثم هل يكتب المتنبى « الايام » ليخبرنا ايضاً انه كان له عم يغضب وينهره ويلج عليه في تكبير اللقمة ؟ (الايام ص ١٩) . يستظرف هذا في كتاب كالأيام ، ولكنه يقبح في الشعر ، والمتنبى شاعر ما ينبغي ان يفوته هذا . ليست القصائد مثل « مكاتيب المهاجرين » لا ينسى صاحبها واحداً من الضيعة لئلا يعتب عليه ، ولذلك يسلم على الجميع .

اما هذا « الكذاب » الذي شغل بال الدكتور فما الذي يدل على انه

يتصل بالنسب ، ولماذا لا يكون شيئاً من تلك الوشائيات التي كانت تغمر قصور الامراء ؟ ففي اعقاب هذا البيت ما يشير الى ذلك . واكبر ظني ، كما يعبر طه ، ان المتنبّي يقيم الأم فهو يتألم من هذا اليتيم ويذكره ويتوعد الناس به :

كأنّ بنينهم عالمون بأنني جلوب اليهم من معادنه اليتما
واكبر ظني ايضاً ان المتنبّي لم يترك الكوفة لضعفه نسبه او لغمرة فيه بل أراد صبيّاً نجيباً طمّاحاً هاجر ككثيرين من شعراء العرب ، تاركاً في الكوفة تلك الجدّة التي كانت له جدّة وأما . فرافقته ذكراها في هجرته ولم يذكر امه لأنه لم يعرفها . اما هجرته فكهجرة طه نفسه من الريف الى العاصمة . اما نكباته فسببتها له نفسه الوثابة ، وعند طه من ذلك كل الخبر . فلماذا يتلمس هذه الاسباب ، أليدرس المتنبّي على ضوءها ؟ فلندع « تين » مستريحاً في قبره .

يطلب طه اليوم من المتنبّي ان يكون نسابة كخلف الاحمر ، كما طلب امس من امرئ القيس ان يكون جغرافياً كابن بطوطة ، واذا لم يفعل محاذيره . فلو كان امرؤ القيس وصف القسطنطينية كما اراد طه فمن كان يروي لنا هذا الشعر والرجل مات في الطريق ، ثم أهو خليّ ليقول شعراً في وصف القصور ؟

هكذا يتنطق طه وهكذا يصدر احكامه ، ولولا انه يضلّ القراء ويشغلهم في تعابيره التي يركب بعضها بعضاً كالجراد ، لما قلنا شيئاً ، ولما نظرنا في كتابه « مع المتنبّي » فحظه الفني فيه ضئيل جداً .

يقف بنا طه عند ميمية المتنبّي في رثاء جدته ويسألنا ان نقرأها « قراءة المستأنّي المتمهل الذي لا يمر بالشعر مرّاً ، والذي يشغله الجمال الفني عن التماس نفس الشاعر » ، فقرأتها مطيعاً ، ثم وقفت لأسمع ما يقول

قال طه كلمة لو أمعن فيها لما طالب المتنبي برثاء امه . قال : « ان اختلاف المتنبي الى المدرسة العلوية لا يدل عندى على امتياز ولا استثناء ، انما يدل على الاتجاه الدينى الذى وجهه اليه ، ويدل على ان الذين كانوا يكفلون الصبي كانوا من الشيعة العلويين . »

فهذه « الكفالة » التى زعمها تنفى ان يكون مولده اثرأ من آثار ذاك الفساد العباسي ، كما ان تلك الجدة النبيلة التى قال فيها ابو الحسن محمد ابن علي العلوي : « وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها ، وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات » ان هذه الجدة تخلع على ابي الطيب شرفاً ، وهو لا يسقط من عيني اذا فقد هذا الشرف ، وتم لطفه ما لم يجرؤ على التصريح به .

ان حياة فجرها فقد الأم ، وضحاها موت الاب ، تربد آفاقها ويسخط صاحبها على الناس فيراهم كأنهم اسأؤوا اليه ، ومن فقد حنو الأم فقد شيئاً كثيراً . الى الغرائز والى هذا نغزو شذوذ المتنبي .

هذا تمهيد طه لدرس شعر المتنبي في صباه — وبجذر عظيم منححه العروبة ، مع ان الاميركان يمنحون جنسيتهم مهاجراً عربياً قضى خمس سنوات في بلادهم ، وقد يكون هذا معازراً . اما ماذا ظهر للاستاذ بعد هذا البحث فثلاث خصال : ١ — الصبي مقلد في الفن الشعري ، ٢ — ان شعره شعر صبي متشيع للعلويين ، ٣ — ان هذا الشعر شعر صبي لم يكن بعيداً كل البعد عن امور القرامطة . ثم أضاف خصلة رابعة ، وهى ان هذا الصبي كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم للهجاء . وهنا يتفضل عليه طه بشيء من الثناء فيقول : « وكل هذه الخصال تدلنا على ان الصبي قد كان ممتازاً حقاً ، فليس قليلاً على صبي لم يكن يتجاوز العاشرة ان يقول شعراً يروى . »

اني اعجب للدكتور كيف مرّ بهذه « السن » مطمئناً ، ولكن طه
بك يشكّ ساعة يستحلي ، ويصدّق ساعة يريد . اما شعر المتنبي ، في هذا
الدور ، فشعرٌ نغل ، يدل على ان « الصبي » يصير شاعراً ، وانه دارسة
كتب حفظ شعراً كثيراً طبع على غراره ، فلا تشيّع الآن ولا قرمطة
بل تلك اخلاق صبياننا المتمرنين أتمتها روح شعرائنا القدماء الذين رأوا
الموت على الفراش عاراً وسبّة ، واما مدح المتنبي قرمطياً او علوياً فلا
يعني انه تقرمط ، ولكننا سنماشي طه ، وشرط المرافقة الموافقة .

شعر الصبي

تناول طه البيتين اللذين افتتح بها ديوان المتنبي :

بأبي من وددته فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولاً ولما التقينا كان تسليمه عليّ وداعا

وأغرق في شرحها فسوّد صفحة لشرح فكرة الصبي ، واخرى لينتقد تعبيره ، واستنتج بعد اجهاد الفكرة « ان الصبي أراد ان يقول « أحبته » فلم يستقم له الوزن ، والتمس . . . فلم يجد الا « وددته » هذه .

قلت : لو سمع المتنبي لقال للدكتور ما قاله لابن خالويه في ذلك الزمان : اسكت ، ليس هذا من علمك . استغفر الله ، فطه لا يجهل العروض ولكنه نسيه . أما قال في « الأيام » انه نظم ؟ . . أليس له في القصر المسحور منظومة على الشين ؟ . . قل هذه غلطة ، وجلّ من لا يغلط .

والذي عندي ان ابا الطيب لم يقل « أحبته » ، وهي لا ترجع الميزان لو وضعها ، خوفاً من ان يحصى في رعية ابي نواس . . . وهو يربأ بنفسه ان يرعى مع اولئك . رأى وددته احسن حالاً ففضلها وزالت الشبهة . اما لماذا أحب طه هذين البيتين فللناس فيما يعشقون مذاهب ، وهذا لا يعنيننا . ثم انتقل الى الابيات الثلاثة : أبلى الهوى اسفاً يوم النوى بدني ، فقال فيها ما قاله في البيتين الاولين ، واعترض على « اسفاً » زاعماً انها كلمة اتت لتقيم الوزن ليس الا . فردّ عليه صديقه العقاد وأرشدنا الى

معرفة الكلمة النابية فقال نفعا الله « بضوابطه » التي كنا نقرأ مثلها في كتب الحساب العتيقة :

« وعندنا - اي عند عباس محمود العقاد - ان الطريقة المثلى لتحقيق الكلام الذي تجيء به ضرورة الوزن ان تحذف الكلمة وتنثر البيت وتنظر بعد ذلك الى قوة المعنى او قوة الاثر ، فان بقيت للمعنى قوته وبقي له اثر ، فالكلمة المحذوفة حشو لا موجب له غير اقامة العروض . فهل « اسفأ » في الشطرة التي عابها الدكتور من الكلمات التي يصدق عليها هذا القياس ؟ لا نظن . » (هلال مارس ٥٤١)

قلت : ان دلّ هذا الكلام على شيء فعلى اخراج العقاد خرائده الخالدات من خدرها ، وعلى مقاييس النظم والفن عند الاستاذ الجليل . . . فهل « اسفأ » الزائدة الدودية تحتاج الى لجنة اطباء ؟ ويرى طه ان المتنبي وفق الى شيء من الموسيقى اذ جمع بين الهوى والنوى . قلت : لو قال المتنبي مثلاً : أبلى الهوى اسفأ يوم النوى شغفأ او سففأ ، ماذا كانت فعل الدكتور ؟ كان رقص بلا شك . ثم تخطى الى البيتين اللذين قالهما الشاعر في « وفرته » :

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة يعدّها في كل وافي السبال

وينشغل طه في هذا الكلام « الملتهب شوقاً الى الحروب ورؤية الدم المسفوك » ثم يتساءل : أفل كانت الوفرة التي استحسنت له وفرته هو ؟ او هل كانت الوفرة وفرة ترب من اترابه في المكتب ؟ وبما انه ترك لنا حق الفهم نقول : ان الوفرة وفرة المتنبي لا غيرها ، والشرط الاخير موجه الى شيخه الذي استحسنها ، وفوق كل ذي علم عليم . . . ثم وقف طه عند هذين البيتين ليعيّنهما دليلاً على القرمطة ويشتمّ فيهما

ريحها ، ولكن هذا بعيد .

وانتقل الى أبياته في « الجرذ المستغير » فرأى - وقد أصاب - ان
في هذه الايات الاربعة سخرأً لاذعاً وخصوصاً في البيت الاخير :
وأيّكما كان من خلفه فان به عضّة في الذنب

اما ان المتنبي يلوّح فيها الى احوال القرامطة كما توهم الدكتور
فهذا بعيد جداً . وأقرّ طه المتنبي بالسخر فقال : « فلن ترى سخرية أذع
من هذه السخرية ولا هجاء أمضّ من هذا الهجاء . » ثم أنكر عليه السخر
في مصر لا شيء الا مخالفة الأقدمين . ونظر في هجو المتنبي للقاضي الذهبي
فرأى ان هذا البيت :

سمّيت بالذهبي اليوم تسمية مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب
مطبوع على غرار ابي تمام . والحرب مشتقة المعنى من الحرب . وان
الصبي يتجه بعض الاتجاه الى مذهب ابي تمام ، وهذا ما سنعرض له جملة لا
تفارق لأن الاستاذ حوّم حوله كثيراً .

اما خروج المتنبي الى البادية فلا يدري طه « أرّحل يستفيد علماً
وصيحة ام ارتحل اليها التماساً لهذه البيئة القرمطية » ، ثم لا يقطع بشيء ويرى
« ان رحلته افادته من الناحيتين : ربا جسمه ونما عقله وفصح لسانه ،
وتعلّم اصول القرامطة وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معاً » . اننا
ننكر تعلمه اصول القرامطة ، ونسلم بعرفته مذاهبهم كما يعلم الطلاب
العصريون ما يعلمون عن باريس . فما خرج المتنبي الى البادية الا ليسنى
له القول :

أنّام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاهها ويحتصم
وحتى يقول فيه ابو علي الفارسي ما قاله . واستدلّ طه على قرمطة
المتنبي بقوله :

الى اي حين انت في زي محرم وحتى متى في شقوة والى كم
والا تَمَّتْ تحت السيوف مكرماً تمت وتقاس الذل غير مكرّم
فشب واثقاً بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم
فقدّبت هذه الأبيات ظهراً لبطن لأظفر منها بدليل على هذه القرمطة
المزعومة فما فتح الله عليّ بشيء . ما اخال المتنبي قرمطياً الا في
مشيته . . . فان رضي طه بهذا فقط اتفقنا . اما هذه الأبيات التي نفت
من رأسه كل شك فما أرثني انا الا شاعراً يمدح رجلاً بما يجب ان يمدح
به فقال له :

يا ايها الملك المصفى جوهرأ من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيّه فتكاد تعلم علم ما لن يعلم
وهذا في نظري كقول ابن هانيء لواحد من هذه النحلة :
ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
فماذا نفعل بهؤلاء القرامطة ؟ هكذا يعتقدون . كلهم آلهة تمشي على
الأرض . اما الحاد المتنبي في هذه الأبيات وغيرها فلا شبهة فيه ، وقد
أصاب الدكتور بقوله : « وهذا الكلام وحده صريح في انحراف المتنبي
عن الجادة الدينية ، واندفاعه الى هذا اللون من ألوان الفلسفة التي هي
الى الاتحاد أقرب منها الى أيّ شيء آخر . »

ان شعر المتنبي ، في كل طور من أطوار حياته ، يدلنا على
شكوكه ، ولكنّ هذا غير القرمطة . المتنبي صبا الى ما هو ابعد منها
فلماذا نضيّق عليه ؟ هبّ اننا اكتشفنا هذه القرمطية فهي لا تسوى
قرشاً سورياً يا دكتور . المتنبي أوتي عقلاً حراً طليقاً وعرف مذهب
ديكارت قبل وضعه ، وقبل اعتناقه له في الأدب . المتنبي مشكك وليس
الشك للعوام ، تدرّج تدرجاً فدغدغ العقائد في داليتيه وسينيتيه - والاتحاد

لا يضير الشعر كما قال صاحب يتيمة الدهر ، منذ الف عام - ثم وقف في
البائية موقف المناق فقال : تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الخ . . .
واخيراً صرّح من بعد تهادر فقال :

تبخل ايدينا بأرواحنا على زمان هنّ من كسبه
فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجسام من تربه

فقل معي يرحم الله سليمان الحكيم القائل قبله : من رأى روح الانسان
صاعدة الى فوق ، ومن رأى روح البهيمة نازلة الى تحت ، باطلة الاباطيل
وكل شيء باطل . وعلى القرمطية السلام .

ان الجزء الذي يستهلكه الضمير من عقولنا يبقى سالماً عند النوابع وهو
الذي يقوّي تأليفهم . والمتنبّي من هذا الضرب فليكن هذا النور هادينا في
درسه . اما اذا صح مذهب فاليري في النصوص ، والدكتور يجمع وراء
هؤلاء ، كان طه على حق ، وكان المتنبّي قرمطياً ، علوياً ، اسماعيلياً . . .
يرى فاليري « النص اشبه بألة التصوير يستطيع كل واحد ان يستعملها
حسب ذوقه وحسب طرقة » . ولكن لا تنس ان فاليري ابو الاغاليط ،
وان هذا المذهب قد ينطبق على شعره ، ثم على شعر مقلديه من الرمزيين
المنحطين الذين صيّرُوا الشعر كالطبل . . . اما عندنا فلسطين وشقّ انمار
اكبر حظ من مذهبه هذا . وكأني بالمتنبّي كان « فاليرياً » يوم سئل كيف
تقول : بادِ هواك صبرت او لم تصبرا ، فاجاب : اسألوا الشارح ، أي
ابن جني .

ويعود طه القهقري ليتناول « أهلاً بدار سباك أغيدها » والذي يقوله
فيها كأكثر ما سيقوله في شعر الصبي . وهو يلخّص بكلمتين : طباق ،
مبالغة ، وان زاد على هذا فتنافر الحروف الذي يعبر عنه بالفأفة ،
والقفقة ، والدأداة ، وقس البواقي ، كما يقول النحاة . لا يخرج في كل

هذا عن الدائرة التي رسمها الجرجاني صاحب الوساطة بقوله : « وانا أرى لك ان كنت متوخياً العدل مؤثراً للانصاف ان تقسم شعره - المتنبي - فتجعله في الصدر تابعاً لأبي تمام ، و... الخ » ثم يؤيد ابن الاثير هذا الرأي فيقول في مثله السائر : « اراد المتنبي ان يسلك مسلك ابي تمام فقصّرت عنه خطاه . » وعلى هذه الطريق المعبّدة تمشّى طه حتى جعل الطباق قريباً وبعيداً . (ص ١٠٨)

قال المتنبي في هذه القصيدة واصفاً نعله :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدا
شراكها كورها ومشفرها زمامها والشروع مقودها
فيرى طه كما رأى الثعالبي فالكعبري ان هذا من قول ابي نواس :
إليك ابا العباس من دون من مشى عليها امتطينا الحضرميّ الملسّنا
ولم يدرِ الثعالبي والكعبري ، وطه في آخر الزمان ، انه لا اخذ
هنا . فكلنا نمشي وكلنا نتعل ، وشتان ما بين القولين . فحذاء ابي
نواس جورب نبيل ، حضرميّ ملسّن كالخف الاحمر الذي كان يلبسه
المشايع وكان سبب ثورة كسروان سنة ١٨٥٨ . اما نعل المتنبي فمداس
مقطّع . واذا فرغنا من امر هذا المداس نرى ان وصفه النجلى عن حقيقة
تاريخية عرفها طه وهي ان المتنبي جاء بغداد ماشياً . . . والعهد بطه
اخرجه من الكوفة داعية قرمطياً . كأنني اسمع ابا الطيب يحتج علينا قائلاً :
قفا قليلاً بها علي فلا اقلّ من « جحشة » ازودها
واذا كان الاستنتاج كما رأينا فلماذا لا يستنتج الاستاذ من هذا البيت :
اشدّ عصف الرياح يسبقه تحتي من خطوها تأودها
ان المتنبي يقلد الشنفرى ويسرقه وهو يريد ان يحصى في العدائين
والصعاليك ؟ . .

والقصيدة بوجه عام في نظر طه كشعر القدماء في التفكير ، وكأني تمام في التعبير ، فاصاب في الرمية الاولى واخطأ في الثانية . ورأى ايضاً ان القصيدة « تنحدر انحداراً يوشك ان يكون عنيفاً ، والسبب هذا البحر الذي تظهر فيه السرعة والانحدار ، ثم القافية الدالية وهي قوية متينة ، والهاء المطلقة تصور الرحب والسعة » . نعم ان هذه الهاء تصور شيئاً من ذلك وتقتضينا فتح فم كما قال الخليل لبنته ، ولكنها كثيراً ما أتت معلقة بالبيت كما تتعلق بعض الهنات بذب الهز فتروكضه . جعل طه كل وكده في هذه القصيدة فأدرك ما ادرك . لم يفقه الا الذي تعمده فيها المتنبي وهو ربح البداوة ، فهذه الالفاظ : خرعوبة ، وقردد ، وربجلة ، وجحججاج وغيرها من بضاعة البادية . يعرضها الشاعر اظهاراً لعلمه وفنه ، وما عليه لو خبط فيها قبل ان يبلغ الشام ويمتلك الذوق — لا تنس هذه الكلمة .

واستدل طه على شيء آخر له قيمته التاريخية « فالشاعر لم يمدح رجلاً من رجال الحكم وإنما مدح رجلاً علوياً ، وانه محتفظ بمذهبه السياسي ، اي القرمطة » . ارأيت هذا البرهان ، لا ادري كيف يصل هذا الشاب الى رجال الحكم ليمدحهم ؟ اما رأينا الشعراء قبله يقفون سنين بباب الامير ولا يدخلون القصر ؟ ولكن توهم القرمطة لبس على الاستاذ مسالكة وكأنه لو وجدها ملك البصرة . ان العناد الادبي يضل الاستاذ كثيراً ، وربك يهدي من يشاء . وبعد هنية ينسى الاستاذ ذاك المذهب السياسي فيرجع خلافاً لما ظن بلاشير ان اقامة المتنبي في بغداد لم تطل ، وانه لم يمدح العلوي الا ليستعين بنائله على الرحيل ، والدليل عنده على قصر الاقامة ان المتنبي لم يصف « المشاهد التي شهداها في دار السلام » .

كثيراً ما يتوكأ الاستاذ على هذه الحجة في مهامه الانكار ، ولكنها خيزرانة لا تصلح الا للهش . ان بضاعة الوصف لم تنفق في ذلك العصر ،

والمتمني هدف ، فهو لا يدنو الا بما يصلح مستنداً له . ثم يرى ان المتنبى كان شاعراً دوّاراً لا ينقصه الا رباب ، يمدح حتى الاوساط والفقراء . اوحى الى الاستاذ بهذا قول صاحب اليتيمة « يمدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركي والعندليب » وليس هذا مضمون كلام الثعالبي . ثم يرى وهذا أغرب الآراء : ان الشاعر كان يجعل هذا المدح وسيلة لتبيين استعدادهم للقرمطة ، وهو يعيش في الحالين بما يأخذه منهم اجراً .

ويبلغ الشاعر سوريا ، حافياً او منتعلاً او راكباً لا ادري ، فلم يوح الى الاستاذ بشيء من هذا ، ولكنه عدّد لنا من مدحهم ليقول : ان المتنبى لم يذكر البحري ، حين مدح الطائين احفاده ، لأنه يعين في قراءة شعر المحدثين وأدب البلغاء ، ويدعي مع ذلك انه لا يقرأها ولا يحسن العلم بها ، حتى اقتضح في ذلك كما جاء في الصبح المتنبى . الجواب على هذا : من منكم بلا خطيئة فليوجمها بحجر .

وبلغ مدح مساور فقال : « ويرى الاستاذ بلاشير والدكتور عزام انه لم يمدح مساوراً الا في وقت متأخر بعد موت محمد بن رائق ، والذالية تؤيد هذا الرأي . ولكنني مع ذلك اميل الى ترجيح ما قدمته ولعله مدحه مرتين . » (ص ١٠٤)

قال ابو علقمة : كان اسم الذئب الذي أكل يوسف رجحون . فقبل له : ان يوسف لم يأكله الذئب ، وانما كذبوا على الذئب ولذلك قال الله عز وجل : وجاؤوا على قميصه بدم كذب . قال : فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف . فطه يريد ان يكون له « قول » ولو مثل قول ابي علقمة الجاحظ .

ها قد اشرفنا على قصيدة قتلها القدماء درساً وشرحاً ومطلعها :
أحيا وايسر ما لاقيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا

قال طه في اول كتابه انه اخذ معه ابسط نسخة من ديوان المتنبي ،
وانا ازعم له ان شيخنا العكبري زار في « المعية » جبال الالب . فاكثروا الاشياء
التي رأيتها في « مع المتنبي » تثبت ذلك ، فهل اخرج ان شككت ؟
اليس طه يبيح الشك ويريدنا عليه ؟ فهذا الاتفاق أكد لي ان طه هياً
الرفيق قبل الطريق ، ولهذا رأته في كتابه هذا مكبراً فوتوغرافياً ، او
رساماً - بالقلم الرصاصي - أخذ في نقد المتنبي بأقوال العرب ، وفي تاريخه
يقول بلاشير وجبريلي . اما النقد الذي حاوله شخصياً فما صح منه نادر ، الا
الذي من باب الطباق وتنافر الحروف والمبالغة وغيره من الهينات . . .
اليك مثلاً قوله في « أحيا وأيسر الخ » قال : « دار المتنبي حول هذا المعنى
ولم يستطع ان يؤديه الا في شيء من التكلف فاصطنع هذا الفعل - أحيا -
في اول البيت . » فماذا يضر الابتداء بهذا الفعل ، أنكرة هو ؟ ولا
يجوز الابتداء بالنكرة . . . ام قيل لهذه اللغة الدرب الدرب فلا تحيد
عنها ؟ أنريد تعابيرنا كالحدود ، فالحدود ، وهي من وحي الله ، تغيرت
بتغير الزمان والمكان . فاذا كان الاستاذ يحظر الابتداء بهذا الفعل
فليفترض همزة كما افترض القرمطية . أتسقط السماء على الأرض لو أسقط
المتنبي هذه الهمزة ؟ وينتقل طه الى الشطر الثاني « والبن جار على ضعفي
وما عدلا » فينتقد القافية ويرى انها « عتلت الى مكانها عتلاً » . اننا
نحيله على العكبري ففيه كلام من تمثّل لها بقوله تعالى : اموات غير
أحياء . لماذا ينقل طه الطعن ويترك البراءة ؟ ويصل الى « شيب الكبد »
والى « الطفل الذي ما سعل » فيكرر اقوال الموتى في هذه الأبيات التي
هي من الخمس الدون من شعر المتنبي . وقبل ان أدع هذه القصيدة أحب
ان اعرض عليك نموذجين من نقد طه الفني .

قال المتنبي :

بما بجفنيك من سحر صلي دنفاً يهوى الحياة واما ان صددت فلا
قال طه : « فستنكر هذا الاستحلاف الذي يفجأك بهذه الباء تليها باء
اخرى لا يفصل بينهما الا هذا الموصول ، وهو حاجز غير حصين ، كما
يقول النحاة . ثم اقرأ البيت فسترى قصوراً في الاداء لم يستطع الشاعر
ان يخلص منه فاضطرّ الى الحذف والى الاضمار ، فهو يريد ان يقول
لصاحبه : صلي دنفاً يهوى الحياة ما وصلته ، فأما ان صددت عنه فلا
يهواها . »

ألا تعجب معي لهذا الذوق ولهذا العلم ، بل لشيخ أزهرى كالأستاذ
قبل ان تدكتور ؟ ألم يقل العرب : خير الكلام ما قلّ ودلّ ؟ أليس
الايجاز خصلة عربية بدوية في الملبس والمسكن والمأكل والمشرب والكلام ؟
فكيف لا يرى هذا « الاكتفاء » الذي عدّوه من ضروب البديع ، ثم
يرى السجع ، وهو آخرها ، فيستحسنه ويسمع موسيقى ساحرة حيث يلائم
المتنبي بين كلاب وتراب وجناب ؟
ويقول المتنبي :

لولا مفارقة الاحباب ما وجدت لها المنايا الى ارواحنا سبلا
فيحتج طه على الاضمار قبل الذكر ثم يقول : « وانا اعلم ان هذا ليس
خطأً ولست اذكره لذلك ، وانما اذكره لاضع يدك على الجهد الذي
يبديه الصبي في اقامة شعره . »

وهناك امر آخر انا اذكره لك بالنيابة عن الدكتور وهو زيادة صفحة
في الكتاب ، وآية ذلك قوله بعد ان بيّض احدى عشرة صفحة في نقد
قصيدة هي من رديء المتنبي : « نحن لا نخرج من هذه القصيدة بشيء
ذي غناء . » قلت : ما دامت هذه حالها فلماذا نفسها هذا النفس ، ألينتقم
من قرائه يا ترى ؟

وانتهى الى « ارق على ارق » فمضى فيها حتى بلغ قوله :

« أبني أينما » نحن اهل منازل ابدأ غراب البين فيها ينطق

فظن ان الشاعر يعني بني ابينا قومه القحطانيين - وهذا آخر الآراء في العكبري - فأكد هو أن المتنبي يعني ذلك لان الهجرة من طبعهم والغربة معروضة عليهم . وهكذا قضى على القرمطية التي جعلها سبب هجرة الصبي . عظم الله اجر طه في هذه القرمطية التي أقضت مضجعه ، والذي عندي ان مرام المتنبي هو الوعظ ، فكلنا أبناء آدم ، ولكنه وعظ بليد . ولا يكف طه عن الطباق ، والطباق في كل كلام الناس ، فلو قلت : أكل وشرب ، ونام وقعد ، وطلع ونزل ، لا يبعد ان يراك طه تقلد ابا تمام ، ولهذا نترك الطباق وطه وشأنه فيه . . .

واستغرب طه كيف يبكي المتنبي على شباب لم يفارقه حيث قال :

ولقد بكيت على الشباب ولدي مسودة ولماء وجهي رونق

حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بقاء جفني اشرق

فقال : « واكبر ظني ان الشاعر يتكلف التعليل هنا كما تكلفه حين ذكر لومه للعاشقين واعتذاره بعد ذلك عنهم . »

قلت : لا اكبر ولا اصغر يا استاذ ، هذا ضرب في الرمل . . .

فبكيت هنا لا تؤدي اكثر من حسرة تمر كثيراً في رؤوسنا فتؤلمنا كنكزة عارضة في الشرايين . هذا الذي لمح الشاعر العظيم فسجله ، وقرائح الشعراء الكبار كتلك العدسات التي تصور ابعاد النجوم ، وما اقل الشعراء الذين يلحون الشبهات .

وينتقل الى السينية « هذي برزت لنا » فيبرز لها وتبرز له فيورى فيها

سفاسف اطفال ، وكذلك هي ، فالشعر الذي ينظر فيه طه حصرم

فج . وينتقل الى السينية الاخرى فيراها كأختها . ويستكين المتنبي

قليلاً ويأكل ، في طرابلس ، حلواً مصنوعاً طَرَفًا (يظهر ان السوريين يحسنون اصطناع هذه الحلوة واهداءها من قديم) فيراه طه فارغاً لصغائر الامور لأنه وصف هذه الطرف الحلوة . قد تكون اول مرة لقي فيها المتنبي ضيافة سابعة ، وأطعم شيئاً حلواً ، فأية كبيرة ارتكب ان قال شعراً في ذلك ؟ ولماذا نتشدد في اطراء شعر ابن الرومي حين يقول شيئاً من هذا ؟

ونمرّ عَجَلاً فنصل الى رثاء التنوخي اولاً وثانياً وثالثاً فيقف بنا طه عند هذا البيت :

ليس عجباً ان بين بني اب لنجل يهودي تدبّ العقارب
وانما وقف عنده — كما قال — ليضع بازائه هذا البيت :

فلا تسمعنّ من الكاشحين ولا تعباّن بمحك اليهود
فيتساءل طه عن هذا اليهودي كأنّ هناك يهودياً حقيقياً . . . وترافقه الفكرة في الكتاب فيعمل من الحبة قبة ، كعادته ، ثم لا يحزم بشيء ، وهذا شأنه في دراساته ، فهو يبني ويهدم كما كنا نفعل صغاراً في بناء العلامي والقصور حول بيوتنا .

اما هذا اليهودي الذي يسأل عنه فلا يبعد ان يكون ذلك « التائه » الذي لقطه اوجين سو ، فيما بعد ، فاقضّ خياله مضجع الآباء اليسوعيين . فليسترح بال الاستاذ ليريحنا من مشاكل عديدة كهذه ، فأقلّ ما يقال فيها انها توافه . . .

طه بن بادشاه و ماسينيون

ويبلغ طه بالمتنبي باب التنوخين فيذكر انه مدح احدهم علياً بثلاث قصائد مطلع اولها :

احاد ام سداس في احاد ليلتنا المنوطة بالتنادي

ويسأل القارئ ألا يقف عند مطلعها السخيف الغامض . ويحشي كتابه لينبئنا باكتشاف جديد في علمي الحساب والفلك . . . وهو ان العالم ماسينيون فسر هذا « الجفر » الذي حير المتقدمين والمتأخرين ، فرأى ، نفعا الله بعلمه ، ان حاصل احاد ام سداس في احاد سبعة ، وقد فسرهُ المتنبي في البيت الذي يليه :

كأن بنات نعش في دجاها خرائد سافرات في حداد

فهذا العدد - كما حدثنا طه عن ماسينيون - رمز لبنات نعش . ويقول طه في اكتشاف ماسينيون هذا : وهو رأي اقل ما يقال فيه انه طريف (ص ١٤٥) . قلت : فلنضم اذن هذا الطريف الى تليد ميراثنا الادبي ، ونعلم قتياننا ان يتوغلوا هكذا في مجاهل التفكير مقتفين آثار جهابذة العرب والعجم . . . فيا ليت شعري اذا كانت هذه طرافة فمن يقول لي كيف تكون السهاجة والبلادة ؟ اننا نعوذ من هذا الهذر بشيخنا الشدياق فالجواب عنده . وقد رأى قبلنا غرائب المشرقين وعجائبهم في تفسير ادبنا العربي فنّبه اليه منذ قرن . قال رحمه الله :

« لما حان الذهاب الى برستول مررت باكسفورد وقصدت ان ارى خزانة الكتب فيها ، فسألت بواب المدرسة عن شيخ العربية ليهديني لها . . . ثم بعد طول بحث ومعالجة اهتديت الى دار الشيخ - الاستاذ - فقابلته وسألته ان يريني المكتبة تفضلاً وتكرماً . فأجاب الى ذلك وسرنا معاً . واول كتاب فتحه كان بالخط الكوفي ، واذا في اول الصفحة « ألا » فقرأها « ألا » وفسرها الله ، فتعجبت كيف الخدع فهمه لسمعه ، لانهم جميعاً يلفظون اسم الجلالة مرققاً هكذا . وسألني مرة استاذ آخر : أتعرف لماذا دلت « في » على الظرفية ؟ فقلت : لا . قال : لأنها مشتقة من الفم الذي اصله فوه . وهكذا يخمّنون ويخرّصون على معاني المفردات والمركبات في لغتنا .

وهاك مثلاً على علم هؤلاء الاساتيد وعلى شرحهم كتبنا تطفلاً ، فتصور مثلاً شرح استاذ اكسفورد لبيت ابي تمام :

همة تنطح النجوم وجدّ ألف للحضيض فهو حضيض

فيقول الشيخ بلغته : النطاح مختص بالحيوانات التي لها قرون كالثور والتيس والوعل ونحوها ، وقد ذكر في التوراة مرات كثيرة ، ويمكن ايضاً ان ينسب الى ما ليس له قرن ، فقد روى ليناوس ، الذي قسم جنس الحيوان الى سبعة اقسام ، ان الحيوانات الجماء تتناطح بجباهها ، وقد اطلقت العرب اسم الكبش على آلة من آلات الحرب ، لأنها تنطح الجدار . و « النجوم » معروفة وقد كانت العرب تهتدي بها في اسفارهم قبل ان عرفت خاصية ابرة المغنطيس ، ولما كانوا مشغولين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في اوروبا من يشمّ لها رائحة - وهنا نترك تلخيص استاذ اكسفورد لتاريخ الاندلس في هذه المناسبة - وينتقل الى « ال » التعريف في النجوم في شرحها في اللغات

الآخرى ، ويتناول النون في النجوم حيث اختفت « ال » التعريف مع الحرف الشمسي فيخبر عن ناموس وتاريخ نيوتن - اقرأ كشف الخبايا ص ١٢٦ اذا احببت التفككة تامة فانا لا أنقل هنا الا ما يمس موضوعي - ثم يقول : اما قوله : جدّ آلف للحضيض . الحضيض هنا معناه الارض من تسمية الكل باسم الجزء ، ووروده في التوراة كثير . وفحوى البيت انه ، اي المدوح ، ذو عناية بالارض اي بحرثها واحياؤها ، وانشاء المدن فيها وتسوية الاحكام بين اهلها ، لأن الارض كثيراً ما تذكر ويراد بها سكانها ، وذلك ايضاً مستفيض في التوراة حتى ان المدوح صار خصباً وارضاً لقاصده . هذا اذا لم يفهم الحضيض الحديد ، فيكون التفسير غير هذا . ويختم الشدياق كلمته بقوله : وهكذا يمشي على انعكاس البيت بهذا العصد هو وتلامذته . وبعد انقضاء ساعة ونصف على تأويله يقومون وهم سامدو الرؤوس ، عجباً وفخراً ، ويظنون ان شيوخ الجامع الازهر والاموي والزيتونة هم دون هذا النحرير « اه .

قلت : وكذلك هي حالنا اليوم - في النصوص - مع اكثر علماء الغرب ، فانهم ينطحون جدران ادبنا متوهمين انهم اتوها من الابواب . لا ننكر انهم صاروا احسن مما كانوا في عصر شيخنا الشدياق ، ولكنه ينقصهم فتّ خبز كثير حتى تشتدّ سواعدهم ويرموا صائباً في هذه المواقف التي قصرت فيها فحول العرب .

وان رأى طه - وهو الاستاذ الكبير - سفاسف ماسينيون شيئاً طريفاً ، ولم يجرؤ على تسفيهه ، فستوى منه اكثر ، فاصبر وانتظر ، ها هو ينتقل الى القصيدة الثانية التي مطلعها :

ملثّ القطر اعطشها ربوعا والا فاسقها السم النقيعا

ثم الى الثالثة ومطلعها :

احقّ عافٍ بدمعك الهمم احدث شيء عهداً بها القدم
 فلا يرى في هذا الشعر الا « جزالة اللفظ ورصانته ، وصحة المبني
 واستقامته ، واعتدال الاسلوب وحسن انسجامه » (ص ١٤٤) . اما الخطوة
 الواسعة التي جراها الشاعر فما تحسبها طه . لم يشعر قط ان المتنبي يثور
 بالاقدمين ولا يزال في صفوفهم ، وهو يتبهاً للانفصال عنهم حين تواتيه
 الفرصة . انشغل طه عن كل هذا بمذهب الشاعر السياسي فرآه هنا « اعم
 من القرمطية والتشيع » فقلنا اهتدى الاستاذ . ولكن شيطان القرمطية المرید
 يعود فيوسوس له فيقول : « وانا اعتقد ان الفتى اخفى قرمطيته بعد انهزام
 القرامطة » (ص ١٥٥) . وتعاود النوبة الاستاذ حين يصل الى الدالية « كم
 قتيل كما قتلت شهيد » فيرى ان المتنبي يسخر ويستهزئ حين يقول « هنّ
 فيه أحلى من التوحيد » وانه قد أثم في هذه القصيدة ، اما انا فازعم
 لظه انه هو الساخر الهازيء هنا لا المتنبي .

ويبلغ طه « ضيف ألمّ برأسي غير محتشم » فيجد فيها ضالته بشياتها
 وسماتها ، فيحسب ان المتنبي قرمطي لانه يقول :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم
 فهذا ما يفعله القرامطة ، فهم لا يصلون وقد ذبحوا الحجاج في الحرم ،
 اذن المتنبي قرمطي .

لقد حان ان نودع هذه القرمطية الوداع الاخير ، ونرمي آخر حجر
 في قفاها . زعم بلاشير ان المتنبي عارف بأصول القرامطة واستدل على
 زعمه بهذا البيت : شيخ يرى الخ . فجاء طه الذي اعتمد على بلاشير في
 تاريخ الشاعر فقال ان المتنبي قرمطي لا شك فيه ، وهذا حق . اما هكذا
 تنمو القصص وتكبر حين تتناقلها ألسن الرواة ؟ واذا لم يزد طه على
 بلاشير فماذا يكون فعل ؟ ايترجم فقط ؟ ..

اما انا فاعجب لهذين الاستاذين بلاشير وطه حسين ، كيف عاجلا المتنبى ولم تظهر لهما شخصيته ، فعلاها باسـط الاشياء كالقرمطية مثلاً .
يقول طه : « ولكن اقامة المتنبى في طبرية قد كشفت عن ناحية من نواحي ملكته الشعرية لم تظهر في شعره السابق ، وهي قدرته على الوصف وبراعته في تصوير الطبيعة . » ثم يسرد عشرة ابيات من « أحق عافٍ » في وصف بحيرة طبرية ، منها :

والموج مثل الفحول مزبدة تهر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها للجم
كأنها والرياح تضربها جيشا وغى هازم ومنهزم
يشينها جريها على بلد تشينه الادعياء والقزم

كان يجب ان يفهم طه - اذا لم يفهم بلاشير وماسينيون - من شعر المتنبى كله ، ومن هذه الابيات التي وقف عندها ، ان للمتنبى هدفاً ظهر في شعره منذ صبوته فلا يعالله بهذا الغرض السخيف : القرمطية .
للشاعر فكرة تسيطر على كل شعره ، صيلاً وشاباً ومكتهلاً ، لا تحول ولا تزول ، فكأنها الله الذي علمني جدّي انه موجود في كل مكان حتى في جهنم . هذه الفكرة تظهر في شعر المتنبى كله حتى في غزله وراثته وذكر الحمر . خذ اية قصيدة شئت ، وراقب اية منظومة تقع امام عينيك ، فان لم تجد ما قلت لك فانا اقطع عيني .

فאי دليل على القرمطة في شيخ يرى الصلوات الخ ؟ اهانك غير ذلك الحادث التاريخي ؟ ولماذا لا يكون المتنبى نفسه هذا الشيخ ؟ اهذا بعيد عن لحيته ؟ اتعصمه تقواه ؟ . ان المتنبى يستغل كل شيء ويستخدم كل فكرة مهما سمت وقدسها البشر ليخضعها لفنه ، ليس يعني أحسن ام اساء ، فخطيته بوقته واثمه على نفسه . انما العجب من اثنين مسرف ومقتصد :

طه ، وبلاشير ، كيف يتنازعان دليلاً اوهى من شعرة معاوية . رحم الله الجاحظ ، اليس هذا الزعم اشبه « بأنبياء النحل » صلوات الله عليهم ؟ خبرنا ابو عثمان قال : « زعم ابن حائك وناس من جهّال الصوفية ان في النحل انبياء ، لقوله عز وجل : واوحى ربك الى النحل . وزعموا ان الحواريين كانوا انبياء لقوله عز وجل : واذا اوحيت الى الحواريين . وما خالف ان يكون في النحل انبياء بل يجب ان تكون النحل كلها انبياء لقوله عز وجل على المخرج العام : واوحى ربك الى النحل . ولم يخص الامهات والملوك واليعاسيب بل اطلق القول اطلاقاً الخ . »

اننا نرفع هذه النكتة الجاحظية الى مقام عميد كلية الآداب ولا نعلق عليها شيئاً ولكننا نتمثل في مملكتنا الادبية بقول ابي الطيب في السياسة :
وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
فلنتق الظلع خلف هؤلاء المستعربين لئلا تضرب علينا المسكنة في
الادب والسياسة معاً .

هوس وعفوية

ويبلغ الاستاذ قول المتنبي :

أيّ حلّ ارتقي	أيّ عظيم أتّقي
وكل ما قد خلق	الله وما لم يخلق
محتقر في همّتي	كشعرة في مفريقي

فيقف عنده ليقول : « ان الشاعر تجاوز كل حد ممكن ، وان الخلفاء والامراء حبسوا غير شاعر في القرون الاولى لأمر ايسر جداً من هذه ، وان الاثنين قتلوا سقراط لأمر ليست اشدّ مما تورط فيه المتنبي . » يقول هذا ليذهب مذهب أعمى المعرفة الذي ينفي دعوى النبوة عن « الشاعر » زاعماً لنا انه اخذ بهذا الاحاد . اما انا فما رأيت ابياتاً كهذه تفتح باب السجن في دولة تتفكك وتنتثر كأعضاء الابوص . ولكن حماقات المتنبي مجتمعة اذ يرى نفسه كالمسيح وصالح ثمود ، وهذه الثورة الصاخبة كالتنور المسجور تغري الحاكم بتأديبه خوفاً على الكرسي لا على السدرة . . .

ما رأيت المتنبي في « اي محل ارتقي » الا محموراً حرارته فوق الاربعين ، او كالمصروع في الهلّة . ولكنه جنون كالعقل يُستملح ويُستحب لهذا الاطار الفني ، وكم صورة يجمّلها اطارها . في دماغ المتنبي ظلمات مذهمة لها عندنا الف يد تخبر ان المانوية تكذب ، ولاجل هذه الاشعة المنفلتة ،

لأجل هذه الابيات المجنونة واشباهها اكاد اجزم ان في دماغ ابي الطيب
 ناحية خربة ، بل اتصور دماغه دنيا فيها العامر والغامر ، وفيها الربع
 الخالي والحرّات ، فهو تارة ينزلنا بوادٍ غير ذي زرع ، واخرى عند
 جنات تجري من تحتها الانهار ، وفيها من كل فاكهة ازواج ... اتصور
 دماغه كقرص عسل فيه نخاريب مقطّنة ، ونخاريب عامرة فيها دواء
 للناس . وقد يكون هذا النقص الذي عبّرنا عنه بالجنون - ولا
 نعني جنون ذاك الذي يراشق بالحجارة - سبباً للكمال الفني الذي جلس
 المتنبي على عرشه يمثّل المهازل ، وكَم في المهازل من عظة وحكمة ...
 الا يلذّ لك صراع هذا الشاعر المهوّس مع « الدهر » ؟ فهو غريمه
 لا الناس ، ألم تره كيف يمثّل الدهر بشراً سوياً ليطالبه بدينه ، ويركب
 كتفيه ، فهو يجدّ في أبشع هوسه ، ويستعدي عليه كافوراً بقوله :
 ويا آخذاً من دهره حقّ نفسه ومثلك يُعطى حقه ويهاب
 لنا عند هذا الدهر حقّ يلطّه وقد قلّ اعتاب وطال عتاب
 ارأيت كيف تموج الحياة تحت قلم الفنان ؟ الا ترى المتنبي يتحدث
 كأنه جادّ فتكاد تقول معه : آهاً منك يا دهر ، يا أكرّال الحقوق ! ..
 يا كافور احجز متاعه ، وسلّط عليه ابا الطيب يتصرف به تصرف المالك
 المطلق ... ان حماقات المتنبي الكثيرة مكّنت منه حساده واعداءه
 فادعوا عليه ما شاؤوا . ولو لم ترافق دعواه الشبهات لظل ناعم البال
 يحرق ويبتهر . لا اخال المتنبي يحب مملكة الروح ، فهو لا يؤمن بغير
 مملكة اللحم والدم ، ولا يؤلّاه غير العقل ، وبهذه الاداة حاول ان يسود
 فحبطت مساعيه وكان الأدب اسعد حظاً . لم ينط به كافور ضيعة او
 ولاية ، فشكراً لأبي البيضاء وعاش الخصيّ فقد أسدى الينا جيلاً عجزت
 عنه الفحول البيض ...

ما لنا وللنبوة فهي حكاية لا تنفع ولا تضر ، وقلما تلامس فن
الشاعر ، وهو غير باكٍ عليها ، فما آلمه الا الحية ، الا هذا الدهر القليل
الدين ، فقد ماطله جداً واكل اخيراً حقه . . . فعاش ومات منحوس الطالع
كما قال :

أبدأً اقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود
اما اليأس فما عرف الى نفس شاعرنا سيلاً ، فكأنه المصارع لا يسقط
حتى يقوم ، يعالج هذا الحرمان بهذا الشعر المزرقّ اللهب فينفّس عن
ذاك الوعاء المسلّح فلا ينصدع ولا ينفجر بل يقول :

كذا انا يا دنيا فان شئت فاذهبي ويانفس زيدي في كرائها قدما
وكأن وهمه يتحقق في آخر الايام فيرى الدهر شخصاً يتنفّس
مثله ، وانه هو شجا في حلقة فيهتف :

ما اجدر الايام والليالي بأن تقول ما له وما لي
وكفى الله المؤمنين القتال . ما رأيت المتنبي الا رباباً - واجلّ قدره
عن الطبل وان كان التشبيه انصب - تريدك انيناً وانغماً ما زدتها
مسّاً وجسّاً ، فهو ومنيته كبولس الرسول القائل : لا حبس ، ولا اضطهاد ،
ولا جوع ، ولا عري ، ولا ملوك ، ولا سلاطين ، ولا قتل ، ولا موت
تفصلني عن محبة المسيح . او كما قال ابن القدوس :

والشيخ لا يترك اخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
فانه لم يترك هذا الحمق الذي نغبنه اذا قومناه بالشيع والبدع ،
فلولاه ما كان لنا هذا الفنان المهووس ، ما كان لنا شاعر ضجّ من طول
عمره الأبد . . .

ويصف طه حيرة المتنبي بعد الحبس فيجيد ، ولكنّه يلتهي بزبورج
الكلام ، فينقض ما زعمه سابقاً عن اسباب خروج الصبي من الكوفة

فيقول : « وفيما يعود الى الكوفة بائساً معدماً وقد خرج منها يبتغي الأمل والغنى . » ثم تهجس القرمطية في صدر الدكتور فيقول فيها ما يقول ، أما نحن فقد طلقناها ثلاثاً . ويأتينا ببرهانه على وحشة المتنبي ومناجاته الأسود حين قال : « اجارك يا اسد الفرايس مكرم » فينبئنا انه متأثر بامرئ القيس والفرزدق لأنه خاطب هذه الأسد كما خاطب الذئب . ويسأل طه اسئلة لذيدة ! كقوله : أسمعت الاسود لغناء هذا الشاعر الحزين ؟ لست ادري . ولكن المحقق انها لم تحفل به الخ . (ص ١٩١)

ويطل على « دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا » التي ختمها المتنبي ببیت يدلنا على انه ما لان ولن يلين كما توهم طه :

فالموت اعذري والصبر اجمل بي والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

فيشتغل طه بتاريخها ليرى غير ما رأى بلاشير . ويمر على « فؤاد ما تسلية المدام » كالبرق الخاطف فلا يلم بتطور الشاعر فيها وفي اختها « أفاضل الناس أغراض لدى الزمن » بل يهرول الى « لك يا منازل » وغيرها حتى يبلغ « أركائب الأحباب ان الادمعا » فيقول في هذه ما قاله في غيرها ، اي انها « مدح متصل متشابه معاد لا تجديد فيه ولا تغيير ، وان الشاعر ينهج نهج ابي تمام ، واذا ظهرت شخصيته من حين الى آخر فانما تظهر في اوقات العنف الذي ليس بعده عنف » . وانما قال : « ليس بعده عنف » ليوهمنا ان المتنبي لا يأبى الضيم . ولكن طه ادرك الآن بعض ما كان يجب ان يدركه ، ويضع يد القاريء عليه ، ويستغني عن تلك الجمل المرصوفة التي لا تغني شيئاً .

لا شك ان الشخصية كالحياة الكامنة في البراعم ، فهي لا تتفتح الا اذا احتضنتها أمنا العظمى . فهذا العنف او هذا الاستفزاز هو ابو الشعر الخالد . وبالقدح تبعث النار .

ثم يتساءل طه عما ينقص المتنبي لينبغ ، فيرى انه ينقصه شيئات :
 عيشة راضية وبيئة مثقفة . اما انا فأراه قال احسن شعره في خالتي الأمل
 والألم — لا أدري اذا كان الاستاذ يتهمني بجناس ابي تمام — فلا البيئة
 المثقفة ولا العيشة الراضية قولناه شعراً . قوله الشعر الرائع هذان الصاحبان
 — الأمل والألم — اللذان لم يفارقاه ساعة . اما البيئة فقد فعلت كثيراً
 في شعره ، وسنؤدي حسابها جملة للاستاذ الجليل لأنه يعرض لها بشيء من
 المكر ، وما أحلى التمثّل بقول عبد الملك للاخطل : ما اخرج هذا منك
 يا ابا مالك ، الا خطة في رأسك .

ويخرج طه مع المتنبي الى طبرية فيرى انه وجد عند بدر بن عمار
 الحياة الهادئة — ومن يقول ان هذا الاعصار يجب الهدوء؟ — والبيئة
 المثقفة التي لم يجدها في سوريا . . . فوثب فنه . ثم تناول بنقده المعهود
 « امن ازديارك في الدجى الرقباء » فمغط شرحها ما اطاق واطاقت ، ورأى
 ريح الصوفية تعبق من اردانها . وأعجبه « الطعنة النجلاء » وتهلل لاشراك
 الشاعر ناقته والليل في التفكير والعمل ، ولكني لا أدري كيف نسي
 ان يقول ان المتنبي يقلد عنقرة في هذا . ويبلغ طه هذا البيت :

فليت تسد مسدداً في نيّها اسأدها في المهمة الانضاء

فيرتمي فوقه كما يقع صبي على لقطة ، ولا حاجة في نفس طه الا
 الدلالة على التكرار . وقد دهشت لغفلته عن الطباق في هذا البيت :

انساعها ممغوطة وخفافها منكوحة وطريقها عذراء

افلا يجد ذاك الطباق — البعيد على الاقل — بين منكوحة وعذراء ؟
 قد يكون انشغل عنه بالمبالغة ، ولكنه انصف الشاعر ولم يخف اعجابه
 ببعض هذه القصيدة .

وهنا يطالع علينا طه ببدعة جديدة في تقويم الفن ، وهذا شأنه كلما

سمع شعراً خفيف الخطى ، او رأى تصريحاً كما سترى ، فانه يتأول تأويل مضحكة . رأى في « احلماً نرى ام زماناً جديداً » ان الشاعر باصطناعه هذا البحر المتقارب كأنما هو عجل يريد ان يغلب الامير على التفكير والروية فهو يرميه رمياً سريعاً جداً ، ولكنه ان غلب الامير فلن يغلب طه كما يقول . ثم يغالط الدكتور نفسه ليرينا المتنبي ذليلاً فيعكس على المتنبي معناه بقوله لبدر :

طلبنا رضا بترك الذي رضىنا له فتركنا السجودا
فيقول : « ولو ان بدرأ طغى على نفسه وعلى الناس وخرج عن طوره ، ورضي من المتنبي واشباهه ان يسجدوا له لما تردد المتنبي فيما ارى . »
ان شعر المتنبي واخباره الماثورة تنفي ما قال وسيقول طه في هذا الصدد . واني ارى الدكتور فهم السجود بمعناه الكبير ، وليس هذا الذي يفعله الشعراء للأمرء ، ولكن المتنبي يأباه في حالتيه ، وما رأيته هنا الا ممتنعاً عنه ، فتغدى الامير قبل ان يتعشاه ، وكان لبقاً كئيباً . . . اما ما عقبه طه على هذه القصيدة فلا يتعدى المبالغة والطباق .
وهنا لا بد لي من كلمة جاء وقتها والا فما عذري عند قرائي ؟ ان في شعر المتنبي لعشاق المبالغة وتراكب الحروف مرعى لا يجف ، ومعيناً لا ينضب . وفيه للعبقريه سماء ما طاولتها سماء - اللهم في الشعر - فالمتنبي كالصبي النابغة يدهشك ذكاؤه وفهمه ، ثم لا تلبث ان تراه يتمرغ بالتراب ارضاء لصوته . هو كالمنجم تبر وحصى - كما نظم حافظ قول هيفو عن نفسه - . انه ظلمة كثيفة قليل امرى القيس ، ولكنه كعارض الأعشى في حافته شعل .

ونصل الى لامية الاسد فيعجب بها الاستاد ويعدها آية ، غير انه ينعى على الشاعر الانحراف الديني لقوله :

لو كان علمك بالاله مقسماً في الناس ما بعث الاله رسولا

لو كان لفظك فيهم ما انزل القرآن والتوراة والانجيل

وهذا النعي نقبه من غير طه ، إلا اذا كان يريد الاحتكار « فليست الديانة — كما قال الثعالبي بعد الاخطل — عياراً على الشعراء ولا سوء المعتقد سبباً لتأخر الشاعر . » ولكن طه تجاوز عن هذا السخف للشاعر ، والعفو حلو عند المقدرة ، في سبيل الوصف الرائع للاسد . وقد سرده بيتاً بيتاً واثني عليه بقوله : « هذا كلام يمكن ان تنظر فيه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال وروعة وترى فيه فتوة وقوة ما أرى إلا ان الشاعر قد استعارهما من نفسه وخلعها على ممدوحه . » (ص ٢٢٩) — لا تنس هذه الكلمة فساعتها قريبة — وهنا احس طه بمقدرة الشاعر الفنية اذ رآه يجمع الوصف المادي والمعنوي للبث ، والحكم والامثال ، فحمدنا الله على ذلك .

وعرض طه لسخط بدر على الشاعر ، واستعطاف المتنبي له ، فما شرد هذه المرة ولا ندّ بل لم يتمحل لذلك اسباباً عجيبه ، فعزا ذلك الى كيد القصور والى جهل الشاعر مصطلحاتها وآداب الملوك ، واستعلائه على اصحابه . عند الامير .

ويقر المتنبي الى جرش ويقول فيها قصيدته الخالدة « لا افتخار الا لمن لا يضام » فيحسن الدكتور كل الاحسان تحليل الساعات التي حبلت بها وانتجتها . ولكنه ضل ضلالاً بعيداً بل فهم بالمقلوب اذ ظن المتنبي يقولها لانه ذل ، فما هو يترك « بدرأ » وسوف يترك بعده الشمس والليل . . . ففي قوله : لا افتخار الا لمن لا يضام ، فخر امرئ ما رأى فوق نفسه من مزيد ، وادلال رجل واحد على العالمين ، ومعاذ الله ان يقر المتنبي الذل في نفسه وان يعينها بقوله — كما توهم طه :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام
وفي قوله بعد هذا جلاء الشك والريب :

أقراراً الذّ فوق شرار ومراماً ابغي وظلمي يرام
دون ان يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقفا والشام
يلذ لي ان اقرئك ما علّقه العكبري على شرح هذا البيت الاخير ،
قال : « المعنى » يقول : « لا الذ قراراً دون ان تشرق هذه المواضع
بالرماح وان املاً البلاد بالخيّل والرجل واقتاتل الملوك وأخذ بلادهم .
ولعلها كانت لآبائه فاعتصبت منهم . وهذا من حماقة المعروفة ، ولا بد له
في كل قصيدة من هذا . »

ولست اقول شيئاً في الاسلوب الرومنطقي الذي اصطنعه الاستاذ
ليحدثنا عن الشاعر وشيطانه ، فاقراً تعلم ان طه يعبت كما انذر في اول
كتابه . ثم يعرض لاتصال الشاعر بالاخشيّد او بعامله فيخالف بلاشير
ويبزه ، وهذه جسارة نشكرها له ونعرفها به ، انما على غير الافرنج ،
فراي طه هنا امثل من زعم بلاشير « ولو قد لقي المتنبي الاخشيّد - كما
يقول الدكتور - لما قصر في ذكر ذلك والافتخار به ، والموازنة بين
الاخشيّد وبين مولاه كافور ولا سيما حين غضب على كافور . » (ص ٢٧٠)
ويتصل المتنبي بابن طعج في الرملة ويمدحه بقصيدته :

انا لائمى ان كنت وقت اللوائم علمت بما بي بين تلك المعالم
فيعترض الاستاذ على ألف « انا » بقوله : « فانظر الى هذه الألف التي
أثبتها في الضمير اول البيت ليقم الوزن . » قلت : هذه الألف يجوز حذفها
وما جاز حذفه لا يمتنع اثباته . ثم يعود بنا الى المجانسة بين لائم واللوائم ،
اما نحن فقد فرغنا منها ومللنا عرض هذه البضاعة في سوقنا . ويتخطى
الى نقد حذف المضاف فيقول : « كان عليه ان يقول : ان كنت وقت

لوم اللوائم . « فليعرفني الاستاذ سمعه دقيقة لا غير : ان طبع المتنبي وعلمه يابيان عليه حشر المضاف والمضاف اليه في هذا المضيق وهما من لفظ واحد ، فاكتفى بهذا الظرف الذي ينجده على الاضافة . ومثل هذا أوجب النحويون حذف اسم لات وما أشبهه . فأنا أحمد لأبي الطيب هذه الفطنة والجرأة ، وأود ان يظل باب الاجتهاد مفتوحاً فتقاس الأشياء على اشباهها . فهذا الحذف يدل على علم وذوق معاً يستحق لأجله المتنبي أجزل الشكر .

ثم يذكر طه هذين البيتين :

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسن في اجسامهنّ النواعم
ويبسمن عن درّ تقلدن مثله كأنّ التراقي وشّحت بالمباسم
فيقول : « قد وجدا من يعجب بها اعجاباً شديداً ، اما انا فلا ارى هذا التشبيه الا اغراباً ينتهي الى السماجة . » قد نكون على رأي الدكتور فيها ولكن : تلك امة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما يفعلون

ويرى طه ان المتنبي قد صقل بعد ترك « بدر » وثقّفته الحوادث فصلاح للمنادمة ومعاشرة الملوك والأمراء ، غير انه انتقد عليه شعراً « يغضب الله ويغضّ من المروءة ، ويصوّر لنا استهائته بالدين وتلوّنه » لقوله :
وأوضح آيات التهامي انه ابوكم وأجدي ما لكم من مناقب
قال طه : « وواضح ان أبهر آيات النبي التهامي انما هو القرآن لا ابوتّه للعلويين . » أفلا يغفر لي طه اساءة الظن ؟ ان نضاله عن الله ، عزّ وجلّ ، ورسله عليهم اشرف الصلاة والسلام ، يريني جداً .
وأخيراً بعد كتابة ثلاثمائة صفحة أدرك طه او كاد ان المذاهب السياسية عند المتنبي وسيلة لا غاية . قلنا ان المتنبي بشر مثلنا رغم انفه ،

وشعرة مفرقة تلك

وأناخ الدكتور بكله على القصيدة التي على الزاي وليس فينا من يستخف قافيتها وتطربه موسيقاها ، وان آخذنا الاستاذ فلائنه لم يذكر اولها بخير ، وهو وصف قدّ للسيف لم نقرأ مثله في الشعر العربي . أفلهو دائماً بالجرار والعكاز والوجوه والأعجاز لنذكر الطباق ؟ أنكون في نقدنا كالمريض لا يصبّ سخطه الا على العضو الضعيف ؟ فليس المتنبي كهؤلاء الذين ننقدهم ونتمنى ان نرى لهم حسنة ننوّه بها . فحسانه ، والحمد لفنه ، ملء السهل والجبل . فليته انتقد واحدة منها لنستطعم حديثه الفني . اما هذه الضعيفات الهزليات فقد نسل صوفها لكثرة ما رازتها أيدي النقاد متقدمين ومتأخرين . فأين الأستاذ من خرائد ابي الطيب يدخل خدرها ويهتك ستورها ، فهي لن تقول له « انزل » ولو مال العبيط . . . أفلا يدلنا على ومضة من بوارق ابي الطيب ؟

وعلى ذكر هذه « الزائية » يطالعنا برأيه في الشعراء والقوافي فيقول : « ان فيكتور هيفو كان يجمع قوافيه ويهيكها قبل ان ينظم شعره . . . » الى ان يقول : « وما أظن الا ان الشعراء جميعاً يستعرضون ما قد اتيها لهم من القوافي ليختاروا منها لا ليحكموها في انفسهم وفي اذواق الناس . » (ص ٢٩١)

لا هذا ولا ذاك يا استاذ ، فالشاعر لا يركض وراء قافيته كما يركض المعاز خلف عنزته الشاردة ، بل هي تأتيه ليحلها محلها ، وكل قافية يرفعها الشاعر على مقعدها تقف كالمظلوم صاحبة داعية أبد الدهر . ويمدح المتنبي فارسياً ويثني على قومه ، قبل الاسلام ، وفي ظله ، فيخيل الى طه انه شعوبي . ان هذا كقولنا بشعبوية البحتري لاجل وصفه الايوان ، وكقولهم بشعبوية ابي نواس الهازي المستهتر لانه قال :

لا در درك قل لي من بنو اسد ، ومن تيم ومن قيس وعند طه ان الشاعر « لم يستطع ان يرقى بفنه وهو لم يستطع ان يعيش عيشة الشاعر المنتج المرتقي بفنه شيئاً فشيئاً الا في كنف الاشراف والسادة والامراء كأنه النبت الطفيلي لا ينمو ولا يزهر الا في ظل الشجر الضخم المرتفعة في السماء . »

لقد تخيلها اعظم من « نبعة » الاخطل واطول من سلم يعقوب ، فركب من مراكب الغلو ما لم يسخر لأمين ابي نواس . وبعد فماذا تطلب من شاعر في ذلك العهد ، وماذا تريد ان يفعل ؟ فما رأيت المتنبي يسمو في مصرع اسد طبرية لانه بلغ رجلاً منظوراً يلي الحكم ، بل لان للفن ساعات واوقاتاً ، وان شئت فقل للفن فلتات . قد يخلّق الشاعر ويسفّ في موضوعين متشابهين ، وقد يؤثي سحر البيان في ليلة تعقبها شهور واعوام تعقم فيها القرية ، وان انتجت فلا تنجب .

وأية فعلة فعلها المتنبي اذا وصل او حاول الوصول الى امير كبير ؟ وهل يبلغ الى ذلك غير النبوغ ؟ انعيّره بمدحه الرعاع الطغام حتى اذا بلغ القصر وصار اميراً كالامير نقول انه طفيلي ؟ ما كان القصر في ذلك الزمان غير وظيفة ، ومن يعيّر رجلاً بوظيفته وانتاجه في ظل قصر ؟ افلا يعيننا الناس اذا قلنا ، مثلاً : لم ينتج طه حسين الا في ظل الجامعة المصرية حيث كان له جراية فأمن واطمان ؟

وقبل ان يبلغ ابو الطيب قصر سيف الدولة يمدح ابن عمه ابا العشائر بقصيدة على الشين ، وهاك ما قاله طه في وصفها لتدرك ما يضره للشاعر من بغض ، فكأنه قاتل ابيه :

« وكأنه في ذلك الوقت كان مشغولاً بشوارد القوافي فأثر لقصيدته قافية الشين ، وخضع لمثل ما خضع له في زائيته من الذل والصغار أمام تحكم

القافية الصعبة . « فهل رأيت نقادة يلصق الذل والصغار بشاعر لانه ركب
القافية الصعبة ؟ وهل للشاعر في هذا اختيار ؟ لا اظن . يذكرني هذا
الذل والصغار قول دعبيل الخزاعي في ابي تمام : ولعله سرقه . . .
وينبوي طه لهذه الشينية المسكينة فيحدثنا عن الشائسة والحأاة ليس
غير ، وما اكثر هذا - كما قلنا سابقاً - في رديء ابي الطيب وقد فرغ
منه صاحب وغيره من احباب شاعرنا . . . وهذا ما نمرّن عليه اليوم
طلاب الفصاحة فلا ينبغي ان يهم استاذاً كبيراً كالكتور .
وينتقل الى « أتراها لكثرة العشاق » فيقفز قفز السيارة اعترض
طريقها خط حديدي ، وما فعل هذا الا ليدلنا على اشيء تعود ان يحسها
ولا يملّ تكرارها . ثم يعود الى اللامية التي اتخذ ابياتها برهاناً على
اظلام نسب المتنبي ، وهذا قد فوّدناه سابقاً .

النبات والشعر النصفي

ها قد بلغنا حلب فخبّرنا الدكتور « ان المتنبي في سيف الدولة ديواناً خاصاً يمكن ان يستقل بنفسه ، وهو ان جمع في سفر مستقل لم يكن من اجمل شعر المتنبي. واروعه واحقه بالبقاء ، بل من اجمل الشعر العربي كله واروعه وأحقه بالبقاء . »

فلو ترك طه هذه « المن » كان اقرب للتقوى . فالطيب من شعر المتنبي لا مثل له في ديوان العرب ، وان شئت ان تعبّر كالمجتزين فلك ان تقول : نسيج وحده . . . ثم نظر طه في انقطاع المتنبي الى سيف الدولة فقال : « فلنلاحظ هذه الظاهرة في نفسها والقياس الى شخصية المتنبي الخ . » ثم خرج من هذه الملاحظة يرى « في هذا الانقطاع تناقضاً غريباً بين رأي المتنبي في نفسه وسيrote بين الناس اذ كان ينزل عن نفسه لكل امير اتصل به . » واخيراً تطوَّح في هذه الصحراء فقال : « واغرب من هذا ان سيف الدولة لم يشغل المتنبي عن غيره من الامراء والملوك فحسب ، بل شغله عن الشعر الخالص . »

اما التناقض بين رأي المتنبي في نفسه وسيrote بين الناس فقد لمسناه في كل قافية قالها فلا حاجة الى التخمين ، وبحسبنا بيته المشهور : ومن نكد الدنيا على الحر . . . ولكن هذا لا يعني ما يريد طه ، فليس في ديوان المتنبي بوهان واحد على نسيانه نفسه وبيعها من الدلال ، وهو لو فعل لاستراح

واراح الدهر . ولكن الطبع غلب التطبّع فمات المتنبي شهيد نفسه وقيل فيه : كان من نفسه الكبيرة في جيش . . .

ويضرب الدكتور مثلاً على انشغال المتنبي عن الشعر الخالص ابا نواس الذي اتصل بالأمين وظل يقول الشعر في الحمر والوصف والهجاء . يا سبحان الله ، كأن قصيدة المتنبي لم تحو شيئاً غير المدح ، وكأنما النفوس سواء ، لتقابل بين سكير مستهتر رعديد ، وبين بطل زميت عرفه الليل والحيل والبيداء . . . ثم ما هو الشعر الخالص ؟ وكيف يكون « هذا الشعر من أروع الشعر وأحقه بالبقاء » ولا يكون شعراً خالصاً ؟ لا ادري . اعلى الشاعر ان يقول في كل غرض ، وهل لم يقل ابو الطيب في كل غرض ؟ فماذا يضير هذا الشعر ان كان ذيله مدحاً ؟ بل لماذا لا يكون المدح شعراً خالصاً اذا كان كمدح المتنبي لسيف الدولة ؟ ان كتاب طه هذا كتب « عن سابق تصور وتصميم » كما يعبر رجال العدل ، وطبقاً لهذه المادة سنحكم ان شاء الله .

فكل ما رأيت من الاغاليط يتوسل بها طه ليقول : « فهذا كله يدلنا على ان المتنبي كان يتخذ الشعر وسيلة لا غاية ، وعلى انه كان عبداً للطمع والمال لا للجمال والفن . » المال يغري ليس في ذلك شك ، ولكن أكل من يكتب ويقبض يكون عبداً للمال ؟ أكل من انحاز الى حزب فعاضده يكون عبداً ما وظف له من رزق لا عبد الجمال والفن ؟ . . فأحر بالمتنبي اذا كان عبداً للمال ان ينام على الضيم عند من أنعل افراسه بنعماء عسجداً ، والا يقول للأسود : اذا لم تهني ضيعة او ولاية . . . ولو كان لا ذمة له لما رعى عهد اميره الأول وحن اليه بقوله : خلقت أوفاً . . . وكأني بعظام ابي الطيب تتحرك صارخة :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم انا الثريا وذان الشيب والهرم

لست اعني الا هذا العيب الذي يريد الدكتور ان يلصقه بالشاعر
 ذاهباً مذهب مبغضيه في الامس الدابر ، لا تلك الشائسة والفأفة التي
 أعرض عنها المحدثون فجاء طه يلهو بها ويلعب ، او كما يعبر القدماء
 يعيدها جذعة فينقد بعض قصائد لا تثبت على المحك .

وسرعان ما يرجع طه عما قال - وهذه مصيبي به في هذا الكتاب
 فكأنه لا يهتم الا بنفخه كما يفعل الزيات بالزق - فينقض ما ابرم بقوله :
 « فما نفقده من حرية المتنبي في فنه تعوضه علينا عبودية المتنبي لسيف
 الدولة ، ان صح هذا التعبير . » لا ، لم يصح ، فالعبودية لا تصلح
 للمتنبي بحال ، فمن لم يكن عبد ربه لا يستعبده بشر .

ويصل الى وصف المتنبي للجهاد بين الروم والمسلمين فيحدثنا كأننا
 نجمل « ان المتنبي لم يخترع هذا الباب ، فقد قال فيه ابو تمام والبحري
 ولكنه أنماه وقوّاه » ، ثم يثني على شعر المتنبي ويميزه من شعر صاحبيه
 تمييزاً صحيحاً حتى يقول : « ونحن نستطيع ان نفهم عجز الاستاذ بلاشير
 عن ان يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي ، فجسسية الاستاذ واختلاف
 مزاجه وطبعه واخشى ان اذكر دينه ايضاً ، كل هذا يجعل تأثره بهذا
 النحو من شعر المتنبي قليلاً ضئيلاً . »

قلت : للجنس والطبع تأثيرهما ، اما الدين في هذا الزمان فما أراه
 يفعل ما يخشاه الدكتور ، واننا لنقرأ قول المتنبي : وبنى السفين له من
 الصلبان ، فلا ثور كبطرس الناسك . . . ونمرّ بقوله : واذلّ دينك
 سائر الاديان ، معجبين بشاعر يحس الامير وجنوده وشعبه . أما ما
 اجمده صراحة ، الآن وكل اوان ، فهو فهم هؤلاء المشرقين لنصوص
 الادب العربي فهماً كاملاً ، وخصوصاً هذه التي شرحها اربعون عالماً منا .
 اما الدكتور عزّام الذي قدّم هذا الفن من شعر المتنبي على الشعر

القصصي القديم كله ، فقد لا يخلو من غلو . قال عزّام في كتابه الرصين
« ذكرى ابي الطيب » ص ١١١ :

« وقصائد الحروب كلها وهي ثمان عشرة قصيدة في واحد وسبعين
وسبعماية بيت ، يبلغ فيها المتنبي الغاية التي ليس بعدها متقدم لشاعر او
ناثر . . . ان هذا المقدار من الشعر الحماسي البليغ في ديوان الشاعر العربي
لا نظير له في الالباءة والشاهنامة ، واحسبه منقطع النظر في الانباز
الرومانية ، والمهايهوتا والرميانا الهنديتين . وهي - يعود الضمير الى الثاني
عشرة قصيدة ولو بعدت - اروع شعر حماسي . »

اذا مزجنا رأي عزّام برأي حسين كان لنا رأي معتدل ، وفي كل
حال ان لم يكن المتنبي فوق هؤلاء فهو مثلهم ، وهذا لا يسدّم به طه ولو
اعطيته ملء الارض ذهباً ، فالاجنبي عنده خير من البلدي : ولكن لا
ننس ان لعزّام حق الحكم في الادب الفارسي فهو من اختصاصه ، اما
يونانية طه فاتخيلها كيونانية الحوري بسترس ، وفوق كل ذي علم عليم . . .
ويقابل طه بين المتنبي وابي فراس فيجد كل الاجادة في تميز هذا من
ذاك ، ويعزو فتور شعر ابي فراس الى قصر منبج . والذي عندي انها
النفس ، فهي التي جعلت شعر ابي فراس ينوس نوساً كرقاص الساعة .

ويخشى طه ان يخدع القارئون لهذا الفن من فنون المتنبي عن انفسهم
بعض الشيء فيظنوا ان هذا الفن هو القصص كما نجد في الالباءة واشباهها
من آيات الشعر القصصي القديم والحديث ، وقد خدع الاستاذ بلاشير نفسه
عن هذا الشعر ، وعن الشعر الحماسي كله فسماه قصصاً .

ان طه لا يرضى ولو قال الف بلاشير ومليون عزّام ، اما قال هو
ليس في الادب العربي شعر قصصي ، فكيف يكون الآن ؟ واليك حجة
طه : « ان المتنبي لا ينسى نفسه لحظة ولا بعض لحظة - تذكر قوله انه

باعها - وانما هو يذكرها دائماً حين يغرق في وصف سيف الدولة . «
 قد يفتك احدنا بثعلب يا استاذ ، فيصوره للناس غولاً انياه زرق ،
 ويظل يحدث الناس عن فتكته تلك حتى يلاقي ربه ، فكيف تريد ، من
 شاعر بطل كالمثني يعمل سيفه في رقاب الاعداء ويشاطر اميره مر الجهاد
 وحلوه ، ان ينسى نفسه ؟ ارأيت انه ليس عبداً كما توهمت ؟ فمن فمك
 ادينك . ان العبد هو ذاك الامير - ابو فراس - الذي قال في وصف
 احدي هذه الوقعات :

دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا
 وكنا كالسهم اذا اصابنا مراميها فراميها اصابا

وهنا لا بد من كلمة هذه ساعتها ، حول الشعر القصصي . يقول طه :
 « واخص ما يمتاز به الشعر الغنائي من الشعر القصصي هو هذا العنصر
 بالضبط ، هذا العنصر الذي يمثل الشاعر امامك في كل لحظة ويقنعك بان
 الشاعر لا يصف وانما يتغنى . . . فليس شعر المثني في وصف الجهاد بين
 المسلمين والروم قصصاً وان اشتمل على كثير من مميزات القصص ، ولكنه
 غناء لانه يشتمل على اخص مميزات الغناء . » اما انا فارى ان الفن لا
 يعرف القيود ، وان بين الشعراء فروقاً ، فلا يلزمنا تطبيق فنا على شعر
 هوميروس والفردوسي وغيرهما ليرضى طه حسين . ان شخصية المثني غير
 شخصية هوميروس ، ولا يستوي الاعمى والبصير والسامع والرائي ، وانني
 ارى العرب ابصر بمواطن الشعر - وقد يكون للوزن والقافية يد في
 ذلك - فهم يأنفون ان يكون شعرهم كالبو ، فلم يحشوه بالاعلام والارقام
 بل كانوا يهرعون الى النثر حيث لا يصلح الشعر ، ولهذا لم يخضعوا شعرهم
 للمحمة ما . اما تحطمت شاعرية سليمان البستاني ، وهو الشاعر البصير ، حين
 نطحت تلك الجدران التاريخية في الالياذة ؟ وهل يحيا الشعر اذا لم ننفع

فيه من روحنا كما نفخ الله مرة ثانية فكانت كلمته المتجسدة ؟ وهل نطلب من اعمى كهوميروس ان يكون في شعره فحيح المتنبي ذاك الحية الذكر ؟ وهل يؤمن طه ان شاعر الاليادة ما ظهر قط في ابطاله ، فمن احيائهم يا ترى ، أنا وهو ؟

ويا ليت شعر قلبي كيف يستطيع شاعر كلمتبي خاض الحرب فشري وباع ان يخفي عاطفته وينكر وجوده ليقوم واحد مثلي في آخر الدهر ويقول : هذا شعر قصي .

ان طه لا يسمح للمتنبي ان يقول :

ورعن « بنا » قلب الفرات كأنما تخرّ عليه بالرجال سيول
تملّ الحصون الشم طول « نزالنا » فتلقي « الينا » اهلها وتزول
يريد طه أن ينكر المتنبي وجوده فيقول : ورعن به قلب الفرات . . .
أو : تملّ الحصون الشم طول نزاله ، ليصير شعره قصياً .

ان المتنبي لا ينزل عن « نا » حتى ينفخ في الصور ، ويلقى المعري اياه عند الحوض . نريد ان يكون لنا شعر قصي وطه لا يريد ما لم ينس المتنبي نفسه ، وعود العجل الى بطن أمه صعب ، فامرنا الله بين هذين العنيدين . . .

لم يحسب المتغبي للناس حساباً فارضى نفسه وفنه واميره . والفن الفذ لا يعرف الحدود والمقاييس ، فالفنان كهؤلاء الجبابرة الذين يقبلون الدنيا ، ويكبّون نظمها ، كما كبّ امير المؤمنين كنانته حين رمى العراق بالحجاج . والفن الذي لا يكون هكذا لا يعيش . ان الفنان يخلق فنه ويلقيه في احضان القوابل يقمطنه وينادي :

اذا شاء ان يلهو بلحية احمق اراه غباري ثم قال له الحق
وبعد ، فليس على المتنبي ان يحذو حذو هوميروس ، فهوميروس

حكّاء وصّاف لما سمع كما تخيّل ، فمن اين تأتيه العاطفة المشبوبة التي لأبي الطيب ؟ اما شاعرنا وهو ابو النهضة العربية الواثبة اليوم ، فوصف شيئاً خالط لحمه ودمه وشيّب رأسه ، فكيف يخبىء الزمّار ذقنه ؟ فليطوّر طه بركاره ومتره ، وليضع زاويته في صندوقته فليس الفن مثلثات ومسدسات وموشورات واهراماً ، أليس لجة الثلج الف شكل ؟ .. لقد طال لغو الاستاذ حول الشعر العربي ، فهو يحدثنا ابداً عن هذا الشعر اليوناني القصصي كأنه كان قبل اثينا وحارب مع اشيل في طروادة ، او هندس الاكروبول ورضع مع هوميروس شهداً ، وسمع معه في المهد تلك الانغام . . .

وخلاصة ما أقول ليس للفن اقيسة ، فالفن يخلق خلقاً ، ولو وصف شاعر كهوميروس حروباً شهدّها بنفسه كالمتنبى ، لاضطرّ اديب موقّر كالاستاذ طه ان يحاول وضع هذه الاغلال في رقبة الفن ، ولكن الفن كسبع لافونتين يموت من الجوع ولا يلبس الطوق الذهبي .

فليخلق الفنان فنه ، وكل فن غير بكر ليس عندي بفن ولو أشبهه الذكر الحكيم ، ومعاذ الله ان يؤتى بسورة من مثله ، فليس وصف المتنبي لما رأى الا اروع الفن القصصي ، ولطه ان يحكم كما يريد .

افليمنا وسعر المتنبى

سيقولون : اقليمية . ادب اقليمي . عصية ادبية . اما نحن فنجيب :
الاقليمية باب الادب العالمي فادخلوها بسلام آمنين .

واذا قلنا الاقليمية فلا نعني الخروج على سيديه ، فمن يتمرد حتى على
الاخفش وثعلب ويونس تفك رقبته . ومن يتناول على الخليل بل على
اقل اعرابي نجعله عبرة للعالمين . اننا ندعو الى ادب مرغوب فيه ، الى
ادب طازج ، فقد سئنا اكل القديد . ندعو الى ادب يصور امصارنا تصويراً
صحيحاً ، فاقليمية كهذه تنفع ولا تضر . فليعفنا احباؤنا ، عفا الله عنا وعنهم ،
من الزندقة ، فليس من يستعبده القديم مؤمناً مخلصاً ، ولا من يكدح لتضخم
ثروة امته الادبية كافراً مرتداً . فالعربية لساننا ، ولنا فيها الطريف
والتليد ، فكيف نمجدها ؟

لست اعد الادب الروسي الا اقليمياً ، وغيره مثله ، وان لم يقم
فيها مبدعون يصورون اقاليمهم بالوان لسان العرب يظل ادبنا فاتراً
مزاً . تقرأ واحداً من ادبائنا فتستغني عنهم اجمعين .
فليكتب الشامي والحجازي واليميني والعراقي والمصري بلغة العرب ولا
جناح عليه ان استوحى بلاده واستلهم محيطه .

وعدت الدكتور انني اؤدي له حساب البيئة جملة ، وها هو ذا الدين
يستحق ، فلنقل كلمتنا في البيئات الثلاث : الشامية والمصرية والجليلية التي

أشار اليها الدكتور فقال :

« كان ينقصه - المتنبي - شيئان : حياة راضية . . . وبيئة مثقفة . . .
 قوية الثقافة ، رشيدة بصيرة بالادب ، قادرة على النقد ، عالمة بالوان الكلام ،
 وهذه البيئة لم تتح للمتنبي اثناء اقامته الاولى والثانية في شمال الشام »
 (ص ٢٠٠) . « ولم يكن للبيئة العربية في الشام في ذلك الوقت حظ
 ممتاز من الثقافة الادبية والعلمية ، وانا كان المتنبي محتاجاً الى البيئة
 المصرية التي نشأ فيها فن ابي تمام ، والى البيئة العراقية التي نضج فيها
 فن ابي تمام . اما المتنبي فقد نشأ شعره في العراق وحاول ان ينضج في
 الشام فأدركه البطء ودب اليه الكثير من الفساد وظهر فيه تكلف يققته
 الذوق العربي الصريح » (ص ٢٠١) . « ولست أشك في ان المتنبي لو اقام
 في العراق وجه حياته لأسرع الى النبوغ ولاتخذ شعره لوناً آخر ، ولبرئ
 من كثير من العيوب التي انكرت عليه ، ولاجتنب كثيراً من فساد
 اللفظ ، ولارتفع عن هذه المبالغات السخيفة التي سيعاب بها شعره ابد الدهر »
 (ص ٢٠٢) . « والامر لا يقف عند المتنبي ، وحده ، فقد اصبح
 المتنبي ، كما تعلم ، اماماً للشعراء فأخذ الناس عنه فنه بما فيه من خير
 وشر ، وكذلك كان استقبال المتنبي شبابه في الشام مصدراً لكثير من
 الضعف الذي ألم بشعره هو ثم بشعر الذين قلدوه . » (ص ٢٠٣)
 يوطئ بهذا الكلام لقوله : « فترك شمال الشام وانتهى الى طبرية
 واتصل ببدر بن عمار فوجد البيئة المثقفة الناقدة فوثب فنه في اشهر
 قليلة . » (ص ٢٠٤)

ثم يعود طه الى البيئة مرة ثانية فيقول : « وانا اعلم ان هذه النهضة
 العقلية والادبية لم تكن طبيعية ولا متوطنة في سوريا الشمالية ، وان
 البيئة العربية في شمال سوريا كانت جاهلة في شباب المتنبي ، وان جهلها

قد أثر في شعر المتنبي آثاراً ظاهرة نكاد نلمسها بأيدينا ، انما طرأت هذه النهضة طروءاً وظهرت فيها فجأة حين نهض فيها هذا الفتى العربي - سيف الدولة - فلقى شاعرنا في حلب بيئة لم يلق مثلاً من قبل فيها غذاء لعقله وارهاف لحسه وتقوية لشعوره ، وفيها قبل كل شيء وبعد كل شيء ، ملاحظة متصلة ونقد مستمر وحسد وكيد . فتأثر عقله وشعوره وذوقه بهذه البيئة الجديدة وظهرت آثار هذا كله في شعره الذي قاله في هذا الطور .
(ص ٣٣٦ و ٣٣٧)

ثم يذكرها مرة ثالثة بمناسبة بلوغ المتنبي الفسطاط فيثني على مجد تلك البيئة الأثيل وشرفها الأصيل ، بكلام مغلق مبهم ، فهو لا يستطيع ان يسمي لنا واحداً ، فيخبرنا عن العلم والعلماء - وهذا لا ينكر - ويمغص اذ يتحدث عن الادب والفن لان هذه البضاعة لم تكن في ذلك البندر بل كانت تصدر اليهم من العراق والشام ، يعرضها اصحابها على امراء مصر فلا تنفق عندهم ، فيعودون هاجين متذمرين كما عاد ابو نواس والمتنبي وغيرهما . لذلك يحدثننا طه عن هذه البيئة الثالثة المصرية حديثاً عاماً مطاطاً كقوله : ان البيئة المصرية تالدة لا طارفة او لم تكن عارضة ولا طارئة ، وانها لم تزل بزوال امير كما حدث في الشام . ولست أغلو ان قلت ان شعر المتنبي في مصر اقلّ سقطاً من شعره في حلب لأن المتنبي فيما يظهر كان يقدر العلماء والمثقفين المصريين اكثر مما كان يقدر العلماء الذين كان يلقيهم في قصر الحمدانيين . (ص ٥٤٧)

هذا الذي ظهر لطفه . اما الذي ظهر لي انا فهو اننا ارسلنا المتنبي الى مصر فاضجاً كل النضج بعد ان قضى في محيطنا سنين أتمت ذوقه وصيرت بصره رطباً وتمراً . وأذهبت كثيراً من جفاء طبعه ولسانه الذي حمّله الينا من البوادي . فاللهجة الشامية التي هي أصح لهجات العرب ، والتي

تكاد تكون حتى اليوم فصيحة ، هي التي أسبغت على اسلوب الشاعر العظيم هذه الروعة وهذا الاسلوب البعيد عن الكلفة والعجمة ، بل هذه التعابير الدمة التي يفوح من اردانها عرف المدينة وأريج الحضارة ، لا كتلك الرواسم والقوالب التي تأبطها شعراء العرب اجيالاً فرددوها جيلاً بعد جيل ، وقد حملها الينا المتنبي حين « شرف » ارضنا .

كان المتنبي ابصر من زرقاء اليمامة فتروك تلك « القوالب » القديمة حين قال الشعر عندنا . تحضر فصار كالملبس على اللوز ، اساس عربي متين وزخرف في اكتسبه من لسان الشام . فلو اخذنا ديوان ابي الطيب وقرأنا الشعر الذي قاله في حلب ومصر رأينا ان اللهجة الشامية شائعة فيه ، وهي التي صارت للمتنبي فناً تحير الناس في فهم اسرارها . ومن يقف اليوم وقفة مدقق يتحقق ان اللهجة الشامية اقرب الكلام الى فصيح العرب لا تدانيها لهجة الحجاز ومصر والعراق فصاحة وصحة تركيب .

اننا لا ننطق عن الهوى ، فخذ الكتاب الكريم وقابل بين آياته الخالدة وتعابيرنا تجدنا اليوم ننطق بالكثير منها . وخذ شعر المتنبي في سيف الدولة فصاعداً ترَ ايضاً ما قلت لك ، والاسلوب الشامي الذي ينمى علينا ابناء عمنا المصريون استعماله هو هذا الذي يدور على السنتنا ، ولا يحتاج الا الى تهذيب قليل ليصير فصيحاً .

فالذي يلوح لي ان هذه البيئة التي عدها طه جاهلة لم تسعف المتنبي على وثوب فنه هي التي خلعت لسانها ولهجتها على ابي الطيب برودة الخلود . لم يكن المتنبي من الشعراء الذين تخلق معانيهم من ألفاظهم كالبحتري حتى يفتش عن قوالب معلومة ، بل كان يفصل الالفاظ اثواباً للمعاني ، وقد وجد النسيج المطلوب في مخزننا الشامي ، ففصل منه ذخائر وطرفاً للأدب الخالد .

قال طه ان فن المتنبي وثب حين اتصل ببيئة سيف الدولة ،
ولكنني رأيته جاءهم وهو أعلم منهم فلم يثبتوا له في ميدان من الميادين ،
لا في اللغة ولا في غيرها ، فاستفحل عليهم وما كانوا من رجاله . فهو
اذن لا يحتاج لغة ونحواً بل يحتاج ذوقاً وفناً ، وهذا ما خلقه اقليمنا
فيه . فماذا افادت الشاعر بيئة ابي علي الفارسي وقد سمعناه يقول له في
اول ساعة : اسكت ، هذا فوق علمك ؟

ويا ليت شعر طه ، اين كان يتعلم الشعراء - في ذلك الزمان -
اللغة والتعبير ، افي السوربون حيث درس هو الآداب ، ام في البوادي
والخواضر التي كانت لهم كأكسفورد وكبريدج ؟ ولو كانت تلك « الحلقات »
التي يسميها طه بيئات تعلّم الادب والفن لما قال صاحب اليتيمة في شعراء
القطر الشامي - واولهم المتنبي :

« والسبب في تبرز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم
من خطط العرب ولاسيا اهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة
السننهم من الفساد العارض لألسنة اهل العراق بمجاورة الفرس والنبط
ومداخلتهم اياهم ، ولما جمع شعراء العصر من اهل الشام بين فصاحة
البداءة وحلاوة الحضارة . »

خص الثعالبي اهل العراق بالذكر لان الشعر كان ملقياً بحمله عندهم ،
ولم يذكر مصر لأنه لم يكن لها حساب جارٍ في متجر الادب . اما البيئة
المصرية التي يتبجح طه بمدحها ويمتدّ على المتنبي فعدت الى تاريخها وأنصت
الى تلك الحقبة فما سمعت الا دجاجات تقوي وضفادع تنقّ - شعر
علماء - فهناك علماء ليس لهم في الادب خل ولا خمر . فلا ديك يصيح
حتى ولا طماطم تهذي كما قال ابو الطيب في بيئة حلب الحمدانية التي
يكبرها طه تضليلاً . ثم ماذا تكون عملت البيئة المصرية للشاعر ،

واية خواصه تعزى اليها ، فهل من يدلني على واحدة وله الاجر والثواب ؟
هل من يدلني على اثر واحد وله الشكر ؟ أما لونه الشامي فصارخ ، وهذا
ما اسخط شيوخ ابن خلدون . . .

لم يشأ الشاعر ان يكون مجتوراً فجاء بتعابير وأوها هم حدثاً عجيباً ،
ورأى غيرهم فيها المتنبي مبدعاً . انه لم يتأثر بتلك العبارات المهيأة التي
اقتتل عليها الشعراء قبله وبعده ، بل لم يعبأ بكلمتهم المأثورة : ليست على
مجرى الكتابة . وهل الاساليب أنهر لا تجري الا في مسيلها ؟ . .

فمحيطنا وحده كان مدرسة الشعر والشعراء لا تلك البيئات التي هي
جماع من هاهنا ومن هاهنا كما تتجمع الاغربة ، والدليل على ذلك قول
الثعالبي ايضاً :

واخبرني جماعة من اصحاب صاحب بن عبّاد انه كان يعجب بطريقتهم
المثلى . . . ويستملّي الطارئین عليه من تلك البلاد حتى كتب دفترًا ضخم
الحجم وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ احد منه عينه غيره . (اليتيمة ، جزء
١ ص ٦ و ٧)

وهذا صاحب وفيات الاعيان يؤيدنا بقوله : وفي بلاد الشام خرج
المتنبي الى البادية فشافه الاعراب - الذين سماهم طه جهلة (ص ٢٠٢) -
وبلغ غايته من البيان ، وكانت اللغة يومئذ لا تزال صحيحة في البادية ،
وكان علماء اللغة يفتنمون قدوم الفصحاء من اهلها ليحاوروه في اساليبها
ويستأنسوا بسليقتهم في تقرير قواعدها واستبانة الصواب فيما استبهم من
مسائلها . (معجم الادباء ٥ - ٢٨)

فنحن كنا مع صاحبنا المتنبي كدنياء التي قال فيها : فلما دهنتي لم
تردني بها علماً . قد نكون لم نزده علماً ولكننا رققنا حواسيه واستهوته
لهجتنا ففصلها حللاً للشعر الرائع ، وقد ظهر ذلك ابرع ما يكون

في مدائح كافور واهاجيه ، فخلب الباب ذوي الاذواق السليمة ولم يسخط
الا المتقعرين .

وستحدث طويلاً عن هذا الاسلوب الشامي في اثناء بحثنا القصة اللبنانية
ونبين محاسنه وما فيه من قوة وضعف ، وهذا الاسلوب سبب الخلفة
بيننا وبين ابناء عمنا المصريين ، فهم يريدون منا ان نعبر بما لا نحس ،
ونحن نرى في بيتنا ما يغنيا عن الالتجاء الى غيره ، فتمشي في سبيلنا
ولا نجعل كلامنا على القوالب المعلومة وخرطها .

ان المتنبي مدين للبيئة الشامية في اكثر خواصه الادبية ، وهذا الذي
تمنى بلاشير ان يتذوقه كما جاء في (المكشوف عدد ٨٥ ص ١١) .

قال بلاشير : « ان العقاد والمازني الخ يطلعوننا بدقة على الاهواء الوطنية
والقومية التي يغتبطون بايجادها في اقوال مادمح سيف الدولة ، وهم بخلاف
ذلك عاجزون عن بسط الاسباب « الادبية » الخاصة بهم والتي تجعلهم
يتحمسون لبعض ابيات المتنبي . لا نقول هذا لانهم اهلوا ذلك في
مؤلفاتهم بل لانهم عندما يبحثون اسلوب ابي الطيب يكتفون غالباً بنقل
احكام النقد القديم .

« فبالنسبة لنا - اي الى المشرقين - لا يزال سر بعض الابيات
التي يؤخذ بها الشرقيون كما هو ، لا من حيث الفكرة التي تعبر عنها ،
ولا من حيث الفن الذي تتجلى فيه ، ولا من حيث الايقاع الذي تتصف
به ، بل من حيث تمازجات مؤتلفة بين الاحرف الصوتية والساكنة لا
تستطيع اذننا تذوق سحرها . »

قلت : لقد طلب الاستاذ بلاشير امراً صعباً ، فهو يريد ان يتذوق
موسيقانا الشعرية المنبثقة من تمازجات مؤتلفة بين الاحرف الصوتية
والساكنة . فكأنني بالاستاذ يتحدث عن لغته لا عن لغتنا ، ثم ليس الحق

علينا بل الحق كله على من خلق بلاشير هكذا ، فعسى ان يخلقه خلقاً
 ثانياً ليدرك هذا ويتذوقه ، فهل يفهم مولانا بلاشير خصائص حروفنا فهماً
 صحيحاً ليطرب لها طرب العربي ، بل هل يستطيع التلفظ بها تلفظاً
 كاملاً ، ولا اقول صحيحاً ؟ فهبنا دللناه على ذلك فهل نستطيع أن نعمل
 عجيبة ، فنخلق بلعوماً وخياشيم جديدة تحسن اخراج العين والغين والحاء
 والحاء وغيرها من فمه ؟ رحم الله المطران جرمانوس فرحات القائل :

كأنني حرف الحلق والدهر افرنجي

فالذي لا يستسيغ الحروف ولا يحسن التلفظ بها لا يحسّ موسيقاها .
 ويقول الاستاذ بلاشير ان الطلبة المراكشين سمعوا منه شرح ثلاث
 قصائد فضحكوا لمعانيها ، اما انا فراجع عندي انهم انما ضحكوا لمنطق
 الاستاذ بلاشير . . . اما الاسباب « الادبية » التي يطلب بلاشير ايضاحها
 عند نقاد العرب فلا يجدها ، ويسعى وراءها عند المشرقين ، فلا يظفر
 بشيء ، فلعلنا نعود اليها في آخر هذه الفصول فتحدث عن فن المتنبي ،
 وتأثيره في العقل العربي . اما الآن فنقول للاستاذ بلاشير : على من يريد
 تذوّق أدب امة تذوّقاً تاماً ان يدرك اسرار تلك اللغة ليفهم ما يقرأ فهماً
 غير منقوص . فبلاشير وزملاؤه المتمشرون يتلهون بقشور لغتنا ، والذي
 يبلغ اللب منهم قليل وجوده . وبرهاني على ما ازعم عمل بلاشير نفسه ،
 فقد فتحت ، عرضاً ، كتاباً ألفه بلاشير لبني جنسه الراغبين في تعلّم

العربية ، فرأيت يترجم لهم « مضي لسبيله » *Il continua son chemin*

(راجع ص ٣٥٢ من كتاب بلاشير المطبوع في بيروت) .

ان فهماً كهذا لاسرار اللغة العربية لا يمكن صاحبه من تفهّم البهاء
 زهير فكيف بشاعر ضخم كالمُتنبي حيّر الشراح العرب ؟

في هلب

نحن في الشهباء ، والدكتور يعرض علينا شعر المتنبي في سيف الدولة من : وفاؤكما كالربع اشفاء طاسمه ، الى : فهمت الكتاب ابرّ الكتب . وبيادرنا بشرح لا يغدّي ولكنه يملأ الكرش يوسوس في صدره شيطان النقد فيريه اختلافاً بين الميمية التي يستقبل بها الشاعر سيف الدولة ، وبين الدالية التي استقبل بها بدر بن عمار - أحلاماً نرى أم زماناً جديداً - فيقول : كان المتنبي في مدح بدر مندفعاً شديد الاندفاع يكاد لا يملك نفسه ، وكان يلائم بين شعوره وشعره ، فيصطنع البحر المتقارب الذي يصور اسراعه الى الامير - بدر بن عمار - . اما ميميته في سيف الدولة فلا تصور اسراعاً ولا اندفاعاً انما تصور اناة ومهلاً . وانا اقدّر ان المتنبي كان في الخامسة والعشرين حين اتصل ببدر ، وكان في الرابعة والثلاثين حين اتصل بسيف الدولة ، وانا اقدّر اثر الشباب في ذلك الاندفاع واثر الكهولة في هذه الاناة . (ص ٣٤٦)

هذا ما قدّره طه . اما انا فأقدّر ان طه امسى يحسب قراءه همجاً فينثر عليهم مثل هذه المزاعم ولا يستحي . يحدثهم عن الاندفاع « البحري » كأنه حقيقة لا شك فيها حتى يعزو مثل هذا السخف الى بحور الشعر . ثم يصدق نفسه فيلتمس لذلك الاعذار فيحتج للبحر الطويل بالكهولة ، وللبحر المتقارب بالشباب . فهل يقول لنا طه لماذا اصطنع المتنبي البحر

المتقارب ، قبل موته بعام ، حين أجاب سيف الدولة على كتابه الاخير ؟
أليظهر له اسراعه اليه ، ام تراه استغاث بالدكتور فورونوف فأرجع الشيخ
الى صباه موجع القلب باكياً ؟ ..

انها رحلة سندبادية قام بها طه لاجل الفن ولكنه ضاع حيث تناطح
البحران ... ان ضرّات هذه السفاسف كثيرات عند طه . رأى تصريحاً
في شعر المتنبي الاخير فخاله ضرباً من التجديد ، وترجّى حدثاً عظيماً لو
عاش الشاعر ، ولكن العقاد صديق الدكتور ادرك هذا الشطط فنبه اليه
واسقط عنا هذه المؤونة . وهناك افتراضات غير هذه يحاول بها فك طلسم
البحر الطويل والقافية الميمية ، فيها في نظره اشد خطراً من تلك العقد
التي نفتتها هند لابن ابي ربيعة ... فيتساءل لماذا اصطنع المتنبي كلمة
الطاسم وعدل عن الكلمة المألوفة وهي الطامس ، ثم لماذا اخرّ الجار
والمجورور عمداً النخ ؟ ..

ولو فعل المتنبي كما شاء الاستاذ لقال بلا شك : ما اثقلها قافية ! انظروا
الى هذه السأسة . وبعد دوران ولف طويلين ينتقل الى البيت الثاني :
وما انا الا عاشق كل عاشق اعق خليليه الصفيين لائمه
فيورى فيه - وهذا اغراب القدماء - فصلاً تعمّده الشاعر ليثير استطلاع
النحويين . ان في وسع طه ، لو اختار الوصل ، تقدير الواو وهذا ورد
عن القدماء كقول الخطيئة :

ان امرأ رهطه بالشام منزله برملى يبرين جار شدّ ما اغتربا
والمتنبي لا يرى في الاغراب بدعاً ، ولا في الجري على خطة القدماء
حرجاً . وهناك وجه آخر غير هذا لم يقله القدماء ايضاً وهو عندي خير
الوجوه . فما علينا ان جعلنا « كل » نعتاً لعاشق ، وهذا كثير في كلام
العرب كقول الشاعر :

وان الذي حانت بطلح دماؤهم هم القوم كل القوم يا ام خالد
ما ارى المتنبي يلحن ، وانصح لمن يخطئه ان يقرأ عشر ليال قبل
ان يفعل ، فما رأينا احداً ساوره وبزّه ، بل لم نر حرفاً في كلامه الا
قد جرى على لسان العرب . وما اخال المتنبي في شأسته وفأفته ومأماته
الخ الا فاعلاً ذلك لامر ما ، لا لجهل وقلة ذوق .

اما تحليل طه لقوله :

كئيباً توقاني العواذل في الهوى كما يتوقى ريّض الحيل حازمه
فقد طبّق فيه المفصل كما يعبر القدماء ، فالمتنبي شمس حرون حتى في
هواه ، وبيته هذا بلاغ وانذار للامير . . . ويصف الشاعر تصاوير على
السرادق المنسوب لسيف الدولة فيقول طه : والخطأ كل الخطأ ان يظن
قارئو هذا الوصف لما كان على الحيمة من تصاوير ان المتنبي قد ارتجل
هذا الوصف ارتجالاً ، والخطأ كل الخطأ ايضاً ان يظن ظان أن المتنبي
قد ابتكر هذا الوصف وجاء به من عند نفسه (ص ٣٦٠) . ويذكرنا
بوصف ابي نواس للكؤوس ووصف البحري للايوان ، ويظن ان المتنبي
قرأه وانتفع به .

ليس فينا من يظن ان المتنبي لم يقرأ وصف القدماء ، ولكنه قرأه
ليتحاماه ويبرز قائله (فشخصية المتنبي لا تضعف ولا تتضاءل امام الفحول
الذين سبقوه ولكنها تثبت لهم وتقوى عليهم) وهذا ما يعترف به .

وبعد ان يشبع هذه الميعة عركاً وعرقاً يقول : « ان المتنبي قد بهر
وراع وملاً القلوب والاسماع » بهذه القصيدة ولكنه يحتاج الى شيء آخر
وهو « الذلة والملق » ، ويؤيد زعمه هذا بقول الشاعر لاميره من قصيدة :

ليت انا اذا ارتحلت لك الحيل وانا اذا نزلت الحيام

ثم يسأل القارئ : « وما رأيك في هذا الشاعر العظيم الذي يفاخر

الشعراء ويستعلي عليهم ويسرف في الكبرياء ثم يتمنى ان يكون فرساً يحمل الامير اذا سار ؟ » قلت : الجواب عند المتنبي ، أو لم يقل لأميده : ومن ركب الثور بعد الجواد انكر اطلاقه والغيب هذه بهذه يا استاذ ، فشاعرنا دنيا ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها . وينظر في المراثي فيقرر ان المتنبي لم يكن يصدر فيها عن العاطفة بل عن العقل والفن ، ويعرض علينا رثاء ام سيف الدولة قائلاً : وما اظن الا انك ستوافقي على ان الشاعر اعتمد على فنه اكثر مما اعتمد على أي شيء آخر (ص ٣٧٩) . وقتشت عن هذا « الشيء الآخر » فرأيت ان رثاء النساء المحصنات صعب جداً ، وشكرت لأبي الطيب هذه الكياسة التي أزر بها في هذه المخارم . ويمضي بنا الدكتور الى قول الشاعر :
يدفن بعضنا بعضاً ويمشي اواخرنا على هام الاوالي
فتخطر له الفلسفة العلائقة فيخبرنا هنا ، وفي مواطن شتى ، ان هذا الشعر كان نواة فلسفة المعري . قد زعم حقاً ، ولكن النواة لا تؤدى المعنى تاماً . فالمعري ، في نظري ، شارح لكليات قررها ابو الطيب في شعره ومضى كما يفعل الشاعر . فجاء هذا الضرير يكبرها فأفقدتها الكثير من روعتها الفنية .

ويقول المتنبي لسيف الدولة في هذه القصيدة :

وان تقق الانام وانت منهم فان المسك بعض دم الغزال

فيقابه طه بقول المتنبي من ذي قبل :

وما انا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

ثم يقول : « والمتنبي حرّ ان يسرق نفسه . » فهذه « اليسرق » شاهد عدل على حكومة طه ونزاهتها . . . ويرى القافية الشهيرة - يا اخت خير اخ يا بنت خير اب - التي احرق قلب ابن عباد اجمل ما قاله

المتنبى في الرثاء لسيف الدولة ، ولكنه يتعجب كيف يشرق الدمع بالمتنبى . ثم يناقش الاستاذ محمود شاكر الذي زعم ان المتنبى احب خولة المراثية بهذه القصيدة ، فلا « يرى فيها ما يدل على صلة او شبه صلة قريبة او بعيدة بين المتنبى والقصيدة » .

قلت : ان هذا الجزم القاطع المانع لا يقبل من طه وهو الذي تبنى مذهب ديكرت وبشّر به ، ولا سيما ان في هذه القصيدة شبهة تدعم ظن الاستاذ محمود . فما حدث بين المتنبى وسيف الدولة وابني عمه يثير شكاً قوياً . وممّ يخاف الشاعر ليعقّب على قوله :

يظن ان فؤادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب
بقوله :

ولا ذكرت جميلاً من صنائعها الا بكيت ولا ود بلا سبب
فمثل هذا التبسط ، بل مثل هذا التعليل لا يُطلب من الشعراء . انها عاطفة حاول الشاعر اخفاءها فابت الا أن تمد اذنيها ، وتظهر بصور لا تخفى على متأمل لا هوى له .
ثم بماذا نعلل هذا الحنين الدائم الى سيف الدولة وهو مصطبغ بالوان الحب اشد اصطباغ :

رحلتُ فكم باكٍ بأجفانٍ شادنٍ
عليّ وكم باكٍ بأجفانٍ ضيغم
ولو ان ما بي من حبيب مقنّع
عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى
هوى كاسر كفي وقوسي واسهمي

وما معنى ذلك الاثمار بقتل الشاعر العظيم وقد تشاركت فيه الاسرة الحمدانية من انطاكية الى حلب ومنبج ، اتبرئه الاسباب « الادبية » التي رواها المؤرخون ؟ ولماذا دعا الامير شاعره بعد موت خولة ، ولم يستدعه حين كتب اليه اول مرة ؟ كل هذا يقرب زعم محمود من الحقيقة ،

فليشكّ شاكر فليس الشك ملك طه وحده .

وبعد ، فلماذا لا تحب « ستّ الناس » اشعر الناس ؟ فهو نجّي اخيها
وناموسه ولسانه وسميره . لقد امسى عديله وان صاهره فما يصاهر امراً
سوء . فما هما دون الناس على فرسيهما في ساحة حلب ، وامير القلم ينشد :
لكل امرئ من دهره ما تعودا .

وماذا تريد خولة بعد ؟ ليت الحظ اسعد اخت امير السيف بزفافها
الى امير القلم ، لنبارك لها بهذا العريس الفذ ، ولكن ان اراد سيف
الدولة فأبو فراس الحسود ، وابو العشائر الكنود لا يريدان . وما قدر كان .
وبعد ، فكاد سيف الحمداني يستريح في قرابه ، وكاد صدى « الطائر
المحكي » ينبت ، والاستاذ الجليل ما انفك يعث بالروائع الفنية كما تفعل
الاطفال بالدمى . يؤدي لنا خطة لو نهجناها فيما كتب ، من « الشعر
الجاهلي » الى « مع المتنبي » ، لما بقي لدكتورنا الجليل شيء يعتز به ،
واصابه ما اصاب ذلك المسكين الذي قيل فيه : لو قال الحاكم فليقف
كل في عقاره لوقف على السكة .

لا تؤاخذني ايها القارئ قبل ان تقرأ ، ففي غصبة للحق اولاً ولطه
ثانياً . قد رأيته يدرز درز القاضي الجرجاني واضرابه . ويفعل كأبي
فراس الحسود في نقد « واحرّ قلباه » . واذا طغى هذا النقد اصبح
الفن لعبة صبيان . ان الالفاظ والمعاني مشاع كما ان المقلع ملك المثال ،
والصباغ ملك المصور ، ومن يحسن حفظه ذكر باقٍ ، ومن اساء فموت
ونسيان .

ويحمل الاستاذ فانوسه العجيب ثاني مرة ويحلل على ضوء « الاندفاع
البحري » قصيدة : الامّ طماعية العاذل ، فيرى « هذا المتقارب يلاثم
اندفاع الحيل في طلب العدو وما يكون بينها وبينه من كفر ،

ويلائم كذلك اسراع الامير الى نجدة ابن عمه . ترى لو كان قالها المتنبي على المتدارك ماذا كان يفعل طه ؟ لا شك انه ينطّ قامتين ، ويوى فيها ما لم يره ابو نواس في الحجرة . لست اذكر لك ما حاك طه حول القصيدة من اساطير ، وما خمن وزعم ، فارجع الى ذلك في مكانه لتعلم ان في يد الدكتور مقلعاً فنيّاً دونه مقلع داود ، ولكنه لا يصيب الا واحدة من الف . وما تأوله من خير في المتقارب يتوسمه ايضاً في الوافر ، فيراه لا يقل بهلوانية عن ذاك فهو « يسير سهل سريع يكاد لا يتأتى فيه الوقوف ، وليس اقل من المتقارب ملاءمة للسير السريع اليسير في الفضاء الواسع السهل » (ص ٤٠٨) ، وهكذا يترك « بغيرك راعياً عبث الذئب » مطمئن القلب بحسب انه قال فيها شيئاً كثيراً .

ولكن المتنبي نظم ايضاً آخر قافية على هذا البحر وفيها يقول :
 وائى شئت يا طريقي فكوني اذاة او نجاة او هلاكا
 فهل يظن طه ان الشاعر « اصطنع » الوافر ايضاً لأنه مستعجل ليلقي الموت الذي ينتظره عند دير العاقول . . . من يدري ؟ قد يكون المتنبي نبياً وآياته هذه البحور التي تتكشف عن مخبّات الغيب على يد طه . وهنا ، وهي اول مرة ، يذكر الدكتور المتنبي بنخلة كريمة وان مازج قوله الشك : « فلست استبعد ان يكون المتنبي قد وفى لهؤلاء الناس - بني كلاب - وعرف احسانهم اليه وبرّهم به فجزى خيراً بخير واحساناً باحسان . »

وتخفّ خطوات الاستاذ في تاريخ سيفيات المتنبي بعد ان سار سيراً رويداً صدقنا لأجله : ما للجمال مشيها وثيداً . ثم وقف بنا حيناً على « غيري بأكثر هذا الناس ينخدع » وشرحها شرحاً وافياً ، وان سمعت نصيحتي تقرأه في محله من الجزء الثاني . ولا يخامرك شك في ان النقد

اعلان مسبوب صاحبه غير مأجور .

ثم ينتقل بنا الى « لياليّ بعد الظاعنين شكول » وهي عنده - وعند كل لبيب مثله - آية من آيات ابي الطيب . وكأني بطه قد تخيّل الراقص على الحبل عند نيتشه فشرح على نمطه حركتها وخفتها ورشاقتها بصورة رومنطيقية لا بأس بها .

واذا كان لا بد من قول شيء فاسمع ما قاله فيها : « صاغ الشاعر هذه القصيدة على مثال لامية السموأل . . . فاصطنع نفس الوزن ، ونفس القافية ، ونفس اللغة ايضاً - يريد ان يقول الوزن نفسه الخ - بل هو استعار من هذه القصيدة طائفة من الالفاظ والمعاني والاساليب ، ولكنه لم يضع ذلك تقليداً ولا احتذاءً ، وانما اعجبه هذا المذهب الشعري فعارض السموأل ولم يتخذه اماماً . »

حلّ لنا طلاسّم طه ان كنت تضرب في الرمل ، واحضر لنا المتنبي لنسأله كيف فعل ، ان كنت كعزّافة شاول . اصدّقت قولهم : عش رجباً تر عجباً ؟ فاية قصيدة في الادب العربي لا تجمعها اواصر قربى الوزن والقافية واللفظ باخوات لها ؟

وهكذا تنطوي سيفيات المتنبي ولا يدنّا الدكتور في الآداب على شيء من عناصر فن الشاعر ، ولكنه يرافق بلاشير فيؤرخ كالعلماء ، ويمشي ، وحده ، فينقد كالناشئين . . لعنّها الله رحلة ، تعرينا لنا كل الكباب فاشتبهنا المرقّة . واذا شئت صحناً من عصيدته فخذ : « وستمضي انت في قراءة هذه القصيدة كما مضى المتنبي في اتباع سيف الدولة مندفعاً من بيت الى بيت ، منتقلاً من مقام الى مقام ، صاعداً مع الجيش حين يصعد ، ومنحدرّاً مع الجيش حين ينحدر ، ودائرّاً مع الجيش حين يدور حول العدو ، ثم هاجماً مع الجيش حين يهجم على العدو ، (ص ٤٤١)

فالشاعر مغنّ ، والشاعر مادح ، والشاعر قاصّ ، والشاعر هاجٍ ،
والشاعر مفاخر متحمس ، والشاعر يجمع اكثر فنون الشعر في هذه القصيدة
التي لم تسرف في الطول . » (ص ٤٤٣)

واخيراً يراها اروع ما قال المتنبي لسيف الدولة فيقف ونقف معه امامها
وقفة ابن السبيل امام القافلة ، فلا يدري ولا ندري ما في حمولتها . . .
ثم يسألك ان تقرأ معه بعض ابياتها لترى انه ليس مسرفاً ويعرض عليك
كوكبة منها . وتبرئة لدمتي اخبرك ان طه رأى ، في مطلع القصيدة
والبيتين اللذين بعده ، كما جاء في قانون الايمان : ما يرى وما لا يرى -
اظن هذه العبارة ذكرتك اديباً فذاً هو المرحوم اسكندر العازار ، ان
كنت ممن يقرأون ولا يرون كبعضهم مرور البقرة على قبر صاحبها -
ويعتذر عن هذا الفهم المغلق برأي شعراء اوربا الرمزيين فيقول : « وانما
اريد من الشاعر البارع كما اريد من الموسيقي الماهر أن يفتح لي ابواباً
من الحس والشعور ، ومن التفكير والجمال ، وما اشكّ ان المتنبي قد
وفّق الى هذا التوفيق كله في هذه الابيات . »

وفي غيرها ايضاً ، وهذا ما كنا نتمناه . تمنينا ان تحسّ ولو مرة لئلا
نشكّ فيك ، اما وقد فعلت فلننلُ ترنيمة الشكر . . .

ويختم هذا الفصل معتذراً عن ترك درس قصائد اخرى ويتصح للقارىء
ان يتدبر مثله قصائد اخرى سماها له مثل : على قدر اهل العزم تأقي
العزائم . اراع كذا كل الانام همام . ذي المعالي فليعملون من تعالى .
الرأي قبل شجاعة الشجعان . ولكنها محاولة تفلح ، فعندي الا
يجربها احد .

وينظر طه نظر المؤرخ البصير الى الابيات التي يراها تتصل بحياة ابي
الطيب السياسية في مصر والعراق ، تلك التي كان يعرض فيها بمنافسي

سيف الدولة ككافور والخليفة نفسه ، فيصيب كثيراً ويخطيء قليلاً . اخطأ حين ظن ان المتنبي قصد الى معز الدولة بقوله :

فواعجباً من دائل انت سيفه اما يتوقى شفرتي ما تقلدا
فيرى الشاعر يهاجم الخليفة تصريحاً لا تلميحاً ويرسل اليه نذيراً لا لبس فيه . وما هذا الا صورة شعرية اعجبت الشاعر فما نزل عنها ولا بالى بعواقبها .

ويقول في هذا البيت :

اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول
غير الذي قاله ابن عباد ، ويراها من روائع المتنبي ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

ويمر الاستاذ بشعر المناسبات فيرذله اي رذل ويكيل له ولقائله الاحتقار بالمدح ، وهذا اقل ما يستحق وان كان قائله المتنبي . اما هذا الشعر الذي يقوله البلداء في هذا الزمن فعليه لعنة يوم ايوب الف دهر .

وقد احسن الدكتور جداً اذ دل على شعر المناسبات المتنبي . فقد ظن سواد الادباء ان شعر ابي الطيب كله شعر مناسبات ، ولو تأملوا قليلاً بعيون انفسهم لميزوا هذا من ذاك .

وبعد ان يشبع من ازدراء هذا الشعر ينتقل الى النظر في انذار المتنبي لاميره بالذهاب عنه فيجيد التحليل والتقدير . وما احسن وصفه نفسية المتنبي بعد انشاده : « واحر قلباه » فهو يصورها أحسن تصوير بقوله : وقد خرج المتنبي من هذا المجلس آمناً كالخائف وخائفاً كالآمن . ومثل هذا في الحسن قوله من قبل في هذا البيت :

فلا يتهمني الكاشحون فاني رعيت الردى حتى حلت لي علاقته
« فليست ادري لماذا وجدت فيه حلاوة مرة لا آخر لها . »

ليته يشعر دائماً مثل هذا الشعور ، وسواء عندنا أدرى أم لم يدرك .
ويختم الكلام على المتنبي في حلب بقوله : « والغريب ان افتراق هذين
الصديقين كان شراً عليهما جميعاً . »
أبعد اللهم عنا هذا الشر لندخل ارض مصر آمنين ونزور القسطنطينية ،
ونرى ذلك البحر الذي ازاره الشاعر حياته وهواه فابصر الوجه الذي كان
اليه تائقاً ولقي المروري والشناخيب دونه . اللهم آمين .

عند الشمس السوداء

اقبل الشاعر على الفسطاط بعدما تغمّرت خيله من النيل ، واستذرت
بظل المقطم ، فاذا بالمرعى عابس لا يحرك شهوة فاستعاذ بشيطانه الرجيم
فألهمه : كفى بك داء ان ترى الموت شافيا . . . هذا الشطر ، وحده ،
يستوعب وحشة الشاعر في الوادي ، وما القته سحنة كافور من الرعب
في نفسه . كأني به توقّع قبحاً مقبولاً فاذا به يرى بشاعة عبقرية فاضلة
على الكفاية ، فنكدت عيشه النظرة الاولى ، وعلم انه استبدل بغزاله
قرداً ، فادمى شفتيه ندامة وصاح ساخراً من نفسه ومن ممدوحه :
ابا المسك ذا الوجه الذي كنت تأثقاً اليه وذا اليوم الذي كنت راجياً
واستقر في مصر على مضض يرثي نفسه واميره المحبوب ، ويهزأ بممدوحه
البغيض ، وكأني به قد عناه ، قبل ان يراه ، حين قال :
ومن نكد الدنيا على الحران يرى عدواً له ما من صداقته بد
وعني طه بدرس مقام الشاعر الجديد الذي كان يتهدد به سيف الدولة
حين قال : لئن تركنا ضميراً عن ميامنا . . . فاذا بالندم قد أكل قلب
الشاعر قبل قلب الامير . قد فرّق طه احسن تفريق بين المقامين ، في
حلب والفسطاط ، واجاد في الفصلين الاولين من الكتاب الرابع ، وزبدة
ما مخضه ان البطالة والحمود يشغلان ابا الطيب في نفسه . ولطه آراء طريفة
حين يؤرخ فيمشي مشية صاحبة المنخل ، اما اذا جاءت نوبة النقد فيذكرك

ابا مرقال .

دلته حياة المتنبي الجديدة على سذاجة لانه انخدع ، ورأى في كافور الذي عبّر عنه بالمصريين سياسياً لبقاً لأنه خدع . فالمتنبي « كان شاعراً كغيره من الشعراء ورجلاً كغيره من الناس ، ظن نفسه حراً ولم يكن الاّ عبداً للمال ، وظنّ نفسه صاحب رأي ومذهب ولم يكن الا صاحب تهالك على المنافع العاجلة » (ص ٥٣٧) ، ثم يقابل بينه وبين المعري الذي انكر الملوك والامراء وزهد في التقرب اليهم ، حتى قال كالجازم : « ولم يكن اقل شاعرية من المتنبي . »

اما اعراض المعري عن السلاطين فاسبابه معلومة . قد رأيناه يدغدغ ام دفر في العراق فتعرض عنه بحفلة ويرجع من بغداد رجعة مشؤومة تنكر على طه قوله . . . اما تقويم شاعرية ابي العلاء فليس هنا محله ، وقد سعّرناها مراراً وكفاك من القلاصة ما احاط بالعنق كما يعبر القدماء ، واذا كان الحب يعمي عن المساوىء فالبغض يعمي عن المحاسن والحقائق كما قال الجاحظ ، وحسبنا من طه اعترافه ان هذه العصا من تلك العصية .

ويتمخض طه ويتوجع ليرسلها صرخة داوية تزعج الحي — لا ادري اذا كانت الاخيرة — فيقول : « ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها وانما خدع معها كثيراً جداً من الناس فظنوا به . . . وليس هو من هذا كله في شيء ، انما هو رجل من اهل زمانه ولم يمتز منهم باخلاقه انما امتاز منهم بلسانه . » (ص ٥٣٩)

وهل كان يظن انه يمتاز منهم باذنيه وذنبه ؟ . . ثم يراه : اقبل على كافور وضعياً ذليلاً قد هان على نفسه فهانت نفسه على الناس ، وانه لم يصف احداً كما وصف نفسه حين قال :

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الكر وحده والنزلا

أحشفاً وسوء كيلة يا استاذ؟ لا اخلاق ، ولا اباء ، ولا شجاعة ايضاً ،
 هذا بغبي . انسيت ما قلته (ص ٢٣٩) في وصفه لمصرع اسد ابن عمار :
 » فهذا كلام يكفي ان تنظر اليه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال
 وروعة وترى فيه فتوة وقوة ما ارى الا ان الشاعر قد استعارهما من
 نفسه وخلعها على ممدوحه الخ . « ثم في (ص ٣٢٠) » ان ابا تمام
 والبحري لم يشتركا في الجهاد كما اشترك فيه المتنبي ، ولم يشهدا واقعه
 كما شهدا المتنبي . « فهل من يجاهد ويحارب ، هل من يهاجم الامير
 الحمداني في ديوانه المحبوك ، ويخرج منه آمناً كالخائف كما قلت ، ثم يرتمي
 بين سواعد الجبال ، وفي احضان الفيافي والتنائف ، لا تروعه الطريق
 المقنعة بفضل ازار لبنان الذي لا تحلّ حبوته الا في تموز وآب ، هل
 يكون هذا جباناً يطلب الكر وحده والنزالا ؟ .. ثخينة يا دكتور .
 المتنبي أشجع من مشى عليها ، وهو من المفارد الذين يغيّرون وجهها ،
 وكان لو ساعد المقدور ينتصر ... ان بني اسرائيل خرجوا من مصر
 سائرين في خفارة الهمم الدموي رب الجنود ، فشق لهم البحر الاحمر
 فعبروا ، وكانت فرعون وقومه من المغرّقين . وفجّر الرب من الصخور
 ينابيع ، وتقدمهم عمود الغمام نهراً ، وعمود النور ليلاً ، ورزقهم المنّ
 والسوى و ... و ... أأقص عليك التوراة ، وما جاء في الزبور من
 تعني داود بهذا الظفر لتعذر المتنبي على مقصوده ؟ .. اما المتنبي فأراه
 اعظم من امة كاملة انصرف وحيداً ما معه الا الصبر ، من وجه الذي :
 يدبّر الملك من مصر الى عدن الى العراق فأرض الشام فالنوب
 لا يعاونه ربّ ولا تؤازره معجزات . اتظنه فعل ذلك ليطلب الكر
 وحده والنزالا ؟ فألف مرحى لهذا النقد ... هذه غلطة بألف يا شاطر ،
 اياك انت تعيدها ...

ويلوي طه كجبران العود على نفس الشاعر منادياً متفجعاً كأنه ينعاه
 الينا لنؤجر فيه : « ماتت نفس المتنبي . . . ماتت نفس المتنبي . . . ماتت
 نفس المتنبي او كادت تموت ولم يبق منها الا رمق ضئيل لم يكن خير
 ما بقي منها ، انما كان شر اجزاء نفسه واهونها على الناس حين يلتمسون
 الخلق والفلسفة ، وكانت خير اجزاء نفسه واكرمها على الناس حين
 يلتمسون الشعر والفن والغناء . »

ليس لك ان تسأل كيف كانت امس فلسفة المتنبي اساس الفلسفة
 العلائية النيلية ، ولا كيف امست الآن شر اجزاء نفس المتنبي . لا ولا
 ان تقول كيف يكون الاصل فاسداً والفرع صالحاً . ان هذا لا يعنيني
 ولا يعنيك ، فعميد كلية الآداب كسلطين آل عثمان مقدس غير
 مسؤول . . . ومن شاء فليؤمن .

ويلاحظ الاستاذ بلاشير ان كافوراً طلب الى المتنبي وصف دار جديدة
 انتقل اليها فلم يزد ابو الطيب على وصف كافور ، وتهنته بهذه الدار .
 فتوحي كلمة بلاشير هذه الى طه فصلاً كاملاً بحث فيه وصف الطبيعة في
 شعر المتنبي فراه معرضاً عنها لانشغاله بنفسه والناس . اما الذي لاحظته
 انا بهذه المناسبة فهو ان طه يحسن جرّ الحيط اذا استلمه ، وانه ابدأ في
 حاجة الى من يسلمه اياه ، وبلغة اوضح ان طه فاعل ماهر في التمهيد
 والتعبيد ، اما ان يخطط طريقاً فليس هذا شغله . . .

لا ادري كيف يكون وصف الطبيعة والعمارات ، احين يقف ابو
 الطيب امام الاهرام كما وقف اسمعيل صبري ؟ أليقول قصيدة من طراز
 « دار البطيخ » كابن الرومي ؟ شتان بين المزاجين والعقلين . المتنبي ابن
 الفلاة والعراء ، وربيب الصحراء والبيداء ، لا يستهويه من مشاهد الطبيعة
 ما يستهوي ذلك الموسوس المتطير ، الذي يخشى الناس كالطفل النفور

فيهرب منهم ليغطي وجهه بذيل امه . . .

ان تلك النظرات التي القاها المتنبي على الطبيعة عرضاً يزخر وجيزها بما لم تتحمله مطولات ابن الرومي ، وهو لا يستفزه من مشاهدتها الا ما كان فذاً كشعب بوان وجبال لبنان وغيرها من غرائب الكون واعاجيبه ، فتقع عليها قريحته وقوع النحلة على الزهرة تلتهمها وتناجيه هنيهة وتنثني عنها بالشهد . اما ابن الرومي - وله قليل احلّه المحل الاول - فدودة ترعى ، تلزق بالجدع وتنبطح على الورق ثم لا تتحلجل حتى تمتص الماوية وترعى اللحاء وتقرض القش . واني لأعجب من عشاقه - في آخر هذا الزمان - كيف يخصّونه بالتشخيص وقد سبقه اليه ابو تمام والبحري وغيرها كما ذكرنا . . . فابن الرومي « شاعر البيت » وشاعر الظل ينشده للطبيعة . وقد علمت ان ابن الرومي يطلب ان يكفى مؤونة السفر وتأتيه الصلة الى داره مخلوقة منتوفة كما اقترح على احمد بن ثوبة ، وادركت جزعه وبلادته ووقفت على سر غرامه بالطبيعة التي لا يراها الا متبرجه . . .

اما ابو الطيب فركب شعره ، في وصف الطبيعة ، الى ممدوحه فشانه كما تشين الجلال والقرب الحبول الكريمة . ولكنه في كل حال وصف الخوارق وصفاً رائعاً جداً ، وقليله خير من كثير غيره عند من يقوم الاشياء ولا يزنها بموازين تأخذ وتعطي كموازين طه الادبية .

وتروق طه الرقة والغناء في شعر المتنبي الكافوري فيرى « ان شاعرنا يجب سيف الدولة ويرجو نائله وانه كان يبغض كافوراً اشد البغض ويحمل نفسه على ما لا تريد ، فكان صادقاً امام نفسه حين مدح سيف الدولة ، وكان كاذباً منافقاً امام نفسه حين كان ينشئ المدح وينشده في كافور ، فلا غرابة ان اجاد في مدح سيف الدولة . واذا اتاحت له الاجادة في كافور فهذا هو الغريب العجيب . » (ص ٥٥٦)

قلت في مطلع هذا الفصل ، واقول ايضاً ، فمجال القول ذو سعة :
ان من يبرح افخم نادٍ يزينه امير اروع في عرينه شمم ينفر ويشمّر اذ
يقبل على مثقوب المشفر والمنخر في حضرة فيها :

من كل رخو وكاء البطن منفتق لا في الرجال ولا النسوان معدود
ولا دواء أدواً لدائه من كظم عواطف البغض التي فتحت للفن منفذاً
عجيباً ، يمدّه حقد الشاعر على صاحبه الحمداي ، وانتقامه لنفسه ممن حذره
وانذره فما نفع ، فأرسل الحمم والشرر . انها رحلة كلها خير وبركة
يا دكتور ، فلو بقي المتنبي عند امير حلب لنضب وجفّ . ولا ينس
الدكتور ان شاعرنا فلاح ماهر والارض السوداء مغلال ، فشخصية كافور
كانت مرعى خصباً لقلم الشاعر العظيم فلم يسلم مغرر ابرة في جلد ذاك
الأسود فجاء الوشم رائعاً . . . وألحّ على تلك الدمنة فلم يدع منها زنقة
الا استغلها . وفي هذا روعة الفن المتنبيّ المصري فعلينا ان نتقرّاه على
اشعة الفن خاصة ، وأشدنا ضلالاً من يحسبه حقائق كله ، فليس كافور
في عقله كما صورّه الشاعر حين رأى النهى كلها في الخصى ، كما ان ذاك
« الشعر » الذي رآه جرير من قبله ، لم يكن : كعنفقة الفرزدق حين
شابا . . .

اما الغناء في شعر ابي الطيب الفسطاطي الذي أدهش الدكتور
فهو درس ينفعه اذا راجع « الأدب الجاهلي » ، فمنه يتعلم ان الشاعر يلين
ويشدّ في القصيدة الواحدة فلا يتمسك في قابل بمجال المشرقين ،
وحجته الواهية ان كل شعر تقلّ كلماته عن الرطل الشامي وزناً ليس بشعر
جاهلي وصاحبه كالغول والعنقاء .

ويعدّ قصائد المتنبي في كافور ليقول لنا : « ومن الخطأ ان يظن ان
المتنبي قد خصّ كافوراً بهذه المذائح » فتحسب لهول ما طرق

اذنيك انك عثرت على حجر الفلسفة ، فتهيأ كلقادم على جليل ، حتى اذا سمعت « وانما الصواب انه جعلها قسمة بين ثلاثة اشخاص ، سيف الدولة والمتنبي وكافور » ضحكت وأرخيت ثوبك وشمّرت عن ساقيك لتخبط مع طه في المهمة الواسع .

لست ادري ماذا اسمي هذا في الادب ، أمفاجات ؟ ولكنها تافهة ، وطه يكثر منها جداً . انه يخلق ما لا يخطر لمخلوق ببال ليعارضه بشيء من عنده . فمن قرأ المتنبي مرة او سمع به يعلم انه يخص نفسه بكثير من نشيدته وخصوصاً حين يكون الممدوح هزأة لا يحتشم محضه ككافور . ويرى طه ابا الطيب معرضاً لا مصرحاً بقوله :

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقيين واليا
اما كيف يكون التصريح فلا ادري ، وهل يكتب الشاعر بالمسّاس ؟
الله أعلم .

ويترك الياثية الى البائية الرائعة : من الجآذر في زيّ الأعاريب ،
فيرى في غزلها رمزاً وائماً ، وينتهي الى البيت الذي فتن القدماء :

أزورهم وسواد الليل يشفع بي واثني وبياض الصبح يغري بي
« فيجب ان يعجب به ولا يظفر بما يريد » . ومحدثنا عن الطباق الذي فيه كأنه مصدر لروعته ، مع ان جمال البيت لا ينبثق من هذا الطباق الخمّس الذي عظّمه الثعالبي ، ولأجله سمى البيت امير شعر المتنبي . أما انا فأرى ان الطباق لم يخطر ببال الشاعر ، والدليل على ذلك قعود كل لفظة في محلها بلا كلفة . وبعد الجدل المعهود يقول طه : « وهذا الطباق نفسه قد يرضيني لولا اني اجد في القافية انحذاراً ثقيلاً على السمع اشد الثقل . »

لو ترك الاستاذ « اشد الثقل » كان أعدل ، فمثل هذا كثير في الشعر

العربي حتى في الذي اختاروه للغناء مثل : قال لي احمد ولم يدري ما بي .
ولكن هذا لا يمنع ان يكون هناك بعض الثقل كما أحسّ طه ، والحكم
للأذن في القافية لا للعين ، وبارشاد الأذن يهتدي الشعراء ، فهنيئاً
للرفيف الحسن .

ثم ينظر في المدح فلا يرى المتنبّي هازئاً بكافور ولا معرّضاً به كما زعموا ،
ولكنه « صادق في الغرضين وكاذب في وقت واحد » . اما نحن فسيّان
عندنا صدقه وكذبه ، فلسنا في موقف العرض ننظر في كتابه . فالذي
يعني الفن من الصدق غير ما يعني اللاهوتيين والمجتهدين اننا نكبر
كذب هذا الفن اذ أشبه الصدق ، ونحمد القدر الذي سلّط هذا النسر
على تلك الفريسة . فالمتنبّي مصوّر فدّ ظهر جبروت عبقريته في سحنة
غريبة أظفره بها جده الفني لا السياسي ، فليست الاشخاص كلها تعين
الفن والنبوغ .

اما السخر الذي يحاول طه انكاره فظاهر كالعنزة البلقاء ، وما خفي
على كافور اللبيب ، ولكنه تباه بالعرفان كصاحبات عمر . فمن يصدّق
ان سيد مصر الفطن والعبء الداهية الذي سمّوه الحجر الأسود يحلّ من
البلاهة منزلة لا يحسّ معها سخر الشاعر الذي يقول له :

تفضح الشمس كلما ذرّت الشمس بشمس منيرة سوداء
وما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت ارجوان اراك فاطرب
فدى لأبي المسك الكرام فانها سوابق خيل يهتدين بأدهم
ابالمسك ذا الوجه الذي كنت تأثّقاً اليه وذا اليوم الذي كنت راجياً
فلولا الشك في هذا المديح ما قال الشاعر لكافور :

وان مديح الناس حق وباطل ومدحك حق ليس فيه كذاب
وحسبنا شاهداً على مقدرة الشاعر العظيم ان يخدع اليوم استاذاً جليلاً

كطه حسين ، فيحسب ذاك الهزل جداً وتلك السخرية مديحاً . والفن الرائع خداع . . .

ونظر طه في الدالية والميمية والبائيتين الآخرين فرأى بعد الجمع والطرح والضرب والقسمة ان « المتنبي لم يكن يستحق اكثر مما أخذ من مال الامير » حتى خفت ان يقترح اقامة الدعوى على تركة الشاعر . . . ولكنه رضي ، والحمد لله ، رأساً برأس ولم يشغل الحكومة المصرية في هذه الازمة .

ويصل الى : حسم الصلح ما اشتته الأعادي ، فيحكم فيها عاطفته تحكيماً أشعرياً ، ويضع الفن في قفاه صفقة ملعونة فيراها من اجل شعر المتنبي وأصدقته في تصوير السياسة المصرية فيقول : « ومن ابياها ما يمكن انشاده والتمثل به في هذا العصر الذي نعيش فيه في هذا الطور من أطوار تاريخنا الحديث . » (ص ٥٨٧)

حيّرني هذا الحكم فرحت افتش عما اعلل به اعجاب طه وانشداه فوجدته في هذه القصيدة عينها فداوته منها بها كمجنون عامر . قال المتنبي في حسم الصلح :

انما تنجح المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد
فلو توافق كل قصائد المتنبي هوى طه السياسي البلدي لكان سيد الشعراء وأشرف الناس اخلاقاً وأسماهم فلسفة . لقد كاد يقضي لها بالتعليق على جدران الجامعة المصرية « لمطابقتها مقتضى الحال . . . » وما بهذه العواطف يقاس الفن . اني اذكر الدكتور ، وهو سيد العارفين ، بمقال النقادة برينتير ورد اناتول فرانس عليه (الحياة الادبية ، جزء ٢) فلعل فيه بعض الهداية .

حاشية . - وبهذه المناسبة أسأل الدكتور : أعنك اخذ تلميذك الطاهر

زكي مبارك هذه الهندازة ؟ فقد خبرتنا جريدة المكشوف ان الصداقة من عيارات زكي الادبية . فاذا قومنا الادب بما يحكّ لنا من جرب محلي وقدّرنا فنّ الناس بما نحب وما نكره منهم فيا خيبة الادب ! لقد اكبرنا فتحكم الجليل وليس فينا من ينكره عليكم ولكن احذروا التخيم في الشاطيء . . . فبواده ظاهرة .

« حسم الصلح » قصيدة طيبة ولكن في ديوان المتنبي اطيب منها كثيراً ولم يعجبك لانه لم يوافق هواك ولا يلبس احوالك المصرية . ان هذه العلل العارضة - الهوى والصداقة - لا تصلح مثلاً للفن وان كان محلها منه كالتواابل من الطعام ، فلنفتش عن كمية الغذاء قبل كل شيء .

ان شعر المتنبي ثلاثة اقسام : قسم مات وصار رمّة ، وقسم يلائم نفسية البلاد العربية وهذا يظل حياً ما دامت ارضها ملعباً وملهى للدخيل ، وقسم لا يموت ابداً وهو الشعر الانساني . وهناك شيء آخر في هذه الاقسام ثلاثها يستيقظ كلما أيقظته ، هو الفن المتنبيّ الذي لا يموت . فكلما فتحت الديوان يبرز امامك المتنبي بلحيته وكشرفته فيعيد حقبته جذعة ، بكافورها وسيف دولتها وضبتها ، وهذا هو الفن كيفما كان . واليك الآن نموذجاً من رديء استحسنته طه جداً لأنه احبه :

لا عدا الشر من بغى لكما الشر وخصّ الفساد اهل الفساد
انما ما اتفقنا الجسم والروح فلا احتجنا الى العواد
هذه دولة المكارم والرافة والمجد والندی والايادي
كسفت ساعة كما تكسف الشمس وعادت ونورها في ازدياد
فيقرّظها طه بقوله : « وانظر الى هذه الابيات التي يملأها الحنان ، رأيت اجمل من هذا الكلام وابرع من هذا التصوير الخ . . . » (ص ٥٩١) مع انها ، كما رأيتها ، اشبه بدعوات العجائز . لعل جذة المتنبي طلبت له ليلة

القدر طلبةُ قبلت فأعجب طه بقصيدته هذه وخلا كلامه عنها من لو ولكن .

ويتناول قصيدة : عدوك مذموم بكل لسان ، فيقف عند هذا البيت :

ولله سر في علاك وانما كلام العدى ضرب من الهذيان
فيخطىء آراء القدماء في هذا البيت ويراه مدحاً محضاً ، ورأيه هنا
اوجه وامثل من آرائهم ، فلو كانت المتنبي يؤمن بالآخرة بعض ايمانـه
بالخط لدخل الجنة بشيابه . أليس هو القائل :

هو الجد حتى تفخر العين اختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا
اقلّ فعالي بله اكثره مجد وذا الجد فيه نلت ام لم انل جد
ثم انداحت دائرة هذا الايمان بالخط حتى قال للأسود :

ارد لي جميلاً جدت او لم تجد به فانك ما احببت في اتاني

وينتقل الاستاذ الى المتنبي السياسي فيرى « المامه بالسياسة المصرية
سيراً لأنها لم تكن سياسة حرب و قتال - نسي انه يطلب الكر وحده
والنزالا - وانما كانت سياسة مكر ودهاء » . ثم يصف لنا حياة
المتنبي عند كافور وما فيها من قنوط ويأس فيرينا الشاعر تاعساً بائساً .
ويشرح قصيدة الحمى - ملومكما يجللّ عن الملام - فيراها فوق الفن :
« لأن حزن هذا الشاعر العظيم قد تجاوز الفن وصار اعظم منه وابعده
مدى . » وتجيء نوبة : صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ، فيشرحها ويقول ان
الفلسفة العلائية انبثقت منها . ثم يذكر : بمّ التعلل لا اهل ولا وطن ،
ويجب لك ان تقرأ هذه القصيدة وتقرأها فهي من ابقى شعر المتنبي
وأرقاه (ص ٦١٠) فاقراها اذن واقراها . . . وان كان لي شيء ا قوله
في هذه المرحلة من نقد طه فهو انه نظاميّ المذهب في - النقد - لا

يقول بالمنزلة بين المنزلتين . . .

وهنا ، وهذا غريب ، يعتقد طه كعجائز لبنان اللواتي يعلن موت غير
الابرار ومصائبهم بغضب الله فيقول : ان الزمان يعاقب المتنبي على ما
اظهر عند سيف الدولة من بغي وكفر للنعمة وجحود للجميل فأقسم -
اي الزمان - لينغصن عليه حياته في مصر تنغيصاً .

لست ادري كيف يكون الرجل باغياً طاغية وتموت نفسه ذاك الموت
الأسود كما نعاها الينا طه ، وهل ماتت نفس يدرسها الناس كل يوم ولا
ينكشف لهم الا القليل من سرائرها ؟

وينظر طه الى هجو الشاعر كافوراً والمصريين ومصر فلا يراه شيئاً
غريباً ، وهذه رحابة صدر ذكررتني المأمون حين جاؤوه في قتل دعبل
الخزاعي فخيّبهم . لقد انصف الاستاذ كل الانصاف ، فهذا الهجاء يقرأ كفنّ
لا كدم لأمة كريمة ، والمتنبي ، في رأي طه ، قد وفّق الى اعادة الهجاء
اكثر مما وفّق الى اعادة المدح « وهو قد اضحك الناس من كافور ولكنه
قد غص من نفسه عند الناس ، فالناس ينكرون الشاعر الذي أعطى ثم
اخذ ، ومنح ثم استرد ، وقال ثم كذب نفسه ، وهم حين يضحكون من
هذا الشاعر لا يبخلون عليه بالاعجاب والاكبار ، يكبرون فنه وبراعته
ولكنهم يصغرون رأيه ويحقرون خلقه . فالمتنبي في قصته مع كافور كلها
صغير حقاً ، صغير حين مدح وصغير حين هجا . »

قلت : ان غراب المتنبي كان ادهى من غراب لافونتين فما ترك الجبنة
للشاعر . . . وكثيرون فعلوا مثل المتنبي ، شربوا من البئر ورموا فيها
حجراً ، فلا تلمه . . . فكافور كان احقر واخس لأنه قبل هذا المدح الخزي ،
بل استعطاه وجزى عليه الشاعر كذباً ووعداً . وفي كل حال ارى صفقة
كافور رابحة ، فحسبه هذا الذكر . فلولا شعر المتنبي ما ذكره احد

بلسان . . . لم يطلب المتنبي مالاً من كافور ، بل ولاية عشقها صغيراً
ومات على حبها ، وكافور وعد ولم ينجز . انني اميل جداً الى الشك
بسيب كافور ونائله ، فليس المتنبي اول شاعر خاب في مصر وعاد هاجياً .
ويتناول طه اليائية : أريك الرضا لو اخفت النفس خافيا ، فيقول فيها
بعض كلماته المعهودة : جميل ، او غير جميل ، لا بأس به ، الخ . ثم
يقول في هذا البيت :

وانك لا تدري ألونك أسود من الجهل ام قد صار ابيض صافيا
انه « مبالغة سخيفة فلم يكن كافور يظن به الجهل الى هذا الحد » .
ونحن ايضاً لم نكن نظن ان الدكتور يفهم الشعر هذا الفهم ، وهو
لو تبصر قليلاً لأدرك ايضاً ان هذا ممكن ، وتفكير المتنبي صحيح ،
فالمرء يألف قبحه ، وقبح من يألفهم ويخالطهم . . .
وعند طه ان الميمية اجود هجاء قاله المتنبي في كافور ، وقد سردها
الدكتور كلها ، اما نحن فنكتفي ببعض ابياتها لضيق المقام :

من أية الطرق يأتي مثلك الكرم أن المحاجر يا كافور والجلم
جاز الألى ملكت كفاك قدرهم فعرّفوا بك ان الكلب فوقهم
لا شيء اقبح من فحل له ذكر تقوده امة ليست لها رحم
أغاية الدين ان تحفوا شواربكم يا امة ضحكت من جهلها الامم
قلت : لو عاد المتنبي اليوم ووقف على طول شواربنا فما تراه
كان يقول ؟ . .

الفرار والهرباء

وفي يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ جاش صدر المتنبي فقال الدالية الشهيرة :
عيد بأية حال عدت يا عيد . القصيدة من آيات المتنبي وفيها ما يلائم هوى
كل نفس وخصوصاً ذات الآلام الحفية ، فما قرئت على طه حتى هام بهذه
الابيات الاربعة هيام دانتى ببياتريس :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تتيه عين ولا جيد
يا ساقبيّ اخمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما همّ وتسهد
اصخرة انا ما لي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الاغاريد
اذا اردت كمت اللون صافية وجدتها وحيب القلب مفقود
واليك ما قال في تقريظها : « لا اعرف اجمل منها ولا اصلح
للغناء . . . اما انا فمفتون بهذه الابيات وبالثلاثة الاخيرة منها خاصة . وما
اعرف اني وجدت في كل ما قرأت من الشعر العربي ما يشبهها جمالاً
وروعة ونفاذاً الى القلب ، وتأثيراً في النفس . ومهما احاول فلن استطيع
تصوير ما يملأ نفسي من الحزن حين اسمع تحدّثه الى ساقبيه وسؤاله اياهما
عما في كؤوسهما اخمر هو ام همّ وتسهد ، ومهما اقل فلن استطيع ان
اصور اعجابي بهذا البيت الذي يسأل فيه عن نفسه ما له لا يطرب للخمرة
ولا يطرب للغناء ، وما اعرف بيتاً يصور السكون وجمود النفس وموت
القلب خيراً من هذا البيت ، وهو على تصويره الرائع للسكون والجمود

والموت من اشد الشعر تحريكاً للنفوس واثارة للطرب الحزين في القلوب .
(ص ٦٢٩)

ليس من الكياسة ان نقف حيال هذا الاعجاب الغريب لا نبدي ولا نعيد ، فالمروءة الادبية تقضي علينا ان نعين اخانا وننصره على حيوته .
فلو حلل طه نفسه كما حلل نفس المتنبي لاستولى على ذلك السبب . لعن الله ذلك الحلاق الذي داواه صيياً فقد جنت يده الاثيمة على النبوغ والادب . لقد آلمني حزن الاستاذ حتى وددت ، وربي شهيد عليّ ، لو استطيع ان اشاطره البلوى ، فعين واحدة تكفي لقضاء نهار مالت شمسه .
لقد صوّر طه نفس الضير وشعوره في الاعياد والمواسم من حيث لا يدري . فلست أشك ابداً ، وان لم اره ، ان طربه حزين وابتسامته فاترة ، وبهذه الحسرة يستقبل الاعياد . فلا يحزن الله الاستاذ الكبير فبصيرته النيرة خير من الف عين .

وينفض طه عنه الكتابة اذ يبلغ قول ابي الطيب :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها وقد بضمن وما تقنى العناقيد
فيرى ان الشاعر ألهم البلاغة والحكمة حقاً حين صوّر مصر اصدق وابرع تصوير . . . لست اذكر هنا « العاطفة البلدية » فهذا البيت من وثبات المتنبي التي يمتاز بها من شعراء العرب ، ولا أبالغ ان اقل من شعراء الدنيا اجمعين . وبعد الثناء والحمد ينتقل الى المقصورة الخالدة :
الا كل ماشية الخيزلى ، فيخص بالذكر هذا البيت العبقري :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء

ثم يسرد ابياتاً اخرى رائعة ويحمل الكلام قائللاً : « ان لمصر على المتنبي فضلين ، فهي قد رقت غناه وعلمته الحزن الطويل العميق والتأمل الذي كاد يرقى به الى الفلسفة ، وهي قد علمته الهجاء اللاذع الممض الذي يبقى

على الدهر ولا يخلو من نفع وموعظة . » (ص ٦٣٥)
ويلذ لي ان اذكر ايضاً صورة رائعة رسم بها طه حياة المتنبي في
مصر ، قال : « فلما انتهى الى مصر واستقر في ظل كافور اتيح له السكون
والهدوء ولم يعرض له احد بكيد او حسد ولم يضيق عليه في حياته
المادية ، وانما وضع على نار هادئة من الوعد والاخلاف فنضجت نفسه
نضجاً بطيئاً ولكنه نضج صحيح . »

قلت : ونحن نأكل كل يوم هذا الشواء الشهي طعام الدين الذي كان
يسأل عنه حسان في اخريات العمر . ان المتنبي مدين بكثير لمصر ، ولو بقي
في حلب لم يزد على ما قال ، فالشاعر الملهم كالمُنْبِي يخلق من محيطه
الملائم عوالم عجيبة ، وكلما تهأت له الاسباب باض وفقص كالجرادة .

ويهرب ابو الطيب من مصر فيتبعه طه ليحصى عليه انفاسه ويحدثنا
عن قتله عبده في الطريق لأنه يسرق متاعه ، « فيصور استهانه بالحياة
الانسانية واستباحته الدم الانساني في سبيل متاع يقوّم بالدرهم والدنانير » .
وقد فند هذا الرأي الفطير الاستاذ العقاد واعتذر عن فعلة الشاعر التي
هي « خليقة - في شرع طه - ان تسبغ على الشاعر لوناً احمر قانياً » .

وتذكر طه « الاندفاع البحري » بمناسبة الكلام على هذه المقصورة ،
وروى ابياتاً من فخر المتنبي ليعقّب عليها بهذا الطعن المر : « فهذا الفخر
الرائع البديع كله ينحل الى يسير ، وهو ان الشاعر قد فرّ من مصر
فرار اللص ، واندفع في الصحراء اندفاع الصعلوك ، وقتل في طريقه
عبداً لأنه سرق بعض المتاع . »

هكذا يرى طه نجاة جواد اضرّ بجسمه طول الجحام ، ولا هو في
العليق ولا اللجام . الحرب في النظارات هينة . . . لقد جددت عهد قرقاش
يادكتورنا النزيه . أنسيت كم اكلت الصحارى من جماعات ، أتجهل انها

لا تزال تزدرد قوافل النار والحديد ، فأين كان عقلك حين اصدرت هذا الحكم الجزاري وسجلته على نفسك ؟ لقد سبق تسفيه هذا الرأي فليراجع .

ويحاول الدكتور معرفة اسباب اتجاه المتنبي لناحية دون اخرى ، فليقرأ ذلك من تهمة معرفة هذه الامور .

واخيراً يبلغ الشاعر حضرة ابن العميد ويقول في مدحه شعراً كالشعر احسن طه جداً في اجمال الكلام عنه بقوله : « ان المتنبي اخذ من ابن العميد اكثر مما اعطاه . »

فهذا الشعر الذي قاله ابو الطيب في مدح من ختمت به الكتاب - كما سجع القدماء - شعر ميت لا حياة فيه ولا نبض ، فشاعرنا لا يبدع الا حين يزجيه امل واسع او يحدوه غيظ صاخب .

وماذا عند ابن العميد ؟ . . اما شعره عند عضد الدولة فجديده كثير ، وقد ادرك طه ذلك وحيرته كثرة الانتاج . فلا يتعجب الاستاذ ، فالسراج المحتضر يرسل لهباً رائعاً ثم يشرق بنوره وينطفئ ، وهكذا الشاعر ولا سيما اذا كان اخا خمسين مجتمعاً اشده .

واعجب طه بوصف شعب بوان ، وباللامية الطردية ، وغيرهما فظن - ولكن ليس اكبر الظن - ان المتنبي لو اقام طويلاً في بلاد فارس لتغير مذهبه الشعري تغيراً قوياً ، ولجاز ان يحدث في الشعر العربي فناً جديداً ، لم يسبق اليه (ص ٦٩٤) . وآية ذلك تصريح رآه الاستاذ في شعر ابي الطيب . وهو لا يقف عند هذا الحد بل يقول شيئاً كثيراً في شعر المتنبي الشيرازي ولكنك تخرج منه كما قالت تلك البدوية في علكة لم تمضعها : ما فيها غير تعب الاضراس وخيبة الخنجرة . . . انه يرى في هذا الشعر الشيرازي شيئاً غريباً عجيباً ولكنه لا يقول ما هو ، و « يدهشه

حقاً الا يكون النقد - القدماء - قد التفتوا الى ما يمتاز به شعر المتنبي في شيراز من سائر شعره . واغرب من هذا - عنده - ان الاستاذ بلاشير لم يكذ يشعر بهذا التطور العميق الذي احدثته زيارة الشاعر القصيرة لفارس في شعره ، مع ان الاستاذ بلاشير اوروبي وكان خليقاً ان يحس ما بين هذا القسم من شعر المتنبي وبين العقلية الاوروبية والفنية الاوروبية من تقارب ليس شديداً ولكنه واضح كل الوضوح . » (ص ٦٩٤)
 لا ادري لماذا يستغرب طه بهذه الدهشة قلة فهم الاستاذ بلاشير وضعف شعوره بهذا التطور الذي تراءى لطه ، لأنه افهم للشعر العربي من القدماء ، ام لأنه يدرك من اسرار اللغة ما لا يدركون ولا ندرك ؟ فلو كان هناك بدع لأدركوه ولم يفهم مهما دق وخفي .

ايطلب هذا عند من يعبرون عن المحضات بالمهسنات ، ويقولون في شرحها كان العرب يضعون نساءهم في حصون ؟ ألم يبلغه ان « الا جالا » هي « الله جعل » عند اساتذته السوربونيين ؟ فكيف يطلب ادراك الفن العربي عند من يلفظون كمولى زياد الذي حدثنا عنه الجاحظ في بيانه ، ويعظون كما روى الشدياق في فاريقه ؟

وبعد ، فما لنا ولهؤلاء ، فلنرجع اليك انت يا دكتور ، قلت : « وكنت احب ان اطليل الوقوف عند هذا القسم من شعر المتنبي فهو من الناحية الفنية اثره عندي واعجبه في واجبه الي ، وهو خليق ان نقف عنده قصيدة قصيدة ، وان نفصله ونستخرج دقائقه ونضع ايدينا على موائد التطور فيه ، ولكن هذا شيء لا نفرغ منه ان اخذنا فيه الا بعد اطالة لم يبقَ يتحملها هذا الكتاب . » (ص ٦٩٥)

فلندع الهزل ، او الخلط - اختر لنفسك ما يحلو - وأجبنني : أمطلوب في هذا الكتاب ان يكون صفحات معدودات ؟ أتبيع الكتب

مذارعة من الناشرين ، ولذلك لا تكتب لهم الا بمقدار ؟ وان كان هذا فلماذا لم تقتصر حيث فلتت الناس بالافأة والشأسة والطباق والقرمطة الخ ؟ لماذا أشغلتنا باللف والدورات كالغرائق عند البيات ؟ لماذا أطلت الوقوف عند ما يفهمه ابسط ناشيء ثم قطعت الحديث عن هذا النجم المجوسي الجديد الذي اكتشفته في سماء فارس ؟ ان الدلالة عليه لا تحتاج الى اكثر من سطر او سطرين ، فلماذا لم تقل ماذا رأيت ؟ أنحن في الف ليلة ليلة ليدرك شهرزاد الصباح ؟ .. انها حبة مرة ولكن عاقبتها بأس مريح . . . لقد صحّ بك قول الشاعر القديم :

تقاتل الشيب ولما تفعل في لجة امسك فلاناً عن فل

ليتك أذقتنا لقمة واحدة من هذا السباط الذي مدّته لك آلهة الفنّ ، وتركنا نفتش عن اخواتها . انني اقترح عليك ان تفعل - كما وعدت - وتدلنا على الشيء الذي لم يفهمه احد من العرب حتى ولا بلاشير الاستاذ الأعظم في لغة الضاد . ولست اقترح عليك ان تضع يدي على هذا الشعر الشيرازي ، فأنا مثل توما اكتفي بان اضع اصبعي فقط لاؤمن بك وبقيامه فن المتنبي الجديد . فكل ما قلته في هذا الكتاب - ما عدا التاريخ - ليس فيه ما يغري .

وما لي اعجب من هربك ؟ أما عودتنا من قبل ذاك ؟ هكذا فعلت حين حدثت الناس عن ابي تمام - حديث الشعر والنثر - فأجّلت درس فنه الشعري لضيق الوقت واعدت ان تفعل في الكلام على البحري ، ولما تناولت البحري رأيتك تسترشد بذوق ابي هلال العسكري فتأخذ قصيدتين اعجب هو بهما ، وهكذا يضيق عنك ديوان البحري فلا تجد فيه حاجتك الأدبية الفنية .

ويترك المتنبي عضد الدولة ساعياً الى حتفه ، فيصدق طه كل ما رواه

ابو نصر الجبلي عن مقتل الشاعر العظيم ناسياً زعمه ان المتنبي لم يَصوّر الا نفسه حين قال :

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الكرّ وحده والنزالا
ويراجع طه وسواس القرمطية ، فيحاول ان يجعل لها يداً في مقتل
الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

بعد الفراغ

ختم الدكتور طه حسين كتابه « مع المتنبي » بفصل عنوانه « بعد الفراغ »
فرايت ان اجعله عنواناً لهذا المقال الأخير ، واقتسمناه بالسوية
فكانت حصة الاستاذ رأيه في كتابه ، وحصتي رأيي المجمل فيه ، فاسمع
اذن ما يقوله الاستاذ في السبعائة الصفحة التي سماها « مع المتنبي » :
« اني حين أقبلت على صجة المتنبي لم اكن جاداً ولا صاحب بحث
ولا تحقيق ، وانما كنت عابثاً اريد ان اداعب المتنبي او اداعب خصومه
واصدقاءه جميعاً ، ولكنني لم اكد ألقى المتنبي وآخذ في الحديث معه او
الحديث عنه حتى صرفني عن اللهو العبث واضطرتني الى محاولة البحث
والتحقيق . . . ودفعت في ذلك دفعاً عنيفاً حتى اذا انتهيت الى حيث
انتهيت وجدتني مكدوداً قد انتهى بي الاعياء الى اقصاه . لم اقل للمتنبي
او لم اقل عن المتنبي كل ما كنت اريد ان اقول ، فطويت الصحف
وأرجأت الحديث حتى اعود الى القاهرة ، وكنت اريد ان استأنفه متى
عدت فأفصل القول في فن المتنبي بعد ان فرغت من تفصيل القول في
حياته ، وأقف بنوع خاص عند اشياء لم ازد على ان الممت بها الماماً . . .
فما اكاد ابلغ القاهرة حتى تتلقاني الاعمال الجامعية فتستغرق اكثر جهدي
ووقتي . . . فما اكثر ما بقي في نفسي من المتنبي ، والله وحده يعلم
أيتاح لي ان اشفي من حديثه نفسي ، ام تحول بيني وبين ذلك

الحوائل والخطوب . » (ص ٧٠٦)

« ان هذا الكتاب ان صور شيئاً فهو خليق ان يصورني انا - اي طه - بعض لحظات الحياة اثناء الصيف اكثر مما يصور المتنبي ، وانه لمن الغرور ان يقرأ احداً شعر الشاعر او نثر الناثر حتى اذا امتلأت نفسه بما قرأ فسجل هذا في كتاب ظنّ انه صور الشاعر كما كان ، او درسه كما ينبغي ان يدرس ، على حين انه لم يصور الا نفسه ، ولم يعرض على الناس الا ما اضطرب فيها من الخواطر والآراء . »

فعنده ان شعر المتنبي لا يصور المتنبي وانما يصور لحظات من حياة المتنبي لا اكثر ولا اقل ، كما ان كتاب « مع المتنبي » وكل ما كتبه طه من كتب لا يصوره صورة صادقة تطابق الاصل وتوافقه ، « فنقد الناقد انما يصور لحظات من حياته قد شغل فيها بلحظات من حياة الشاعر او الاديب الذي عني بدرسه . »

وقد تعجّب طه من انه قد انتظر هذه السن وهذا الطور من اطوار الحياة قبل ان يفتن لهذا الرأي ويطلق التفكير فيه .

قلت : فليقلّ طه تعجّبه ، ولوم نفسه ، فليس هذا الرأي له ، ومثل هذا الزعم عَنف برينتيير اناتول فرانس وجول لومتر منكرّاً عليهما تحكيم الهوى في الآثار الأدبية ، كما فعل الاستاذ في « مع المتنبي » فكان عاطفياً ذاتياً اكثر من فرانس . وكأني به قد أدرك هذا التقصير الفني فاعتذر عنه بالأشغال الجامعية كما يعتذر بعض المؤلفين عن اغلاطهم بالتورّك على الطبّاع او على صفّاف الحروف . اما التماس صور الشعراء كاملة في دواوينهم فهذا لن نظفر به لأن الانسان لا يستطيع ان يصور نفسه كما هي ، وهو ان أفشى سراً من اسرارها بقيت اسرار يعز عليه ادراكها ، ويفوته التعبير عنها ، ولذلك جاءت دواوين الشعراء مختلفة في

الدلالة ، منها ما يدل كثيراً ، ومنها ما يدل قليلاً ، وديوان المتنبي أشدها دلالة على صاحبه . اما كتاب « مع المتنبي » فلست اقول فيه شيئاً بعدما أسمعتك رأي صاحبه فيه .

ان الاستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك أقدر على تأريخ الأدب منه على نقده ، وقد يكون لنشأته ، ولتكوينه العلمي ، ابلغ اثر في هذا ، فالرجل معذور غير محجوج كما تقول الجاحظية . قد نشأ نشأة مستمع قصاص ، ومن نشأ هكذا كان في التأريخ أبرع منه في درس النصوص التي قد تحتاج الى اطالة نظر ، ففيها ما لا تلقاه اول وهلة . ولهذا رجحت كفة « مع المتنبي » التاريخية وسالت كفة النقد ، فالكتاب تاريخ مزوج بنقداً عجاف مكرورة . وفي التاريخ ايضاً ظلمات كثيفة تحوج قارئ « مع المتنبي » الى الاستعانة بكتاب منظم ككتاب الدكتور عزام .

ان قارئ « مع المتنبي » كراكب الصعبة ، فطه يعلو فيه ويسفل كلما ، ويروح ويحي ، كحائك يسدي ، ولا سيما حين ينقد او يحاول اكتشاف خصلة او نحلة كقرمطية المتنبي . . . تراه واقفاً للشاعر بالمرصاد ويشد عليه كمن يتعمد الفتك ، وهو لو اخلص للحق والفن لكان اعظم فلاحاً ، فبينما نراه في حديثه عن ابي تمام يصطنع اسلوب المدافع - حديث النثر والشعر - اذا به في « مع المتنبي » يفتش عن العيب بالسراج ، واذا وجده ضحى وعيّد ، واذا رأى لومة عذها جنابة وكانت فرحته راقصة وأسمعك الزفة في داره .

ينظر في الشعر ليتأوله على هواه ، وكثيراً ما يجمع خلف المتمشرقين كالجواد المشكول ، اما تعبيره فواسع رحراح غير محدود ، وهو يهز الألفاظ اكثر من المعاني ، ومثل اللاعب بالسيف والترس يروعك ولا

يؤذيك ، فأنت تشعر - كما قال - انك تقرأ طه لا المتنبي ، فكأن
الساعات التي قضاها معه لم تكن ساعات فال . ولعله تعمّد مخالفة ضريح
المعرة فكتب ما كتب . . .

توقعنا ان نقرأ كتاباً يسد الفراغ فساء فألنا ، فأستاذنا كالمتمتع يجادل
نفسه ويفرض ما لا يخطر ببال مخلوق ، وقد يزعم زعماء ثم ينسى انه زعمه .
اما حسنة كتابه الضخم فهي انك تقرأه لأنه لطفه حسين ، ومثل
قراءته ولكنك تستنجد بالصبر وتتجلد وتقرأ لأنه لطفه حسين ، ثم تقرأ
وتترجى متوكلاً على الله لأنه لرجل وجيه في قومه ، وهكذا تقرأ كله
وان لم تفز بما ينسبك التعب والعناء فحسبك انك قرأت كتاباً صفحاته
سبعائة ونيف ، وغير قليل هذا المجد الادبي .

اما اذا كانت الثروة والاغراق في الكلام اظهر صفات الاديب كما
كتب طه - في هلال يناير - فيكون كتابه هذا خير اثر ادبي اخرجته
المطبعة العربية في القرن العشرين .
ولكنني اشكّ في ذلك .

رأيت الناس لم يتحدثوا كثيراً عن « مع المتنبي » فتناولته ، ولست
ازعم اني فلقت الحبة ، ولكنني واثق انني لم اجنف في احكامي ، واعتقد
ايضاً انني وفيت الاستاذ حقّه ، وان قصرت فعن غير قصد . ومهما يكن
من شيء فالدكتور - أطال الله بقاءه ووقاه الخطوب ليعود الى المتنبي
عوداً احمد - من افاذا القرن العشرين غزارة قلم ، فليس بالسهل املاء
كتاب صفحاته سبعائة واكثر وخصوصاً في بلاد اجنبية كسائنش ، وفي
الصفيف ايضاً . . . وان نحن رأينا فيه معاملة وتكراراً فسيبه انهماك
الدكتور في اشغاله الجامعية ، اخذ الله بيده ، ومن يكفل لنا ان احداً
يكتب كتاباً احسن منه او مثله ؟ اما المخالفة الشائعة فيه فهي « علامة

فارقة « للعميد يدونها له سجل نفوس ادباء هذا العصر .

وبعد ، فاننا نعتذر الى الدكتور عما بدر من لواذع ، فهو قد مارس النقد وعرف لغته ، فلا بد من التوايل حتى للحم الضأن ، وخير الشراب ما كان مفلفلاً .

وأحقّ تقرير كتاب « مع المتنبي » هو ما قاله الدكتور فيه عن شعر المتنبي : « كلام كثير لا يخلو من روعة وقوة وجمال ولكنه كلام لا اكثر ولا أقلّ . » (ص ٢٢٢)

فمن ذنبه خناقه كما يقول الرعيان .

نواحي شعر المتنبي

سيطر ابن الأثير على دواوين من استكتبوه من الملوك الصغار فأراد ان يستبدّ في « ديوان العرب » . أصدر في كتابه النامّ عنوانه على خلق صاحبه احكاماً فنية مبرمة تدل على ان الرجل كان ذا بصر نافذ الى اعماق الكلمة ولكن ادعاءه العنيف كشف للناس صفحته فكرهوه في الديوانين .

واليك نص فقرته الحكيمة على المتنبي بعد ان صال وجال في ميدان المقابلة بينه وبين الطائيين ، قال : « وهو — اي المتنبي — وان انفرد بطريق صار ابا عذره ، فان سعادة الرجل كانت اكبر من شعره . وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وُصف فهو فوق الوصف ، وفوق الاطراء . ولقد صدق في قوله من ابيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبنّ كريماً بعد رؤيته ان الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبالي بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم
« ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التي ما ضلّ صاحبها وما غوى ، وجدته اقساماً خمسة : «خمس» في الغاية التي انفرد بها دون غيره ، و«خمس» من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره ، و«خمس» من متوسط الشعر ، و«خمس» دون ذلك ، و«خمس» في الغاية المتقهرة التي لا يعباُ بها ، وعدمها خير من وجودها . »

كَأَنِّي أَرَاكَ ، أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ ، تَحَكُّ رَأْسِكَ مَعْمَلًا فَكَرْتِكَ لَعَلَّكَ
تَتَذَكَّرُ إِنِّي رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا . مَهْلًا . سَأَكْفِيكَ مَوْوَنَةَ هَذَا الْعَنَاءِ . قَدْ
قَالَتهُ الْعَرَبُ شِعْرًا :

الشعراء فاعلمنَّ أربعه واحد يجري ولا يُجْرى معه
وواحد يخوض وسط المعمه وواحد لا تشتهي أن تسمعه
وواحد لا تستحي أن تصفعه

لَقَدْ أَصَابَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي تَقْسِيمِهِ ، فَالْجَوْ الَّذِي حَوَّمْ فِيهِ الْمُتَنَبِّيَ لَمْ يَبْلُغْهُ
أَحَدٌ مِنْ نَسْرِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ . أَنَّ قُلُوبَهُمْ وَرِثَاتَهُمْ لَا تَحْتَمِلُ ذَاكَ الْفَضَاءَ فَرَأَوْهُ
بِأَعْيُنِهِمْ وَلَمْ يَلْجَوْهُ ، كَمَا رَأَى مُوسَى أَرْضَ الْمِيعَادِ وَلَمْ يَدْخُلْهَا .
وَبَعْدَ ، فَشَعَرَ الْمُتَنَبِّيَ يَقْسِمُ أَقْسَامًا أُخْرَى . يَقْسِمُ مِنْ حَيْثُ الْفَنِّ إِلَى
أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : الْقِسْمُ الْأَوَّلُ وَفِيهِ يَنْحَوُّ أَبُو الطَّيِّبِ نَحْوَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَهُوَ
يَغْرُبُ فِيهِ وَيَعْمَلُهُ مِنَ الطَّرَازِ الَّذِي يُحِبُّهُ الْأَعْرَابُ لِأَنَّهُ كَانَ يَحْيَا بَيْنَهُمْ
وَيَأْلَفُ خِيَامَهُمْ ، وَيَطْمَحُ إِلَى النَّبُوَّةِ وَالْإِمَامَةِ . . .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي وَهُوَ الَّذِي قَالَهُ فِي « بَرِّ الشَّامِ » فَقَدْ صَقَلَهُ الْمُرَاتُ
وَلَكِنَّهُ ظَلَّ مُتِينَاً كَالْدِمَقْسِ ، ثُمَّ عَدَلَ صَاحِبُهُ عَنِ الزَّادِ الْمَعْدِّ ، وَجَأَ إِلَى
أَسْلُوبِ أَغْضَبِ شَيْوْخِ ابْنِ خَلْدُونَ فَعَدَّوْهُ لِأَجَلِهِ سَاقِطًا عَنْ مَقَامِ الشُّعْرَاءِ .
وَهَلْ يَرْضَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَقُولَ شَاعِرٌ :

الامَ طَمَاعِيَّةُ الْعَاذِلِ وَلَا رَأْيِي فِي الْحُبِّ لِلْعَاقِلِ

خَذُوا مَا آتَاكُمْ بِهِ وَاعْذَرُوا فَانِ الْغَنِيمَةَ فِي الْعَاجِلِ
وَأَنْ كَانَ أَعْجَبَكُمْ عَامَكُمْ فَعُودُوا إِلَى حِمَصٍ فِي الْقَابِلِ

وَأَنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ آمَلِ قَتَالًا بِكُمْ عَلَى بَازِلِ
أَقَالَ لَهُ اللَّهُ لَا تَلْقَهُمْ بِمَاضٍ عَلَى فَرَسٍ حَائِلِ

إذا ما ضربت به هامة براها وغنّاك في الكاهل

فهناك النصر معطيكه وأرضاه سعيك في الآجل
فذي الدار أخون من مومس وأخدع من كفة الحابل
تفاني الرجال على حبها وما يحصلون على طائل

والقسم الثالث وهو الشعر الكافوري ، نهج الشاعر في أسلوبه نهجاً جديداً فقال شعراً يقرأ في كل زمان ويصلح لكل آن . شعر انكشفت فيه شخصية جديدة لم تدرك من ذي قبل ، فكان المتنبي فيها ابرع الساخرين وأمرهم .

واخيراً الشعر الشيرازي وقد رقّ هذا الشعر كأخيه الشعر الكافوري ، التفت فيه المتنبي الى الطبيعة فانبعث من شعره رائحة الأرض التي لم نشمّها في شعر العرب .

ومن حيث التجديد في خطة القصيدة فشعر المتنبي اقسام ايضاً ، ففي شعره الأول ينحو نحو المتقدمين ، يتغزل ويظهر الوجد والهيام وقد يبكي على الطلول ، ثم تضطرم نار الثورة في فكره فيشب الوثبة الاولى ، يبكي على الربوع بكاء فيه طرافة واغراب فيقول :

ملثّ القطر أعطشها ربوعا والا فاسقها السمّ النقيعا
اسائلها عن المتديريها فلا تدري ولا تُدري دموعا
لحّاها الله الا ماضيها زمانَ اللهو والحدود الشموعا

ولا تلبث هذه الفكرة المتمردة ان تنمو في دماغ الشاعر وتكبر ،

فيهتف بعد زمن وجيز :

أحقّ عافٍ بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم
وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

ثم يتنكر العبقريّ لنواميس العادة وشرعاتها ، فينكر ان تكون الطريق المعبّدة هي الجادة المثلى للقريض فيقول :

اذا كان مدح فالنسب المقدم أكلّ فصيح قال شعراً متيّم
لحبّ ابن عبد الله أولى فانه به يبدأ الذكر الجميل ويختم
واخيراً يريد المتنبي ، والارادة ام التجدد ، فلا يتوسل الى موضوعه
بشيء ولا يمهّد له ولا يوطّئ ، فيقول :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى
بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارماً ثلم الضراب
دروع لملك الروم هذي الرسائل يردّها عن نفسه ويصاول
اعلى الممالك ما يبني على الاسل والطعن عند محبين كالقنبل
واذا نظرنا الى شعر ابي الطيب من حيث البقاء والخلود فهو اقسام
ايضاً . القسم الاول ، وقد مضى وراح ، هو ذلك المدح الزائل كأصحابه
ويلحق به الغزل المصطنع ، وقد يتبعها شعره الملحمي ، وان كان في
الذروة من الوصف . فالشعر الملحمي لا يخلد الا اذا كان قومياً وظل
يلامس حياة قارئيه ، كشعر المتنبي الآخر الذي تهتز له نفس العربي
اليوم لأنه يصور موقفه الحاضر .

كانت بلاد العرب في عهد المتنبي دويلات ، يحكمها فلول من الامم
والشعوب ، اقطار متفرقة متشعبة ، فنار ابو الطيب على تلك الحالة وحمل
عليها حملات غاشمة كحملات اميره فقال :

بكلّ ارض وطئتها أمم ترعى بعيد كأنها غنم
يستخشن الخبز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم
ويقول :

وما اعاشر من املاكهم ملكاً الا احق بضرب الرأس من وثن
 أرانب غير انهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
 وتضريب اعناق الملوك وان ترى لك الهوات السود والعسكر المجر
 واخيراً يرى كافوراً الاخشيدي فينفجر ذلك البركان المتقد ، ويقذف
 اللحم فيصرخ :

سادات كل اناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم
 جاز الأولى ملكت كفاك قدرهم فعرّفوا بك ان الكلب فوقهم
 لم يعجب المتنبي الا صديقه سيف الدولة ، رأى فيه رجل العروبة
 والاسلام اليقظ الواقف في درب الروم يحمي التخوم العربية فغناه اصدق
 اغانيه المدحية .

ان هذا الشعر ، الشعر الذي ينادي بالوحدة العربية ، ويعتف العرب
 ويدفعهم الى الثورة ليكونوا سادات انفسهم ، يظل حياً خالداً ، ما دما
 نشعر به في كل ساعة ومازق ، كما شعر المتنبي في شعب بوّان مع انه
 فتنه كل الفتنة فقال :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
 ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
 ان شعر العروبة المتنبي يبقى حياً ما بقيت الاقطار غير موحدة ،
 فعسى ان يموت ولو خسر المتنبي عنصراً طيباً جداً من ديوانه .

ولكن اذا مات هذا القسم الذي يبكّتنا فيه ويوبّخنا فلا يموت شعره
 العربي الاسمى ، شعر الطموح ، شعر حب السيادة . فالعربي يأنف ان
 يساد ، وهذا ما يحثنا عليه المتنبي . قد كان في شعره وفي سيرته ، في
 حله وفي ترحاله ، اصدق نموذج عربي . فالمتنبي هو مثال الانفة العربية ،
 أبى ان ينام على ضم ، وان يستقر في وطن يسام فيه الخسف ، وهو

الذي قال :

وكل مكان ينبت العز طيب
ولا اقيم على مال اذل به ولا أذل بما عرضي به درن
وكم كان العاهل العربي العظيم الملك فيصل يستلذ هذه الابيات ويرددها :
لا افتخار الا لمن لا يضام مدرك او محارب لا ينام
واحتال الأذى ورؤية جانيه غداء تضى به الاجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ اليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميت ايلام
مثل هذا الشعر يجب ان نعلم ابناؤنا اذا كان التعليم غاية تربية ، اما
اذا كنا نفهم العلم حشو ادمغة فلنعلمهم شعر القدماء والذين سبقوا ابا
الطيب . فمثل هذا الشعر لا يموت ابداً لأنه الشعر الحي ، شعر الخلود
الذي لا تأخذ الايام منه ثقل حبة خردل . فالمتنبى في حكمته يصدر عن
النفس الانسانية العزيزة الكبيرة ، فيصور لنا الاخلاق العربية الاصيله .
شاء احدهم ان يشبهه بنيتشه فأخطأ . ان نيتشه يريد ان لا يبقى الا الرجال
الصالحين للحياة . اكبر همه الفلسفي انتقاء الناس واصطفائهم ، اما نحن
ففي غنى عن ذلك الاصطفاء لان المحيط القاسي نقانا واصطفانا . واسلوب
الحياة لم يبق من العرب الا العرق المتين . ان صورتنا الكاملة المخطوط
التامة الملامح لا نجدها الا في ديوان هذا الشاعر ، ففلسفته العامة هي ايضاً
فلسفتنا الخاصة :

لا يخذلنك من عدو دمه وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يواق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

من اطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالاً

كلّما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس اصغر من ان تتعادي فيه وأن تتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحى لعدنا اضلنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تموت جباناً
كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس سهل فيها اذا هو كانا
فمن يقرأ مثل هذا الشعر ولا تتحرك فيه العزة والكرامة والاباء ؟
فهذه هي الحلايا التي لا تموت من جسم الادب العربي ، فيظل متمتعاً
بالشباب الخالد الذي ذكره ابو الطيب :

آلة العيش صحة وشباب فاذا وليّا عن المرء وليّ
واذا الشيخ قال افٍّ فما ملّ حياة ، ولكن الضعف ملاّ
نعوذ بالله من الضعف ولا منينا به ان كان ذلك مستطاعاً .

قد قسمنا شعر المتنبي كما تراءى لنا فبقي علينا ان نقسم قصيدة
الشاعر الاعظم . انها اقسام ايضاً : قسم يرضي به ممدوحه ، وقسم يرضي
به ذاته التي غالى في محبتها والاعتداد بها ، وقسم يرضي به الانسانية
جمعاء . لا نعني بالقسم الثالث غير تلك الكلمات الخالدة التي لا تخلو منها
قصيدة من قصائد ابي الطيّب . ان هذا القسم الاخير من الشعر المتنبيّ
قد تجاوز تخوم الاقاليم وخرج من منطقة الكتب والمدارس ، فدخل الحياة
العظمى . قد اطرب الناس جميعاً وهذا ما حبّب المتنبي الينا . احيناه
لأننا فهمناه ، « لانه اقرب بنا عهداً ، ونحن اشدّ به انساً ، وكلامه أليق
بطباعنا ، واشبه بعاداتنا ، وانما تألف النفس ما جانسها ، وتقبل الاقرب

فالأقرب إليها . اما بلاشير الذي سألنا ان ندلّه على موطن الحسن فيه
 فسيظل جاهلاً ذلك ولو وضعنا اصبعه عليه ، لانه لا يشعر شعورنا حين
 يقرأ هذا الشاعر ، ولا يدور كلامنا على لسانه ، ناهيك ان للمتنبي فزّاً
 يختلف عن فن غيره من الشعراء ، ونحن في بحثه ماضون .

منابع ساعرنه

قال تورغنيف : السعادة هي الراحة والراحة لا تخلق شيئاً . فالحمد والثناء لمن لم يمنح ابا الطيب يوم راحة . فلو ظل في حلب مستريحاً لاسترخت قريحته وتزهلت . ان الركود يلائم شاعراً كالبحثري اذا حضرت رحله المهموم يوجه الى ابيض المدائن عنسه ، فيتسلى عن الحظوظ ، ويأسى لحل من آل ساسان درس . . . ثم يعود مساءً الى وكره .

اما المتنبي ، وشعره منبثق من خاطر فوار ، وعين تشاهد قتلتقط ، وفكر لا يستقر على حال ، فلا يلائمه الوقوف أمام قصر دارس . فهو لا يكسو قصائده ثياباً معدة كالبحثري بل يلبس لكل حالة لبوسها . ان ارتقاء المتنبي في احضان الصحارى والفيافي ، وانتجاعه الحواضر والعواصم ، غذى فكرته ، ولون شعره ، وحمله رسالة عليا لم ينهض بأعبائها شاعر قبله . فلولا هذا التنقل لم يقل :

الحيل والليل والبيداء تعرفني	والسيف والرمح والقرطاس والقلم
لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها	وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما	تداول سمع المرء أنمله العشر
افاضل الناس اغراض لدى الزمن	يخلو من الهم اخلاهم من الفطن
لا اقتري بلداً الا على غرر	ولا امرّ بخلق غير مضطغن
وكلمة في طريق خفت أعربها	فيتهدى لي فلم اقدر على اللحن

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تجمع بين الماء والنار في يدي
وما أتعب من أن أجمع الجَدَّ والفها
واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظم
فهذه الاسفار ، وقد سبقت لنا كلمة حولها ، كانت موارد خفية لهذه
العبقرية ، كانت تجدد شعر المتنبي فينشط كلما تبدد ، وقد ادرك المتنبي
خطرها فتهدد سيف الدولة قائلاً :

لئن تركنا ضميراً عن ميامنا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
ان المتنبي من مجانين العظمة ، ولكن هذا الجنون لم يفقده اتزانه
ولو قال :

أي محل ارتقي أي عدو اتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرتي

اما حاله مع « العظمة » التي عشقها وحن إليها فكان أشبه بقول
الشاعر : « جنناً بليلي وهي جنّت بغيرنا . . . انف المتنبي السير على
الطريق المعبّدة فمشى وحده . فاذا طلبنا فن المتنبي فلنفتش عنه في
افكاره الثائرة ، وخياله المولّد . في لهجته التي هي لهجتنا ، فهو يعبر
لنا عن صوره الحيّة بألفاظ واساليب مألوفة منا ، ولكنها تسامت حين
ألقي المتنبي عليها رداء بلاغته . لقد ابتعد هذا الشاعر العظيم عما لاكه
الشعراء الذين سبقوه فظلوا في وادٍ وسامعهم في وادٍ . لجأ الشعراء الى
لغة خاصة بهم ، اما المتنبي فما بالى بأساليبهم ، ولم يتقيّد بما فصلوه
لأنفسهم من طراز وزيّ ، وهذا شأن الفنان العظيم ، فهو لا يتقيّد بقيود
البشر بل بقيود ذاته .

ان معظم البشر كقطيع المعزى يجمعهم « البطال » حول الجرت

الأسن . يمزج المعّاز الماء القذر بنقطة قطران من بطّاله فيعبّ القطيع منه الماء بعدما عافه . كذلك كان تهافت شعرائنا على جرن التقليد ، فمضى هؤلاء المساكين ولم يقولوا شيئاً يبقى . اما ابو الطيب فحمل شعره رسالة خالدة فقاموا ينعون عليه غزوه اليونان ، وهذا شأن كل مجدد ، فقلما نجد تجديداً غير منفعل بعوامل خارجية . واذا كان كل موزون شعراً فكل متكلم بالعربية شاعر ، فكلمهم قالوا الشعر ، وافراطهم في قوله وارساله كيفما اتفق جعلهم يقولون « بيت القصيد » وان يكتفوا بالبيت الرائع . اما المتنبي فلم يرد ان يقوله مثلهم .

الشعر يقال للتنفيس عن النفس ، اما عند الشعراء الذين بادوا فكان ألهية ، حاشا المتنبي ، فانه قاله منفعلاً فظلّ يحدث في نفوس قارئيه ما أحدثه في نفس قائله . ان الشعر هو العمل الذي يصنع تعابير جديدة سامية ، ويرسم الصور الخالدة ، وفي هذا يتفرد المتنبي .

لقد وهب المتنبي خاصة لم تكن لشاعر عربي ، ولو جارينا صاحب « الوساطة » وتعقّبنا آثار المتنبي في ما يسمونه سرقة ادبية لرأينا ان المتنبي لم يدع صورة رائعة من الصور الشعرية الا حاول اخراجها بشكل جديد . تارة يخرجها لوحة رائعة ، وطوراً يكبسها أيّ كبس فتتلازّ ذراتها فتقع في الذهن كالقنبلة . ان تلازّ الذرات مصدر الثقل ، والمتنبي فاق العرب اجمعين بخاصية الایجاز الذي هو التلازّ بعينه ، فجاء شعره مجمهاً ، والعرب مولعون بالایجاز يتهافتون عليه فرأوا في شاعرهم العظيم خواصهم مجتمعة فاجمعوا على تعظيمه واكباره . قابل بين قوله :

ولو يمتهم في الحشر تجددو لأعطوك الذي صلدوا وصاموا

وبين قول ابي تمام في هذا المعنى . ثم قابل قول المتنبي :

لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم الا وفي يده من تنها عود

بقول ابي تمام ايضاً ، تدرك المدى البعيد بين الشاعرين في اجادة التصوير ، والايجاز .

ان الفكر العربي قد اصبح سبائك مخزونة في هذا المستودع - ديوان المتنبي - وهذا هو الحرام الحلال . فما على العربي الا ان يدخل هذا المخزن فيكفيه مؤونة اللفّ والدوران في الاسواق . . .

كم تمنيت على صديقي المصور الفنان قيصر الجميل رسم بضعة مشاهد من ديوان شاعرنا العظيم مثل :

تمرّ بك الابطال كلّمى هزيمة ووجهك وضّاح وثمرتك باسّم
ومثل : لا يقبض الموت ، الذي مرّ ذكره ، ومثل :
من كل رخو عظيم البطن منتفخ لا في الرجال ولا النسوان معدود
يضاف اليه :

وما طربي لما رأيتك بدعة فقد كنت ارجو ان اراك فاطرب
ومثل هذا كثير في ديوان شاعرنا العظيم .

اما مصدر ايجاز المتنبي فاعتداده بنفسه ، فهو لا يناقش ولا يعلّل ، فكأنّ قوله الفصل في كل قضية يلمّ بها . وغزارة افكاره صرفته عن التعبير ، بصور مختلفة ، عن الفكرة الواحدة كما فعل غيره من الشعراء . واذا شئنا التفتيش عن فن المتنبي وجدناه في الضخامة . فأبو الطيب ، ان صحّ ما رووه ، كان يلبس طاقاً فوق طاق حتى السبعة لبدو ملء العيون فاضلاً عنها . . . ومن يقابل بين « على قدر اهل العزم تأتي العزائم » وبين « السيف اصدق انباء من الكتب » يلمح ان كل نفس تنضح بما فيها . فنفس ابي الطيب عاتية جبارة تستعين بالالفاظ الضخمة والحروف الآزّة الداوية :

خميس بشرق الارض والغرب زحفه وفي اذن الجوزاء منه زمازم

ان القرابة شديدة بين ابي الطيب والاخلط حين يصفان الوقائع ، فهما يشتركان في التفكير ، والالفاظ ، والهزء الذي تحمّر له الوجوه ولا تنبسط . قال الاخلط في فرار ابن بدر :

يسرّ اليها والرماح تنوشه فدى لك أُمي ان دأبت الى العصر
وقال المتنبي في هرب الدمستق :

أفي كلّ يوم ذا الدمستق هارب قفاه على الاقدام للوجه لائم
ناهيك ان للاثنين عيناً حادة تلتقط أدقّ ما تقع عليه . ادرك المتنبي ان للشعر موسيقى تستخرج من غير الوزن فتعمدها . فلغتنا العربية ليست كما توهم بلاشير تعتمد على الحروف الصوتية في موسيقاها ، فالحروف الساكنة عمل كبير عندنا . فكل مخرج حروف تختلف ضخامة ، فمنها حروف تكاد لا تحسّ بها ، ومنها حروف تملأ الفم ولا تخرج منه الا ببذل طاقة شديدة ، وهذا الذي كان يتوكأ عليه ابو الطيب في فنه الشعري .

ان المتنبي أحبّ فنه كثيراً ، فهو ينظم الشعر ليخلد به . قال طرفه :
ولولا ثلاث هنّ من لذة الفتى وحقك لم احفل متى قام عوددي
وقال بول بورجه الكاتب الفرنسي : المضجر في الموت هو أن الانسان لا يستطيع الكتابة بعده . . . ولو سئل المتنبي لقال : انهم لا ينظمون الشعر . بيد ان المتنبي لم يحسب للموت اقل حساب ، فالغريزة والفناء خطان متوازيان في خارطة المتنبي . ان فن المتنبي في معانيه ، وصوره ، والفاظه التي لا يفهمها على حقها الا العربي . وعلمه العميق بما تؤديه كل لفظة هوّن عليه احياناً استعمال ألفاظ نابية فأثر اخراج المعنى ناتئاً قوياً على موسيقى لا تغني عنده غناء المعنى . وفي هذا قال :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
وجد المتنبي في عصر مضضع فحلم في فتوّته احلاماً جامحة فكانت

الصدمة الاولى التي بعثت احلامه المبكرّة . يقول من يعبرون الاحلام :
 ان احلام اول الليل لا تصدق . وكذلك كانت احلام صبوّة المتنبي وشبابه ،
 فخلقت فيه هذا السخط العنيف ، ولا سيما على الملوك والولاة ، وكيف
 ينسى السجن وثقل القيود ؟ ولذلك رأى ابن الظلم من شيم النفوس ،
 فما ذكر الرحمة فيما بعد بل قال : وارحم شبابك من عدوّ ترحم ، ولم يحثّ
 على الاحسان الى الفقراء والارامل مثل ذاك الارمل الذكر . . . جرير .
 عاش المتنبي عمره كله مشبوب الشاعرية : تولّد في الصور متتابع ،
 تصوير رائع باقل خطوط ممكنة ، ولع بالمعاني يبحث عنها كعامل في
 منجم ، بعد عن الصناعة اللفظية . فلغته وتفكيره وآراؤه وثقته بنفسه
 تتآزر وتتعاقد لتؤثر على اعصابك أيما تأثير ، فتتبعه كما تتبع الشاة الذئب ،
 او النائم من نوّمه . والمتنبي يتدفق في غرر قصائده كالشلال الغضبان ،
 فقصائده موسيقى معارك لا مجالس لهو وطرب . تصلح للقواد الجابرة لا
 للحوار والمخشين . فاذا عرضت المتنبي على مقاييس القدماء غير ناظر الى
 مراميه البعيدة فانت ظالمه . . .

قال سلفاؤنا : ان ابن الرومي شاعر مولد ، وقد صدقوا ، ولكن ابن
 الرومي يقع فراشة ويستحيل دودة ، بخلاف المتنبي فانه يقع عصفوراً
 ويستحيل نسرّاً ، فهو كالمغامرين الذين يكتشفون المجهل ويتسلّقون الجبال
 المستعصية . تطلّب المعنى وجدّ فأثاه من كل فج عميق ، فوهل الناس
 بمعانيه وافكاره وخصوصاً البصراء بقوى الكلام . فهو فرس الخيال الجموح
 السبوح ، وان شئت فقل : قيد الاوابد هيكل . فكما يتغير الماء اذ يصير
 ثلجاً كذلك تتحول اللفظة اذا مجتّت بمحل مناسب . فالمتنبي حاذق متمكّن
 من صناعته كما قال عن نفسه :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاًها ويختصم

فهو نموذج من نماذج العقل البشري الفطري ، ويحقّ له ان يردد :
 واني على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرابيّي لأديب
 فهو اول من اخضع الشعر لقوالب جديدة وأعفاه من المخطّطات . خذ
 مثلاً شعره في كافور وتأمل ، فترى كأن البيت بأسره كلمة واحدة وكأنّ
 الكلمة بأسرها حرف واحد .

ان الشعر كالقطيع يجب ان تكثر فيه الكبوش السمان فلا يضره الهزيل
 ان كان هكذا . فأبهة الكبوش تلهيك وتغطّي على الشويّهات الهزيلات .
 ان شعر المتنبي مرفق كبير ومعوّنة حاضرة للاديب العربي ، فكانّه
 جاء ليقضي على عهد البضاعة اللفظية ، وقد اخذ آياته معاصروه - الصاحب
 وغيره - فجعلوها تعاويد لرسائلهم المنمّقة ، فكانوا كالصائع يزركش
 الذهب ليضع فيه لؤلؤة ، او حبة من معدن كريم .
 اما الذي لا يعنيه من الشعر غير الموسيقى الناعمة فيصحّ فيه قول
 المتنبي في الخيل :

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب
 واذا شبّهنا الشعراء العرب بأوتار العود كان المتنبي البمّ ، وان
 شبّهنا الشعر بعمل صائغ كان البوتقة ، فهو كدول اليوم اذ تصبّ الذهب
 سبائك . واذا لجأنا الى علم البصريّات الطبيعي رأينا المتنبي يحسن حصر
 النور في بؤرة العدسة فيحرق . لم يستطع ان يكون مسيطراً في السياسة
 فكان في الادب . ليس المتنبي كالكأس البلورية يطنّ لأقل لمس ثم
 يخفي صوته ، بل هو جرس قنطاري لا ينقطع رنينه الا بعد حين . اذا
 قرأت وصفه اسد بدر بن عمار خلت اسداً يصف اسداً ، بينا البحترى
 يصف اسد ابن خاقان وكأنه يخشى ان يفترسه . هذا اسده هرّ يداعب
 الأزهار المفضضة وهناك اسد هصور يجمع نفسه في زوره :

ويدقّ بالصدر الحجار كأنه يبغي الى ما في الحضيض نزولا
ليس شعر المتنبي دواء يؤخذ بالفم بل بالدم ، فهو حامل رسالة العروبة
وهو شاعرها القومي الباقي . لم تكن نافذته مسدودة فأطلّ منها على الدنيا
بأسرها ، اما مخيلته فكانت كالرياح التي ارسلها الله لواقع . وبعد ، فالمتنبي
مركبّ غريب عجيب . كأنه عنى نفسه حين قال : كأنتك من كل
النفوس مركّب . فيه جفاء الفرزدق ، ورقة جرير ، ووصف الاخطل ،
وتفكير الفلاسفة ، وخيال الشعراء العظام ، وهو الذي خطا بالشعر اعظم
خطوة ، فجعل لغته لغة الناس المألوفة . واذا كان حدّ الشاعر والکاتب
الكبير كما يقول فاكه : أي انهم لا يكتبون بعده كما كانوا يكتبون
قبله ، فيكون هذا هو . فدع النقاد يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول
غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون .
ان تعدد البيئات كان من اهم الاسباب التي ساعدت على اظهار فن
المتنبي . وقد رأيتُه يبذل جهداً عنيفاً في القصيدة التي يستقبل بها محيطاً
جديداً ولم يبق على الاجادة الا عند سيف الدولة وكافور .
واذا فلتشنا عن ضريب لشاعرنا بين شعراء الفرنجة رأينا ما قيل في
فكتور هينغو ينطبق على شاعرنا . فلا حدّ لاعجابه بنفسه ، وهو يسعى
أبدأ لاعجاب الناس به ، يهتم دائماً بوقع ما يكتب ، لا يترك صغيرة اذا
كانت تؤدي الى اكباره ، ولا يعبأ بالخوف والاستهزاء ، حقود بلا شفقة ،
لا يعرف الحنو ، — راجع رثاء لجدته — لا يرحم الذين يطعنون
في شخصيته المتورّمة الضخمة :

بأيّ لفظ يقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم
رجل جدّ واجتهاد ، شعبي على غلظة في طباعه ومزاجه ، ابتهاجه
ضخم ، والوانه خشنة ، مفتون بالاغراب ، يتفجّر شتائم اذا أثير : ما

أنصف القوم ضبه . . . قليل الاحساس ، وان أحسن فاحساس المتغطرسين . يتكلم عن الحب بازدراء ونزق عصبيين : وللخود عندي ساعة . . . يسره جداً - كهيفو - ان يرى المرأة ككلب تحت قدميه . اما عقيدته السياسية فالعروبة فوق الجميع . عصبي المزاج تسوؤه اقل بادرة . يثور اذا قدر ، ويكظم ويداري اذا ضعف :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقة بدّ واخيراً يضيق صدره فيهرب . . . كانت نفسه حملاً ثقيلاً عليه ، وهمه بتضخيم شخصيته أتعبه جداً .

ان قوّة نظره لا تحدّ ، يتخيّل الاشياء كما تكون وان لم يرها ، الرؤى لا أثر لها عنده ، يرى الأشياء الناتئة ولا يرى الألوان ، لا تلهيه الطبيعة شيئاً روحياً كأن يتصور نفسه فيها ، بل يصف احوالها ويظلّ بعيداً عنها . هو أمهر في تصوير اخلاق البشر منه في تصوير الطبيعة . قد لا تريك عدة قصائد صورة وقد يلهيك بيت واحد لوحة رائعة .

ديوانه مخزن مملوء مثلاً عليا للحياة وصوراً رائعة لأحداثها ، وكلها صغيرة تستطيع ان تؤلف منها « ألبوم » لا نظير له . يوحى اليك في شطر من الشعر موضوع كتاب ضخم . وهو لا متحير ولا متردد كالمعري . يجزم في آرائه حتى الغريبة منها ، كأنه يسنّ شريعة . يكتفي بفكره ويعتمد عليه اعتماد البطل على سيفه ورمحه وفرسه .

ثقافته كاملة ، ولكنها ثقافة في شخصية كأنّها من الطور الجبري . شخصية خشنة لم تصقلها ثقافتها كما تصقل ألباب قارئها .

اما آراؤه فتتجه في ديوانه اتجاهاً مستقيماً ، فكأنه يؤيد فكرة فيدعمها كلما انفسح له المجال ، او كأنّه لا يفكرّ الا بها . يلوح لي انه أحبّ ان يكون فيلسوفاً ومشترعاً ، وان لم يصرّح :

وما الموت الا سارق دقّ شخصه يصل بلا كفّ ويسعى بلا رجل
 اذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقّنت ان الموت ضرب من القتل
 وما الدهر أهلّ ان تؤمّل عنده حياة وان يُشتاق فيه الى النسل
 كأنّ اعتقاده بما وراء الطبيعة عمل منظّم . باح بسرّه رويداً رويداً
 لأنه غير قادر على التفكير المستطيل ، او انه يلوذ بالتقيّة ، والمملسوع
 يخاف من جرّة الجبل . ومع ذلك يجتهد ان يفكر ويعمل بكدّ وعجب .
 لم يحلّ لنا القضية الكبرى حلاً مرضياً ولكنه أيقظ فينا الشك والقلق
 والرغبات للتطلّع الى ما وراء الطبيعة . كان له هدف ، وهذا الهدف
 يستفزّه فيوحي اليه في كل موضوع ويردّه دائماً الى فكره الرئيسي .
 تجنّب المتنبي جفاف الشعر الجاهلي كما تجنّب هيفو جفاف الشعر
 الكلاسيكي ، وكلاهما لم يتقيّد بما تقيّد به الشعراء . كانت المراثيات توقظ
 شاعرية المتنبي ولم تكن تزعج خاطره قضايا عديدة . « المعالي » فقط . . .
 لم يخلق مبادئ جديدة ولكنه أخرجها في شعر رائع فملكها .
 نقمة على الحظ ، فالدهر خصه الألدّ ، والحظّ عدوّه . ليس له امل
 في الغد ليتعزّى ، فما بالي لأنه ما انتفع بأن يبالي . كان فناً مالكا
 لأصول فنه رغم ما في مزاجه من عيب ، فلم يخضع للنواميس الفنية بل
 عمل ما اراد ، فكان له فنه الذي صار مقياساً لمن جاؤوا بعده .
 كان واثقاً من لغته فلعّب بتعبيره كما شاء . واعتداده بنفسه أبعد
 عن تقليد القدماء واتباع تقاليدهم . وقد اجتمع وهيفو في مثل هذا
 الضرب من الاستعارات :

في الحد ان عزم الحليط رحىلا مطر تريد به الحدود محولا
 واحتمال الأذى ورؤية جانبيه غذاء تضوى به الاجسام

عناصر متنبية

المتنبى مسلم قومياً ، يدين بالعروبة وبما تحتوي من خصال . يؤمن بالقوة التي يؤيدها الحظ ويناصرها . في شعره حياة وقوة لا يجدهما العربي عند غيره .

في المتنبى عرق نزار هو عرق الدم ، فهو ظمان اليه دائماً . تحس في جميع ديوانه انه في حاجة الى ارواء غليله ، ولكنه مات ولم يروه . ومن حسن حظه انه مات لانه قال ما اراد ان يقوله ولم يبق في جعبته شيء . ختم رسالته في شيراز ، وان قال :

وفي الجسم نفس لا تشيب لشيبه ولو ان ما في الوجه منه حراب
لها ظفر ان كلَّ ظفر أعدّه وثاب اذا لم يبق في الفم ناب
يغيّر مني الدهر ما شاء غيرها وابلغ اقصى العمر وهي كعاب
لو كان يمكنني سفرت عن الصبي فالشيب من قبل الاوان تلّثم
ولكنه في كل حال قال خير ما عنده ، ولا خير فيما تبقى له من العمر .

للمتنبى اباء العرب وجفاؤهم وترفّعهم ، فهم عند انفسهم ارفع الناس ، والمتنبى في نظر نفسه ارفع العرب . تصدر كلمات شعراء العرب عن شفاهم والسنتهم ، اما كلام المتنبى

فينبع من قلبه . الفاظه جافية كخلقه ، ومعانيه جبارة كآماله ومطامحه .
كان فرجيل يقدّس الرومان اما المتنبي فيقدس العرب في نفسه .

لم تصقله الحضارة فظل خشناً جافياً عاتياً غليظ القلب ، وهذا طبع لا
يغلبه التطبع . وان لان هنية فلا يلبث ان يعود كما كان :

غنيّ عن الاوطان لا يستخفي الى بلد سافرت عنه اياها
ماديّ ليس للروح من شعره نصيب ، لا يفهم العاطفة كما فهمها غيره ،
واخاله لا يفهم الالفة البشرية وخصوصاً العائلية ، كما نفهمها :

وللخود مني ساعة ثم بيننا فلاة الى غير اللقاء تجاب
وما العشق الا غيرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رميّة وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهنّ لعاب
اعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب
لا يعرف القنوط واليأس ، واذا تذكّر المرأة في احدى غفلات الغريزة
ويقظاتها تذكر سيفه ورمحه . تغزّل ليقول غزلاً ، او لأنّه مكبوت
العاطفة ينقّس عنها بهذا الحديث ، فهو لا يصرّح كبشار : نقّسي يا عبد
عني . . . المتنبي عفيف حقاً بل هو أعفّ شعرائنا . حبه حب عربي اوّلي
لا يشذ عن التقاليد ولا يتعدها .

المتنبي رجل يعشق المجد ويحب الحرب ويعشق السلاح ويصبو الى
الدم . وقد يؤثّر الجلوس امام فرسه ولا يقول كابن الثمانين :

وفيهن ملهى للطيف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسّم
ابن بيدا وفلاة ، يحلم بالسيادة ، تصبیه المناظر المخوفة اكثر من
المشاهد الانيقة ، ولهذا ترى تصويره يخيف كجهنم دانتي . واذا صور اهل
الخطوط التي لا تريد صورته روعة ، فيعطيك سماء الشيء او سخته لا

تفاصيله ، كما وصف شعب بؤان وجبال لبنان . يصف ما له علاقة بموضوعه . فلو عاش ابن الرومي مثله في حلب ما ترك أكلة الا وصفها . لا يعنى المتنبي بالذكريات بل ينعم بالحالة الحاضرة ، وفي هذا قال : خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شبي موجد القلب باكيا لا يتأسف على ما فات ولا يخشى ما هو آت . انه يسعى للخلود ، والخلود في نظره كما قال :

ذكر الفتى عمره الثاني ، وحاجته ما قاته ، وفضول العيش اشغال له في مطالعته الدائمة واسفاره المتابعة خير غذاء لخيلته وقريحته ، فهضم المتقدمين ولم يدع شيئاً للمتأخرين . ترك للاولين تعابيرهم ورواسمهم واعتمد على اسلوبه الخاص واتقاد شعوره ، وعلى تأمله وقوة توليده ، قد ذكر الجمال لا للاعجاب به والانشداه ، بل لانه طريف .

الدم يتكلم عند المتنبي ، وما المال عنده الا وسيلة لادراك العظمة وارضاء كبريائه . يطل المتنبي على دواوين الشعراء كزائر يعرف مخارم البيوت ، لا كلكس او مستجير . فهو غازٍ فاتح اكتسح الادب العربي كله ، وبني مملكة ادبية اسمها مملكة المتنبي . فلا يبحث ضعاف العقول عن سرقاته ، فالدنيا كانت كلها لواحد . . . ان خارطة الارض تتغير ولا يغيرها غير الجبابرة .

قد صبغ المتنبي دولته صبغة لا تحول ولا تزول . كثيرون حاولوا اجتياحها فتحطمت امانهم عند اسوارها المنيعة . فروح المتنبي تنتشر في كل قصيدة من قصائده ، فهو منقذ الشعر العربي . انقذه من عبودية التقليد ووجهه نحو تكوين الرجال وتربيتهم .

احيا كثيراً من موتى الشعراء ، فلولا ما ذكروا . ذكرهم نقاد المتنبي اذ زعموا انه سرق هذا او ذاك المعنى منهم فعاشوا .

هو محيي الملوك والامراء ، وحسبه انه استخرج الالماس من فحمة
الفسطاط . . . تسود ديوان المتنبي فكرة شاملة ، فهو ان مدح او رثى
او وصف او هجا ، يريد خلق الرجل الامثل ، والرجل الامثل عند ابني
الطيب هو العربي النبيل .

فاذا اخترنا من شعراء العرب معلماً لاولادنا فلا يصلح لهم الا هذا
الرجل . لا خوف على العذارى والفتيان من السير في خفارة المتنبي .
انهم يلوذون بحصن منيع من الاخلاق السامية . فحيث كانوا في ديوان
هذا الرجل العظيم يتلقون درساً بليغاً لا يجدونه عند غيره . يهون عليهم
اصعب الاشياء ليخلق فيهم الشجاعة العظمى ، فكيفما اتجهوا يروا رجلاً
يزدري ما يخافه اشجع الناس :

الف هذا الهواء أوقع في الأنفس ان الحمام مرّ المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق
فيا ليت شعري ، لو عاد « صاحب » اليوم أفلا يخجل من قوله : بدى
الشعر بملك وختم بملك ؟ اما مات جميع الملوك وخلد المتنبي ، الشاعر
الحي في ضمير الانسانية ؟

ان المتنبي ، بده انه شاعر العرب الأعظم ، هو رجل نضال ، لشعره
علاقة وثيقة بحياة كلها آمال واماني ، فالشخصية المتنبية مرتبطة اشد ما
يكون الارتباط بما قاله صاحبها من شعر . وازدادت هذه الشخصية نمواً لا
بل تضخمت جداً لكثرة التنقل والضرب في فضاء الله . وهذا التنقل صير
تلك النواة التي أحس بها في « المكتب » دوحة وارفة الظل برغم أنف
الجد العاثر والنجم الهاوي الذي يرافقه :

أبدأ اقطع البلاد ونجمي في نخوس وهمتي في سعود
وهذه الشخصية الحاملة بالعظمة حسبت كما يحسب كل شاب ان ما

تتخيَّله ممكن الحصول ، حتى اذا أقبلت على الكهولة تراجعَت رويداً رويداً ، وأدركت ان « ما كل ما يتمنى المرء يدركه » فأقَلَّت لومها وعتابها الزمان ، ثم ما أحجبت عن انتحال الأعذار فقالت :

أريد من زميني ذا ان يبلِّغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
وبعد الطموح الى الامامة والنبوة رضي صاحبنا بولاية . ولكنه لم
يحصل على ضيعة . . . فأبرق وأرعد ، وهو لا يدري انه يؤدي رسالته
التي بُعث لها ، أي رسالة الشعر الباقي .

ثم كانت المعركة الفاصلة بين المتنبي وغلამه وولده ، وبين الدهر والحظ
في دير العاقول ، وأرخي الستار ليفتح عن فصل الحُتام الخالد ، الفصل الذي
لا ينتهي . في شخصية المتنبي خطان رئيسيان متوازيان يمتدان في ديوان
ابي الطيب الذي هو صورة صادقة لنفسه . فالخطّ الأول ، وهو الاعجاب
بالنفس والاعتداد بها ، ابتداءً في اول شعر قاله :

ان اكن معجباً فعجب عجب لا يرى فوق نفسه من مزيد
وانتهى في آخر شعر نظمه :

وأزى شئت يا طريقي فكوني اذاة او نجاة او هلاكاً
ولو سرنا وفي تشرين خمس رأوني قبل ان يروا السماكاً
ألست ترى ان هذا « الاعتداد » هو الذي قتل ابا الطيب ، بعدما
اندره ابن نصر بالخطر الكامن ؟

والخطّ الثاني الذي يناوح هذا الخطّ الأصيل - وقد يكون هذا من
ذاك - هو خط الشكوى من الدهر ، والدهر في نظر هذا الشاعر
ابو الحظوظ ومقسّم الأرزاق . تعرّع المتنبي وشبّ واكتهل ولم يفلت
هذا الحيط ابدأً ، حتى تخيّل الدهر « غريباً » من لحم ودم فاستعدى عليه
بحر الفسطاط . وكأن الشاعر أحسّ ، ولكن بعد خراب البصرة ، انه

يتجنى على هذا « الغريم » فيما ادعى عليه فنزل عن كتفيه ، وقال :

ما أجدر الأيام والليالي بأن تقول ما له وما لي

وهكذا تندحر تلك الشخصية الجموح بعد تخطّي العمر .

ومن الخط الأول ، خط الاعجاب بالنفس ، يشقّ خط طويل عريض

ترحف عليه قاطرات ابي الطيب مشحونة موادّ سريعة الانفجار . فهو

يزدري كل شيء حتى الموت والحياة . . . ويحتقر الناس جميعاً ، كبارهم

وصغارهم ، ملوكاً وسوقة :

اذمّ الى هذا للزمان أهيله فأعلمهم فدم ، واحزمهم وغد

وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عمّ وأسهدهم فهد ، وأشجعهم قرد

فكلّ هذا منبعه الاعتداد بالنفس حتى الهوس والجنون .

وكأنني بالمتنبّي يحدّق الى شخصيته العجيبة بنظّارة تضخّم الشخوص

جداً ، فصورها لنا كما رآها هو ، حتى اذا شمل من حوله بنظره العالي

قلب « نظّارته » تلك فرأى « أهيل » زمانه كالذرّ والذّبان .

ولست ادعي انني احطت بكل ما في ديوان الشاعر من خطوط ،

فهنالك خطوط رئيسية اخرى ، وكلها متفرعة من صميم « كبريائه » ، فعلى من

يدرسه بعدي ان يتبعها فيتألف من ديوان الشاعر « وحدة » يجعله « كلاً » .

وسبحان الواهب بلا حساب .

بَعْدَ الْمِثْنَى

الشريف الرضي

كأني بآبن الأثير قد شاهد تدهور الشعر ، بعد أبي الطيب ، فقال في مثله السائر : « وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وُصف فهو فوق الوصف وفوق الاطراء . » اجل ان « الرؤوس » التي هي من العيار الثقيل قد ذهبت بذهاب المتنبي ، وكاد يفقد القريض رصانته لولا شاعران ، هما المعري والشريف الرضي .

اما المعري فتفوق بدرعياته وحلّقه في رثائه ، فاذا اردت شعره ، كشعر عربي ، فعليك بالسقط وضوئه ، واذا طلبت مذهبه الذي اختصناه بكتاب سميناه « زوبعة الدهور » فاقرأ لزومياته وكتبه الاخرى .

واما الشريف الرضي ، وهو شاعر زمانه لا سواه ، فخير لي ولك ان تقرأ هذا الفصل الذي كتبه حول كتابي زكي مبارك وعبد المسيح محفوظ ، وعنوانه « الشريف الرضي بين دكتورين » ، واليكه :

جرى حديث بين الشيطان وايفان ، في رواية « الاخوة كرامازوف » للقصي العظيم دوستوفسكي ، فقال الشيطان لايفان : « يجب ان تشك وتجدد ، فبدون الشك والجهود لا نقد . وبدون النقد كيف ننقح ونهذب ؟ اذا توارى النقد لم يبق الا « أوصانا » وهذا لا يكفي . يجب ان نضع التقريظ والنقد في كفتي الميزان . ومع ذلك فما انا الذي اخترعت النقد ، ولست انا تيس الخطيئة . يجب ان انتقد لان النقد اصل الحياة . »

اما تورغنيف الروائي العظيم الآخر فيقول في روايته « الارض البكر » :
 « اين النقد في روسيا ؟ عندنا بعض شبان يريدون ان ينتقدوا ، فاذا
 ارادوا ان يبرهنوا ان الدجاجة تبيض سودوا عشرين صفحة لاظهار هذه
 الحقيقة . . . وقد لا يظهرونها كما يريدون .

« اذا صدقنا سكوروبيكين قلنا : كل انتاج قديم هو كالعدم ، أو لا
 شيء لانه قديم . واذا كان الامر كذلك صارت الفنون كالازياء ، ولا لزوم
 للتحدث عنها مجد . اذا لم يكن في الفن شيء دائم لا يتغير ، مثل
 العلم ، فليأخذه القرد . . .

« نعم ان قواعد الفن صعب اكتشافها كقواعد العلم ، ولكنها موجودة
 ومن ينكر وجودها فهو اعمى .

« لا شيء اقوى فينا من الشيء الذي يبقى فينا ، ويظل كسر مغلق
 لا نفهم منه الا القليل . »

هذا رأي الشيخين الروسيين الخالدين ، اما انا ، ولا ادعاء ، فأرى
 النقد لا يعدو ثلاثة انواع : اما بعث ، واما نشر وتحنيط ، واما قبر .
 امامي الآن كتابان في الشريف الرضي ، والشريف الرضي اشهر من
 ان يعرف ، فهو شاعر بعيد مرامي الكلم ، كبير الهمم . فبيت المتنبي
 الذي قاله عن نفسه :

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يُرى من الشعراء
 يصح في الشريف الرضي لا في ابي الطيب . انه ملك حقاً ، ومستقره
 في حنايا القلوب الكبيرة لا القصور الرفيعة العماد . اما الكتابان فواحد
 للدكتور زكي مبارك ، وواحد للدكتور محفوظ . فلنقل اذن الشريف ،
 رضي الله عنه ، بين دكتورين . ولكن لا ، فالاستاذ مبارك ، كما يتضح من
 الكشف الذي على الجزء الثاني من كتابه « عبقرية الشريف الرضي » ،

اكثر من دكتور ، هو دكتور في الآداب من جامعة باريس ، ودكتور في الآداب من الجامعة المصرية مرتين . لقد حيرني هذا فقلت : ترى صارت الدكتوراه كبعض الاوسمة . . . تمنح مرتين واكثر . . .

وكيفما دارت الحال بالدكتور مبارك فهو كاتب ملهم وملهم ، كما يعبر زميله الدكتور الآخر . فكرت قبل ان افتح كتابه ان اثني ثناء طويلاً عريضاً على كتبه الضخمة ، فالرجل ، بارك الله في عمره ، سودّ وحبر من الصفحات ما يعز على عشرة من فطاحل الكتّاب ان يسودّوه . وفيما انا افتش عن كلمة أفي بها قسطاً من الديون المستحقة ، فتحت الكتاب بدون انتباه فوقعت عيني على اول صفحة فاستغنيت عن كلامي انا بكلمته هو ، وصاحب البيت ادرى بالذي فيه . فبعد ان قال الدكتور ولأنه ، ولأنه . . . كما يقال في المراسيم بناء وبناء ، قال اخيراً : « ولأن القلم جرى فيه - اي في كتابه - بأسلوب ما احسبني سبقت اليه في » شرح اغراض الشعراء « حتى كدت أتوهم اني طفت بأودية لم تعرفها الملائكة ولا الشياطين . »

وحسبي بهذا ثناء على الدكتور الجليل ، فرجعت ولساني يردد قول العوام عندنا : من مالك يهدى لك . . .

روى الدكتور بيتاً للشريف وهو :

انا النصار الذي يضنّ به لو قلبتني يمين منتقد

وقد علق مبارك عليه بهذه العبارة : اشهد انك وجدت المنتقد ، ايها النصار .

ليت الدكتور أصر على ما ادعى في عبارته التي تقدمت ، فقد أنصف نفسه الانصاف كله ، حين زعم انه شرح اغراض الشريف . قد اجاد في هذا وافاد ، وصوب اشعة التاريخ الكاشفة على عذارى الشريف الخالدات

فبهر جماها العيون وفهم الناس عن ذلك النبيل ما لم يكونوا يفهمون لولا كتاب مبارك . ناهيك ان الديوان اصبح نادراً فكأنه اعاد طبعه ، او اختار دراريه ، فاصبح القارئ في غنى عن التماس الاصل . اما النقد الذي توعّد به الشريف الرضي ، او وعده ، فما وقعت على أثره في الكتاب ، الا اذا كان ما قاله الدكتور مبارك نقداً في نظر غيري . . . لعله كذلك ، ومن يدري ؟ . .

أتقول هذا نقداً ؟ قال الدكتور في الصفحة ١٢ : « سيري قراء هذا الكتاب اني « جعلت » الشريف افحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد : أيكون الشريف أشعر من المتنبي !

« واستطيع ان اجيب بأن الشريف في كتابي اشعر من المتنبي في أي كتاب ، ولن يكون المتنبي اشعر من الشريف الا يوم أولف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب . »

واذا قلبت الورقة عثرت على هذه العبارات : « وبيان ذلك اني لم اقف من الشاعر الذي ادرسه موقف الاستاذ من التلميذ ، كما يفعل المتحذلقون ، وانا وقفت منه موقف الصديق من الصديق . والتشابه بيني وبين الشريف الرضي عظيم جداً ، ولو خرج من قبره لعانقني معانقة الشقيق للشقيق . »

قل له ، يا سيدي ، قم فيقوم ، ويشهد الناس عناقاً لم يشهدوا مثله في بيت عنيا . . . ما زلت تحمل شاعراً كالمجنبي اذا شئت ، وينبه ذكره اذا كتبت عنه كتاباً مثل هذا الكتاب ، فلا يصعب عليك ان تنشر الشريف هنيئة ليعانقك معانقة الشقيق ، وانا اكفل له الخلود الى قيام الساعة مثل ايليا واحنوخ . . . لان معانقة من يجي قلمه

ويمت ليست بالامر الكثير الوقوع . . .

حقاً ان العبقرية فنون ! . .

ومع كل هذا القول فما ارى كتاب المبارك الا نشرأ وتخطياً ، ومصر
بزّت العالم في هذا الفن . قد كان موقف الدكتور في هذا الكتاب
موقف الدليل من العاديات ، او كمن يعرض « صندوق الدنيا » . قلت
ان الدكتور في غنى عن المدح لأنه ادرى بنفسه ، وقد وفاها حقها . انه
محتاج الى من ينتقده ، وقلّ من يقدم على ذلك ، لأن عند الدكتور
بضاعة لا يعرضها غيره في سوق الادب ، فهو محتكر هذا الصنف ومدخره
لحين الحاجة .

قد فرغنا من كتاب « عدّة دكاترة » . فلنعد الى الكتاب الآخر ،
كتاب الدكتور محفوظ

كتاب الدكتور محفوظ جديد في بابيه ، وفيه جهود ذات بال ، لولا
مغالاة صاحبها في بسطها . ان فرحته بالعثور عليها تحاكي في وضائها
وضجتها فرحة ذلك العالم الذي هتف : وجدتها وجدتها .

لقد اصبّت يا دكتور ، ولكن حنانيك . . . وهلتنا يا شيخ . فليس ما
تسمونه « الرمزية » باكتشاف جديد ، فمحاولة الاستعارة الرمزية ، كما فعل
الشريف اللبيب ، تبلغك الهدف . احذف كاف التشبيه واضف المشبه به الى
المشبه ، وفتش عن الاستعارات الغريبة والكنائيات البعيدة تكن رمزياً .
نشر هذا الكتاب الطريف الجديد في لغة الضاد السيد محمود صفي الدين
صاحب مكتبة بيروت ، فخدم الادب خدمة جلى ، اذ ادخل هذا البرعم
الجديد الى حديقة آدابنا المحتاجة الى التطعيم . فالكتاب نفيس مفيد
جداً للشعراء الرمزيين . ففيه كل شيء حتى التمارين لتحويل الكلام الواقعي

الى رمزي . . . يعلم الذين يستحلون الاسلوب الرمزي ، وخصوصاً من لا يغيرون على الموتى ، كما قال ابن الرومي في صاحبه البحتري ، او الذين لا يعرفون الفرنسية ليعربوا صور مالمه وسامان ورنبو وفاليري حتى نثر جورج دوهاميل - عفواً يا سيدي دوهاميل ، انت دكتور ، فعندكم يهلون هذه الالقاب ، وانا اتكلم بلغتكم حين اتحدث عنكم .

من قراءة مقدمة السيد صفي الدين ناشر كتاب محفوظ يفهم القارئ أن الكتاب جديد في بابه ، وهذا لا ينكر . فهو ، عدا تعريفنا بعبقريّة الشريف الرضي ، يعرف القارئ الذي لا يعرف لغة اجنبية مذاهب الادب الاجنبي ، فيخرج من مطالعته وعنده من كل فن خبر ، فالكتاب حجر جديد في المكتبة العربية .

اما انه ادرك دون سواه رمزية الشريف وعبقريته فهذا ما اشكّ به . سمعت من استاذ لي - في ذلك الزمان - اطيب الثناء على شعر الرضي . كان هذا الاستاذ - ادركته وهو شيخ - يعلمنا المعاني والبيان ، يقول عن الشريف الرضي : انه شريف في معانيه ، شريف في غزله ، لا تستحي البنت ولا خوري مثلي ان يرددا نسيبه . يؤدي فكرته باسلوب يخفف من وطئها وسماحتها ، فتحلو في السماع ولا تنبو عنها الطباع . وما سماه الدكتور محفوظ اليوم « رمزياً » كان يسميه معلمنا تشبيهاً بليغاً ، وكثيراً ما كان يتلمظ اذ يقول :

والريح تعبت بالغصون وقد جرى ذهب الاصيل على لجين الماء
كان يحب ، رحمه الله ، اسلوب الشريف الرضي لفحولة كلامه وتعفقه ، وبعده من الركاكة والحشو ، ويعجبه جري تعبيره فيشبهه بأنهار لبنان . ويتكلم عن متانته ، فيقول : هذا عمّار - بدّاء - ماهر ، مدماه حلو . . . نعم ان استاذنا ، في ذلك الزمان ، كان عارفاً بالادب الفرنجي . ولم

يكن يقيم وزناً للرمزيين لأنه محافظ لا يعدل بكورني وراسين شاعراً
فرنسياً . كان ينظر في شعر الشريف على ضوء كتابه الذي يعلمه
- كتاب البلاغة العربية - وكان يقول لنا : متى قلّت الادوات والوسائل
كان المجاز ابلغ واحلى . وخير مثال على هذا عنده شعر الشريف .

رحم الله ذاك الحوري ، لقد كان كما قال الشاعر : حجر شحذ يسن
الحديد ولا يقطع . كان شعره بارداً ونثره ابرد . ولكنه كان معلماً .
اما كتاب الدكتور محفوظ ، فيفتح اذهان الشعراء والطلاب ،
ويرشدكم في مهمه الرمزية ، فهو كالصوى في الصحراء ، او كهذه الاعمدة
المنصوبة على مفارق طرق لبنان تهدي السائق الغريب طريق البلد
الذي يقصد . لا تعيب هذا الكتاب تلك الفصول الخارجة عنه ، فهي
مفيدة للقارئ وهي تمت الى موضوعه بنسب . يردّ على الدكتور طه حسين
في المقارنة بين الادب العربي والآداب الاجنبية ، ويسمي ذلك وقفة ،
فاذا بالوقفة تطول جداً فتستغرق اربعين صفحة من الكتاب . ولكنها
وقفة ، على طولها ، لم تخلُ من فائدة اذ يتحدث فيها عن ادب اليونان
فيقع الدكتور محفوظ فيما وقع فيه الدكتور حسين من المراجعة والتكرار
والمط ، فكأنه يريد ان لا يستقل طه حسين بهذا الاختصاص ، بل يريد
- ويا للجسارة ! - ان يعلم طه كيف يدرس ، وكيف تدرس الآداب ،
وطه حسين كبر على العلم . . .

وما كدنا نفلت من طه حسين ومنه حتى اعادنا في عشرين صفحة
اخرى الى ذلك المحيط ، محيط التعليم ، وتعليم درس لا علاقة له بالكتاب ،
وبأسلوب لا أحبه . ان أكره ما أكره اسلوب اولاً وثانياً وثالثاً .
وبمناسبة الكلام على المدارس الادبية يأتينا الاستاذ محفوظ بترجمة جديدة
لكلمة رومنطقي فيعرّبها الادب المطلق ، ويحتج على تسمية الابتداعي

والاتباعي . حقاً لقد كان القدماء أنبه منا ، فعرفوا كيف يعرّبون
الالفاظ . اما نحن فكل يعرّب على هواه ، فقد قرأت اسم شاعر
الامان صاحب فوست اشكلاً متعددة . ان اصح تعريب هو كلمة
رومنطقي ، وهي مطبوعة على غرار العرب في التعريب .

ويحدثنا الدكتور محفوظ ويشير قسطاً من الاعجاب حول هذا البيت :

ولو استطاع . لقد جرى مجرى الوشاح على حشاها

فهذه الفكرة ، التي غالى في وصفها وتحليلها ، بسيطة جداً . وردت لغير
الشريف وقد ترد كل يوم ، وفي كل ساعة ، عند ذوي العيون النهمة حتى
صارت مبتذلة .

ويكتب فصلاً شائعاً قيماً عما يلبس بالشعر الرمزي ، ولا عيب في
هذا الفصل الا انه كلف نفسه فيه مناقشة الاستاذ الزيات حول شعر ابن
الفارض . فيقول الدكتور محفوظ ان البيتين والثلاثة في القصيدة لا تكفي
لاعتبارها شعراً رمزياً ، فلو كان لابن الفارض ثلاث قصائد كاملة من
مرتبة هذين البيتين المليئين بالصور الجميلة :

وفي مساقط انداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج

وفي مساحب اذيال النسيم اذا اهدى الي سحيراً اطيب الأرج

لجاز لنا ان ندعوه شاعراً رمزياً ، ولكن بكل اسف لا نجد له سوى
ايات متفرقة فقط غير كافية للباسه التاج الرمزي الصحيح .

قلت : وهل للشريف الرضي قصائد كاملة ! اقول هذا وانا مثل
الدكتور محفوظ لا ارى الرموز الصوفية شعراً رمزياً كما نفهم الشعر
الرمزي الاوروبي .

ويقابل الدكتور محفوظ بين الشريف الرضي وشعراء الفرنجة الرمزيين
فيوفق توفيقاً حسناً وان تكلف . ويحاول تهشم شعرائنا المتقدمين

ليثبت قضيته التي اثارها حول شاعرنا الشريف . ثم يعجب حتى يفوق
عجبه العجب باتفاق رنبو صاحب « المركب السكران » وشريفنا صاحب
« العرف السكران » حتى كدت اقول ان كتاب محفوظ يدور
كله حول هذا البيت دوزان القمر حول الارض :

كم نفحة لك كالطيمة مسرا ها نوم وعرفها مثل
ويعجب محفوظ بيت آخر للشريف :

تراحم النجمه للافول والبدر في اثر ذاك الزحام
فيقابله بقول شعراء الغرب وينسى « نابغتنا » القائل : وليس الذي
يرعى النجوم بأيب .

ويغالي الدكتور محفوظ جداً في استخراج الصور كأنها كل شيء ،
مع ان الشعر الرمزي يقوم على الموسيقى قبل الصور . وهذا رأي
العرب في الشعر ايضاً فقالوا عن البحتري : اراد ان يشعر فغنى .
وقال الجاحظ : الشعر لا يستطيع ان يترجم ولا يجوز عليه النقل ، ومتى
حول سقط موضع التعجب منه . ولهذا اتعجب كيف ان الدكتور
لم يسهب في وصف موسيقى الشريف الشعرية ، مع انها موسيقى فائقة
يضارع فيها البحتري شيخ النغم الشعري . ولكنها ويا للأسف غير
موجودة في الابيات التي طبقتها محفوظ على الاصول التي وضعها
« مشترع الرمزية » مالمه . . .

اما « الدزينة » من الصور التي استخرجها محفوظ من بيت الشريف
هذا :

كم فيك من مهجة معذبة هجيرها بالنسيم يلتطم
فدهشة حقاً ، وادهش منها تفتيشه دائماً عن بيت رديء او وسط
عند المتنبي ليقابله بما قاله الشريف . واني لأعجب من الدكتور حين

يطيل الثناء على هذا الشطر للشريف : « ترى العين ما لا تنال اليد »
ثم يقول عن بيت المتنبي :

تركت السرى خلفي لمن قل ماله وأنعلت افراسي بنعماءك عسجدا
ان في استطاعة كل انسان ان يقول : ملأت جيوبى ذهباً ، او
ملأت داري ذهباً ، وأنعلت خيلي ذهباً وعسجداً . ونحن نقول له :
ان شطر الشريف ، وان اجاد نظمه ، هو ايضاً نظم قولنا العامي :
العين بصيرة واليد قصيرة . . .

ما هكذا تقاس الفنون يا نطاسي ، وما هكذا يقابل بين شاعرين
عظيمين كالشريف والمتنبي . فكل فذّان يستقي من الواقع ، ولكنه
يخرج فكرته كما تخرج النحلة عسلها ، أي مطبوعة بطابع نفسه ، فرويداً
رويداً . ولا تنس ان الشريف ترسم خطى ابي الطيب .
لقد اجاد الدكتور فأفاد حين حدد الشعر الرمزي وذكر أسسه
واصوله . ولم يفته ذكر عيوبه فحذر جماعة الرمزيين بقوله : فنقع في
العيب الذي وقع فيه الادب الرومنطقي حيث كانوا يعيبون على شعرائه
تكرار بعض عبارات .

لقد وقعتم يا صاحبي - ان كنت منهم - وابتذل شعركم ، كما قلت
لكم غير مرة ، واصبحتم ترتطمون في تعملكم . فحذار !
وكأنه تصور ان الشريف الرضي شاعر رمزي حقاً فقال (ص ٩٦)
بعد ان بين العيوب التي وقع فيها الشعراء الرمزيون : ان عبقرية الشريف
المدهشة لم تقع في واحد من العيوب المنسوبة الى الادب الرمزي والى
اسلوب شعرائه . . . انها لغربية تلك العبقرية التي تتجرد من نفسها لتنتقد
ذاتها بذاتها .

فالجواب : ان الشريف الرضي ليس بشاعر رمزي كما يشاء الحكيم

ان يكون ، ولكنه شاعر ملهم ، له استعارات وتشابيه طريفة أرشده
اليها ذوقه الرفيع ، واسلوبه الفذ ، ولغته الجزلة ، وقد سبقه الى هذا ابو
تمام . أما انه واضع اسس الرمزية قبل بودلير فلا يا صاحبي . وهل للرمزية
اسس تتجرد كل التجرد من المدارس التي سبقتها ؟

اما تعجب الحكيم من خاصة النقد عند الشريف فلا داعي له ، فهذه
خاصة لا بد منها لكل فنان في الادب وغيره ، وان حرم منها فلا يقول
شيئاً يذكر ، بل يضع السكر والملح في طبخة واحدة .

تهياً يا قارئني فنحن قادمون على « مآتم » ، مآتم طويل يدوم خمسة
اسبوع واكثر ، فلا ترع . مآتم حول بيت قاله مولانا الشريف واليكه :

تلذ عيني ، وقلبي منك في ألم فالقلب في مآتم ، والعين في عرس
من عادة المآتم ، حتى الملوكي منه ، ان يدوم اسبوعاً ، اما المآتم
الذي اقامه الحكيم فظل خمسة وثلاثين يوماً ، اي ٣٥ صفحة من القطع
الكبير . راح ، آجره الله ، يحدثنا عن « المآتم » في الشعر العربي
من ابي تمام حتى شوقي ، فخلنا نفسنا في مآتم حقاً . لم ينس مآتم البحري
في ابوان كسرى ، ومآتم شوقي في الحمراء ، ولست ادري لماذا أتعب
المؤلف نفسه كل هذا التعب وجاءنا بكل هذه المآتم . لا علاقة بين مآتم
الشريف وبين أي مآتم آخر الا المآتم الذي اقامه قبله حبيب الطائي ،
حيث يقع فيه الحافر على الحافر بين الشاعرين ، كما عبّر قبلنا ابن الاثير ،
واليك قول ابي تمام :

أسكن قلباً هائماً فيه مآتم من الشوق الا ان عيني في عرس
وتعصّب الحكيم لشاعره - وهو شاعرنا الذي نحبه لأنه عشير الصبا -
فقال : ان الشريف لم يطلع على بيت ابي تمام هذا . قلت : ان اطلاع
الشريف لا يضيره يا دكتور ، فلا تعن نفسك ، فأبيات الشريف الاربعة

التي اوردها هي خير ما قيل في الشعر العربي اظهاراً للتحرق ، وهي من الشعر « الناعم » جداً ، كما تعبّر عن شعرك الرمزي ، ولا بد من ايرادها تبريراً لمغالاتي :

خذي حديثك من نفسي عن النفس وجدّ المشوق المعنى غير ملتبس
الماء في ناظري ، والنار في كبدي ان شئت فاعتري ، او شئت فاقبسي
كم نظرة منك تشفي النفس عن عرض وترجع القلب مني جد منكس
تلد عيني ، وقلبي منك في ألم فالقلب في مآثم ، والعين في عرس
فالشريف هنا ، وفي كل مكان ، يبدأ تمام ديباجة ، اما المعاني فذاك
ربها ، كما وصفه ابن الاثير . ولم يكتب الدكتور بنهاية المآثم العربي
حتى نقله الى اوربا فجاءنا بما قاله فرلين في هذا المعنى ، وقال هو
ان القصد من هذه الابحاث هو تحليل الادب الدقيق . وقلت انا : ولكنه
تحليل طويل يحلّ المفاصل . . .

ومن عادة المآثم ان يعقبه البحث في زوال الدنيا ، وهكذا كان ،
فشرح لنا الحكيم بيت الشريف العذب :

وقفات على غرور واقدام على مزلق من الحدثان
وحدثنا حديثاً قيماً عن الصور الفارغة والمتناقضة ، وليس هنا باب
التحدث عنها ، فالكتاب ضروري للمكتبة العربية ، فليطالعها الراغبون في
الفن الرفيع ليعرفوا الصور الفارغة والمتناقضة وكيف تصنع .
قد رأيت ان عند الدكتور اشياء لم يقلها ، فعسى ان لا يجرمنا
منها في جزء تالٍ ، ولا عيب في كتابه هذا الا التكرار واللف
والدوران ، واخلاله قد اضطر الى ذلك اضطراراً .

لقد طبّق الفصل اذ اهتدى الى الشريف ، فهو وابن المعتز ملكان ،
والتأنق من صفات الملوك . وقد يصح هنا القول العربي المأثور : كلام

الملوك ملوك الكلام .

ان للشريف خاصة موسيقية فريدة في شعره الذي يرسله عفو الحاطر ،
اما حين يتكلف الاستعارات البعيدة ، او الرمزية ، فقد رأيت يفقد كثيراً
منها . ناهيك ان هذه الاستعارات الجميلة هي في ديوانه الضخم كشدور في
منجم ، وقد ادرك بُعد غوره القدماء فاساروا الى ذلك ، وما أخرهم عن
وضعه مع المتنبي الا لان شعره يجري في مستوى واحد ، فليس له وثبات
ابي الطيب ولا اسفاهه .

ان للشريف مقدرة عظمى على تحمیل الكلمة ما تطيق ، فتبرز فكرته
ناتئة كأنها تفويف الرخام أخرجه ازميل نحات حاذق . وللشريف شخصيتان
بدوية وحضرية . فللشريف البدوي كل صفات الشاعر القديم الا الحشونة .
وللشريف الحضري ليونة الاطلس ونعومة الخمل .

فينما تسمعه يرثي بدوياً تخالك أمام شاعر جاهلي اذ يقول :
منابت العشب لا حام ولا راع - مضى الردى بطويل الرمح والباع
ثم يحتمها بقوله :

استودع الارض خلاني لتحفظهم - لقد وثقت الى هوجاء مضياع
واذا تغزل قال :

يا حبذا منك خيالٌ سرى فدلّه الشوق على مضجعي
ان الشريف من أحلى شعرائنا استعارة وأبلغهم تشبيهاً ، ولو كنا من
معاصريه ، رضي الله عنه ، لقلنا فيه بيته هذا :

خلا منك طرفي ، وامتلا منك خاطري - كأنك من عيني ، نقلت الى قلبي
عاشت العبقريّة ، والاخلاق الرضيّة ! انه لشريف حقاً .

الموشحات

بشار بن برد أول شاعر تغنّى بتسهيل الشعر فقال معتداً بشعره :
 وشعر كنور الروض لامت بينه بقول اذا ما انجد الشعر اسهلا
 اما الذين سهّلوه حتى أسهّلوه فاولئك هم شعراؤنا المغاربة . ثاروا على
 القوافي والأوزان وقالوا الشعر بالكلام الجاري على السنتهم ، في جميع
 الأغراض التي قاله فيها المشاركة . تهافتوا على الشعر متعمدين السهولة
 الفائقة فصحّ فيهم قول الشاعر : زاد في الرقة حتى انفلقا . . . لست أطيل
 الكلام وحسبي نموذجان أخذتهما عن ابن خلدون ، قال : « وذكر الاعلم
 البطليموسي انه سمع ابن زهير يقول : ما حسدت قط وشاحاً على قول
 الا ابن بقيّ حين وقع له :

ما ترى احمد ، في مجده العالي لا يلحق اطلعه الغرب ، فأرنا مثله يا مشرق
 ثم انتقل الى رواية أخرى فحدّث عن الحكيم ابي بكر بن باجة انه
 حضر مجلس مخدومه ابن تيفوليت صاحب سرقسطة ، فألقى على بعض
 قيناته موشحته :

جرّر الذيل ايما جرّ وصل الشكر منك بالشكر

فطرب المدوح لذلك لما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلاء ابي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفوليت صاح : واطرباه ! وشقّ ثيابه

وقال : ما أحسن ما بدأت وختمت ! وحلف بالأيمان المغلظة لا يمشي ابنه
باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن
يجعل ذهباً في نعله ومشى عليه . »

فليحكم القارئ في نفسه ، ثم لا يظن ان القريض الاندلسي كله
من هذا الحوك ، ففيه انماط وضروب مختلفة . وقد كان في المغرب شاعر
يضارع المشاركة ويجاريهم هو ابن هاني ، كانت تتجاوب في نفسه اصدااء
الشرق فيحاكيها بكلام يقفز قفزاً ويجز جزءاً ، وما رأيت ابا العلاء
عادلاً ، اذ نقده ، فشبه شعره برحى تطحن قروناً ، فللرجل موسيقى
وفنه ، وليست مبالغاته من نوع المبالغة الشعرية المعهودة ولكن شاعر
الفاطميين الاكبر يستوحي عقيدة راسخة فتحت مصر بقوة ايمانها وسيفها ،
والشاعر على دين ملكه .

واذا استعرضنا شعراء الاندلس رأينا فيهم شعراء لم يتناهاوا في هذا
الشطط ، كابن زيدون ، وابن خفاجة ، وابن عبد ربه ، وابن الخطيب ،
واذا قرأت موشع هذا الاخير « جادك الغيث اذا الغيث هما » هبت
عليك منه رائحة الشرق ، وادركت انهم لم يبتلوا جميعاً بالفالج الادبي
الاندلسي .

لست انعى على الاندلسيين سهولتهم ، ولا صورهم الحلوة ، ولا الوانهم
المتألقة ، ففي شعرهم حلاوة السحر البياني وخفته ورشاقتة كما في هذا
المقطع الرشيق :

كحل الدجى يجري ، من مقلة الفجر ، على الصباح

ومعصم النهر ، في حلل خضر ، من البطاح

ولكني انعى عليهم ما انعاه على شعرنا الشرقي ، وهو هذا التشابه ،
فلا تكاد تقرأ موشحاً او موشحين حتى تعلم انك أتيت على كل ما عنده

القوم ، ولست تخرج من هذا الجوّ الشعريّ مها قرأت ، وهكذا أصيب شعراً الغربي بما ابتلي به شعراً الشرقي .

اما المأثرة التي لا تنسى فهي سبقهم الناس اجمعين الى هذا النمط من الشعر . جاء في مقدمة مجموعة الازجال والموشحات للشيخ فيليب الحازن : « ان القافية لم تكن معروفة في اوروبا ، قبل عهد العرب ، فانما هم الألى ادخلوها اسبانيا في بدء القرن الثامن ، كما حقق العالم السيد هويت اسقف افرانش ، ولم تنتشر في المانيا الا في القرن التاسع على يد الراهب اوتفريد الالمانى . اما القول بأن القافية كانت معروفة قبل ذلك العهد استدلالاً بقصيدة لاتينية التزم فيها ناظمها القافية ، على كونها منسوبة الى القرن السادس ، فليس ذلك بحجة واردة على اسقف افرانش ولا يقدر في صحة قوله المار ذكره ، اذ ليس في كتب العروض عند اللاتين من ايماض الى القافية في ذلك التاريخ . فضلاً عنه فان المنظومة اللاتينية المستشهد بها لم تكن معروفة حتى المئة الثامنة عشرة . وباعثها من مدفن جهالتها وخمولها انما هو العالم لويس انطون ميراطورى .

« فلو سلمنا بتعارف القافية في اوروبا منذ المائة السادسة لورد علينا الاحتجاج بعدم استعمالها حتى القرن التاسع ، فبطل الاول لثبوت الثاني ، ولا عبرة ببعض مزدوجات جاءت في شعر « اوفيد وفرجيل وانيوس وهوراس وفادر » فانه من النادر او النزر القليل الذي لا يصلح حجة للقائل بغير قول السيد هويت ، خصوصاً وان نقدة الكلام قد حملوا ما ورد من الشعر المفقى لأولئك الشعراء على قصد الافتتان الخاص بهم دون غيرهم ، يؤيده ان شعراء اوروبا لم يحتذوهم فيه على المثال ، وانما لزموا سنن الشعر اللاتيني حتى جاء العرب اسبانيا مستصحبين كتاب عروض شعرهم ، ومداره القافية ، فاخذها عنهم الفرنج وجعلوها اساساً

لكتب عروضهم .

« اما الموشحات فاستحسنها شعراء الفرنجة من الاسبان والجرمان والطلبان والفرنسيين ونسجوا على منوالها كما يرى في ديوان الاغاني الاسبانية الالهية الموسوم Le Romancero وديوان القوافي Les Rimes لفرنسيسكو بتاراك احد فحول شعراء ايطاليا الذين ظاهروا على النهضة الادبية في القرن الرابع عشر ، وكما يظهر من المنظومات الاوروبية المعروفة عندهم ، وقد نظم على هذا الاسلوب شاعر فرنسا العالم المشهور فكتور هيفو في ديواني شعر له عنوانهما : Odes et Ballades Les Orientales ولا مرأى في ان العرب هم السابقون الى هذه الطريقة بدليل ان شعراء الفرنجة في اوربا لم يألفوا اساليبها ولا انسوا من انوارها رشحاً الا في اواخر القرن الثالث عشر . »

لا شك ان الموشحات طراز معلم من الشعر ، وها هو الشعر الاوربي اليوم يمشي في تلك الجادة التي اختطوها ومهدوها في دنيا الشعر منذ عشرة قرون . لقد تبعهم العالم الادبي العالمي وتخلف عنهم اخوانهم في الجلدة واللسان ، وكانت اليقظة اللبنانية فسمعنا في فجر القرن التاسع عشر صدى هذه الانعام في قصر امير لبنان . مدّ شعراء الامير بشير ايديهم الى تلك القيثاره فاهتزت اوتارها . سمعنا نقولا الترك يهتف : بأبي عهد التهاني والصفاء ، الخ . وسمعنا بعده بطرس كرامة ينشد مهناً بقدم مياه الصفا الى دار الامير :

صاح قد وافى « الصفا » يروي الظما بشراب كوثرى العس
وأفاض الشهد في روض الحمى لجلا الغم وبرء الأنفس
الى ان يقول مادحاً اميره :

سيد أهدي المعالي سؤددا وحباها كل عز شامل

خرق الصخر واجرى موردا - فاض من نهر الصفا بالنائل
 انشدت من كفه سحب الندى لا يضيع الله اجر العامل
 فبأعيان ثناه قد سما غزلي لا بالعيون النعس
 ويمّاس قناه نظما عقد مدحي لا بقدر اميس

ثم انتشر ابناء لبنان في اقطار المسكونة ضاربين في مناكبها مترنمين
 بلسان عربي مبين ، فخلقوا في كل قطر من اقطار العالم اندلساً جديدة .
 اطلقوا الشعر العربي من اقفاصه ، ولقحوه بدم جديد . البسوه حللاً
 طريفة دون ان يطمسوا ملامحه او يخفوا العروق الاصلية التي تمتاز بها
 كل امة من غيرها . فكانت له الملاحاة الاندلسية دون ان ينزلوا به الى
 الميوعة التي ابتلاه بها بعض شعراء الاندلس .

ابن الفارض

وتمرّ قرون ينقطع فيها صدى الموسيقى العربية الضخمة ، ويركض
الشعر ركضاً نحو السهولة ، فتسمع الاقطار العربية صوت شاعر رخيماً ناعماً .
كان شعر ابن الفارض نموذجاً للشعر السهل المتناسك ، يرينا ان السهولة
حدّاً يجب ان لا تتعداه . والشاعر ، في هذا النحو من الشعر ، طائر
لم تألفه دوحة الشعر العربي ، وان لم يكن غريباً عنها . يحكى عن هذا
الشاعر « الرباني » انه بلغ في تصوّفه ذروة « الوجد » . ويروون عنه
احاديث غيبوبات لا محلّ لذكرها في كتابي . ولكن الذي أستشفّه من
شعره السهل الرصين يحملني على تصديق جميع تلك الروايات . فأبيّ « وجد »
يجده القلب البشري في شعر الشعراء اكثر مما يجد في ديوان شرف الدين ،
العارف بالله ، ابن الفارض :

غيري على السلوان قادر	وسوي في العشاق غادر
لي في الغرام سريرة	والله اعلم بالسرائر
يا ليل ما لك آخر	يرجى ولا للشوق آخر
لي فيك أجر مجاهد	ان صح ان الليل كافر

زدني بفرط الحب فيك تحمّرا	وارحم حشا بلظى هواك تسعّرا
واذا سألتك ان اراك حقيقة	فاسمع ولا تجعل جوابي لن ترى

ته دلالةً فأنت اهل لذاكا وتحكم فالحسن قد اعطاكا
ولك الامر فاقض ما انت قاض فعليّ الجمال قد ولاكا
وتلافي انت كان فيه اثلافي بك عجل به جعلت فداكا

قلبي يحدثني بأنك متلفي روحي فداك عرفت ام لم تعرف
ان لم يكن وصل لديك فعده املي وماطل ان وعدت ولا تف
يا ما اميلح كل ما يرضى به ورضابه يا ما احيله بفي
ان زار يوماً يا حشاي تقطّعي كلفاً به ، او سار يا عين اذرفي
ما للنوى ذنب ومن اهوى معي ان غاب عن انسان عيني فهو في

ما بين معتوك الاحداق والمهج انا القليل بلا اثم ولا حرج
اعوام اقباله كالיום في قصر ويوم اعراضه في الطول كالجرج
قل للذي لامني فيه وعذّفتني دعني وشأني ، وعد عن نصحك السمج
تراه ان غاب عني كل جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
لم ادر ما غربة الاوطان وهو معي وخاطري اين كنا غير منزّج

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضى به وله عقل
وعش خالياً فالحب راحته عنا واوله سقم وآخره قتل
اذا أنعمت نعم عليّ بنظرة فلا اسعدت سعدى ولا اجملت جمل
ارأيت ان « نعم » ذات حظ سعيد عند كل الشعراء ؟ فهي حتى
عند ابن الفارض ، اكبر حظاً من سعدى وجمل . لقد قدمتها الصناعة التي
عيب بها شعر الشيخ ، ولكنها صناعة قلّما يحس بها القاري ، لأن جراح
الشاعر سخنة ، والجرح لا يشعر بألمه الا متى برد .

حقاً ان ابن الفارض شاعر الوجد ، وسواء عندي ألهياً كان ام
انسانياً . . . فهو وجد لا نظير له في كل حال ، والاعمال بالنيات .
لمت هذا الشاعر وهو حموي الأصل ، مصري الدار ، وعجبت منه ، وهو
الشاعر الحادّ الشعور ، كيف لا يحنّ الى « العاصي » ولا يذكر النيل ، فيقول :
أرواح نعمان هلاًّ نسمة سحراً وماء وجرة هلاًّ نهلة بقمي
ان الجمرة لا تحرق الا حيث تقع ، وقد تكون أرواح نعمان وماء
وجرة ، في عرفهم ، كمدامة هذا الشاعر التي شربها على ذكر الحبيب ،
فسكر بها من قبل ان يخلق الكرم .

القليل من الصوفية يستملح ويستحلي في الشعر لأن المادية الصاخبة
كمادية الشعر الجاهلي تجذّفه ، ولكنه يستهجن ايضاً متى صار صوفياً كله
وبلغ الحد الذي بلغه مع هؤلاء الشعراء فيقول ابن عربي مثلاً :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
وبيت لأوثان وكعبة طائف
أدين بدين الحب أين توجهت
ومع ذلك ارانا نستسيغ هذا الشعر ونقبله متى سمعنا قول شيخنا
العارف بالله ، قدّس الله سره :

ثوت في فؤادي وهي قبلة قبلتي
بما تمّ من نسك وحجّ وعمره
وأشهد فيها أنها لي صلّت
حقيقته بالجمع في كل سجدة
كذاك صلاتي لي ومّني كعبي
ولاغرو ان صلّى الامام اليّ ان
وكلّ الجهات الست نحوي توجهت
لها صلواتي بالمقام أقيمها
كلانا مصلّ واحد ساجد الى
وبي موقفي لا بل اليّ توجهي

ان هذه « الشطحات » تبكي وتضحك ، واليك قول احد شعرائهم ،
فاسمع كيف يعتذر عنها :

انا الحق في عشقي كما ان سيّدي هو الحق في حسن بغير معيّة
 فان كنت في سكري « شطحت » فاني حكمت بتمزيق الفؤاد المغنّت
 سقوني وقالوا لا تغنّ ، ولو سقوا جبال حنين ما سقوني لغنّت
 وعلى ذكر هذا العشق العنيف نروي بيتين موجّهين الى هذه « الجماعة » :
 أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهم وأهون بالحلّول
 أقال الله حين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي
 رحم الله شيخنا فقد كان رجلاً صالحاً . ان الحب ، على جميع انواعه ،
 مستبد جائر ، وقد ادرك هو ذلك فوصفه ادق وصف ، ولكنه وان
 اعمى واصمى ، فهو ، وحده ، يخلق مثل هذا الشعر ، اما الآن فلننتقل
 الى ساحة شاعر آخر ، أحب مثلاً نحب ، ولم يحدثنا احاديث غريبة لا
 يفهمها الا الراسخون في العلم . . .

بها، الدين زهير

الشعراء كالطيور . منها الكناري والحسون . ومنها الغراب ومنها
الحجل والحمام . لم يستطع الفرزدق ان يكون كجبر ، ولا ابو تمام
كالبحري . في الاستطاعة التكيّف والتجويد ، وليس في الامكان خلق
شيء من لا شيء ، فهذان شاعران معاصران جريا في ميدان واحد ،
ميدان الحب والغزل ، الاول وهو ابن الفارض تغنى بوجدته العنيف بصوت
وخيم وسهولة عظيمة ، ولكنه في كل حال يختلف اختلافاً كبيراً عن بهاء
الدين زهير الذي جاء شعره كأنه الكلام الجاري ، لولا الوزن والقافية .
ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشعر الخفيف ، ولا عجب ، فليس للفن
عبارات ثقيلة او خفيفة .

تقرأ ديوان زهير من الجلد الى الجلد ، فلا تلتقي وجهاً غريباً تنكر
معرفته من وجوه اللفظ . يجري الشاعر في نظمه كله على نط واحد ،
ولا تملّ حديثه لأنه حديث كل قلب ، ولأنّ قائله خفيف الروح
ظريف ، لا يكلّف نفسه فوق طاقتها . وقد أدرك انه الطائر الفريد في
جنات الشعر العربي فقال يخاطب مولاه الملك الصالح ، نجم الدين ايوب :

هذا زهيرك ، لا زهير مزينة وافاك لا هرماً على علاّته

دعه وحوليّاته ثم استمع لزهير عصرك حسن ليليّاته

واذا تحدث متوسلاً الى الحبيب فبهذه اللهجة الحلوة العذبة :

تعيش انت وتبقى
حاشاك يا نور عيني
قد كان ما كان مني
ولم اجد بين موتي
يا أنعم الناس قل لي
سمعت عنك حديثاً
حاشاك تنقض عهدي
فما عهدتك الا
يا الف مولاي ، مهلاً
لك الحياة فاني
لم يبق مني الا

واذا كتب اليه لائماً على الهجر فهذه الرقة والاقتات :

اقراء سلامي على من لا اسميه
ومن اعرض عنه حين اذكره
أشرب ذكرى في ضمن الحديث له
واسأله ان كان يرضيه ضنى جسدي
هل كنت من قوم موسى في محبته
من مثل قلبي او من مثل ساكنه
واذا مال هذا الحبيب عن خياله ، ارسل اليه البهاء يعذّفه ، ولكن
تعنيف البهاء كما يقول مثلنا : ضرب الحبيب زبيب وحجارته رمان .
فانظر الى هذه الحجارة :

نراكم قد بدا منكم
وعرّضتم بأقوال
أمر ما عهدناها
وما نجعل معناها

كشفت بيننا أشياء
وكم جاءت لنا عنكم
وأشياء رأيناها
قرأنا سورة السلوان
وما زلتم بنا حتى
فرجل تطلب المسعى
وعين تتمنى أن
ونفس كلما اشتاقت
وكانت بيننا طاق
ولو انكم جنّات
وأما الحالة الأخرى
وقد ماتت وصلينا
هجرنا ذكرها حتى
وفي النفس بقايا من
فلو ارضتكم الارواح

وله في هذا الصدد كلام يستحق الذكر لسهولة وخفته وسرعة

جريه ، قال :

أما تقرر انّا
وقد اتيناك زحفا
ولم يكن لك عذر
فلا تلمنا فازّا
فلم تأخرت عنا
وانت تهرب منا
ولو يكون علمنا
قلنا وقلنا وقلنا

وأخيراً نخطو شاعرنا الخطوة الاولى نحو الصلح ، فيستسفر الى الحبيب

من يحمل اليه هذه العروض الاخيرة :

من اليوم تعارفنا
ولا كان ولا صار
وان كان ولا بد
فقد قيل لنا عنكم
كفى ما كان من هجر
وما احسن ان نرجع

ونطوي ما جرى منّا
ولا قلتم ولا قلنا
من العتب فبالحسن
كما قيل لكم عنا
وقد ذقم وقد ذقنا
للوصل كما كنا

وكان هذه الخطوة نحو السلام الزهيري قد كملت بالنجاح فسمعنا

البهاء يتغنى :

سمع الناس وقلنا
شكر الله لمن بشر
لي حبيب لي منه
كان غضباناً فلما
يتجنى ولعمري
جمع الحسن وفيه
هاتِ حديثي وقل لي
نحن لا نسأل عنه

وافترضنا واسترحنا
بالوصل وهنّا
كل شيء أتمنى
ان تلاقينا اصطلاحنا
حقه ان يتجنى
غير ذاك الحسن معنى
ما على العاذل منا
ما له يسأل عنا

ثم عادت حليلة الى عاداتها القديمة فعاد الشاعر الى بث شكواه ، مطارداً

ذلك الغزال كأنه يطلبه بدين :

قد طال في الوعد الامد
ووعدتني يوم الخميس
واذا اقتضيتك لم تزد
فأعدّ اياماً تمرّ
وتقول أوصيت الخطيب

والحر ينجز ما وعد
فلا الخميس ولا الاحد
عن قول اي والله غد
وقد ضجرت من العدد
فهل نفوه من البلد

واذا اتكلت على الحطيب فما اتكلت على احد
ولا يخلو شعر الوزير من الصنعة ، ولكنه نمش لا يضير ذلك الوجه
الجميل كقوله :

اقول اذا ابصرته مقبلاً معتدل القامة والشكل
يا الفأ من قدّه أقبلت بالله كوني الف الوصل
وكقوله هاجياً :

لعن الله « صاعداً » وأباه فصاعداً
وبنيه فنازلاً واحداً ثم واحداً
والبهاء كان ككل عاشق مبتلى بالثقل الذين لا يعرفون متى ينصرفون ،
فاسمعه يئن منهم :

لي مجلس ما رمت فيه خلوة الا اتاح الله كل ثقل
وخير ما نخص بالذكر في هذا المقام قوله ايضاً :

كلما قلنا استرخنا جاءنا الشيخ الامام
فاعترانا كلنا منه انقباض واحتشام
فهو في المجلس قدم ولنا فهو فدام
وعلى الجملة فالشيخ ثقیل والسلام

وأخيراً يلتقي الشاعران الروحاني والجسداني - ابن الفارض والبهاء -
وكل منهما يدعي عقد لواء الحب له . قال ابن الفارض :

نسخت بحببي آية العشق من قبلي فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل
وكل فتى يهوى فاني امامه واني بريء من فتى سامع العذل
ويقول ايضاً :

وملك معالي العشق ملكي وجندي المعاني وكلّ العاشقين رعيّتي
اما الوزير فلا يخطر بباله ان يصوّر لنا زعامته بتعابير العلماء بل بلغة

الدول ، ولا عجب في هذا ، فهو وزير ملك قال :

رُفِعَتْ رايَتي على العشاق واقْدَى بي جميع تلك الرفاق
وتنحَّى اهل الهوى عن طريقي وانثنى عزم من يروم لحاق
سرت في الحب سيرة لم يسرها عاشق في الورى على الاطلاق
ودعاني تجول في كل ارض وطبولى يضربن في الآفاق
مثل العاشقون فوق بساطي في مقام الهوى وتحت رواق
ضربت سكة المحبة باسمي ودعت لي منابر العشاق
كان للقوم في الزجاجة باق انا وحدي شربت ذاك الباقي
شَفَّ السامعين درّ كلامي وتحلّت ايجادهم اطواق

فما قول صديقنا الشاعر بشاره عبد الله الحوري ، أيعترف بالامامة للبهاء ؟
البهاء يقول انه لم يدع للقوم شيئاً ، ووحده شرب ذاك الباقي في الزجاجة ،
وبشاره يقول انه أفرغ كأسه وحطّمها على شفتيه - انكسر الشر -
فلمن نحكم ؟ حقاً ان لبنان علم يتأثل امامي اين اتجهت ، ففيه كل مطلب .
ولكن ، ليس هنا مجال هذا البحث فنطيل الكلام .

وبعد ، فيلوح الشيب في رأس زهير ، فيقول :

نزل المشيب وانّاه في مفرقي لأعزّ نازل
وبكيت اذ رحل الشباب فآه آه عليه راحل
بالله قل لي يا فلان ولي أقول ولي اسائل
أتريد في السبعين ما قد كنت في العشرين فاعل
هيهات لا والله ما هذا الحديث حديث عاقل
قد صار من دون الذي تبديه من مزحٍ مراجل

ثم رأى ان المراح والأخيل تراجعها فقال :

قالوا كبرت عن الصبا وقطعت تلك الناحية

فدع الصبا لرجاله
ونعم كبرت وانما
ويفوح من عطفي
ويميل بي نحو الصبا
فيه من الطرب القديم
قلت : ما أشبه شاعرنا بذاك المنادي على بضاعته : ترمس أحلى من
الوز . . .

وقد مدح شاعرنا ، ولا بدع في ذلك ، فهو شاعر ملك . ورثي
ايضاً وأجاد الرثاء وله فيه قصيدة لم يوفق الى مثلها في قوة العاطفة الا
التهامي في رثاء ابنه ومطلعها :

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
اما البهاء فاليك بعض ما قال في هذا المراثي ، ولا تعجب فالبهاء هو
هو في كل اغراض شعره ، تظهر شخصيته بارزة ناتئة :

أراك هجرتني هجراً طويلاً وما عودتني من قبل ذاكا
يعز عليّ حين أدير عيني اقتدّش في مكانك لا أراكا
وياخجلي اذا قالوا محبٌ ولم أنفَعك في خطبِ أتاكا
تموت وما أموت عليك حزناً وحق هواءك خنتك في هواكا
فيا من قد نوى سفرّاً بعيداً متى قل لي رجوعك من نواكا
فيا قبر الحبيب وددت أني حملت ولو على عيني ثراكا

ان ديوان البهاء ، على صغره ، جامع لجميع اغراض الشعر حتى
وصف الحُرّة . اما اختصاصه ففي الناحية التي ذكرناها . فهو شاعر
الحب في هذه الحقبة الجافة ، وقد ملأ صوته الرخيم هذه الصحراء القاحلة
من التاريخ الأدبي فأنعشها وآنسها .

فشاعرنا ، بخلاف ابن الفارض والمتنبي وغيرهما من الشعراء النازحين ،
 قد ابتلي بداء « الحنين الى الوطن » وقال فيه ، واليك شيئاً من ذلك :
 أحنّ الى عهد المحصّب من منى وعيش به كانت ترفّ ظلاله
 ويا حبذا أمواه ونسيمه ويا حبذا حصاؤه ورماله
 فكم لي بين المروتين لبانة وبدر تمام قد حوته حجاله
 وأذكر أيام الحجاز وانشي كأنّي صريع يعتريه خباله
 ويا صاحبي بالحيف كن لي مسعداً اذا آن من بين الحجيج ارتحاله
 وخذ جانب الوادي كذا عن يمينه بحيث القنا يهتز في طواله
 هناك ترى بيتاً لزيب مشرقاً اذا جئت لا يخفى عليك جلاله
 فقل ناشداً بيتاً ومن ذاق مثله لدى جيرة لم يدر كيف احتياله
 وكن هكذا حتى تصادف فرصة تصيب بها ما رمته وتناله
 فعرّض بذكري حيث تسمع زينب وقل ليس يخلو ساعة منك باله
 عساها اذا ما مرّ ذكري بسمعها تقول فلانّ عندكم كيف حاله
 انك عندنا في احسن حال ، ولا نعدل بك الكثيرين من الشعراء .
 حسبك انك وجدت ذاتك ، ولم تنسحب على ذيل غيرك . فطب نفساً
 وقرّ عيناً .

رؤوس صغيرة

في عالم الأدب كما في كلِّ العوالم حظوظ ونجوت ، فبعض الشعراء
خُلِّدوا بقصيدة كما خُلِّد غيرهم بديوان ، اما وللموت سنّته
ايضاً في عالم الأدب ، فمنهم من يحيا اجيالاً بعد موته ، ومنهم من
يموت « أدبياً » ساعة تنطفئ حياته . ومنهم من يموت وهو حي ، كما
قال برنارد شو في زميل له : كتب خير ما عنده في الأربعين ، فليُكتب
على قبره : مات في الأربعين وأجّل دفنه الى الثمانين . لقد صدق شو ،
فالذين يؤجل دفنهم كثيرون . . .

اما الذين عُرفوا بقصيدة تدور ابياتها على أغلب الألسن ، او يذكرها
الناس ، فالطغرائيّ عاش بلاميته المعروفة بلامية العجم ، كما عاش الشنفرى
باللامية المعزّوة اليه ويعرفها الناس بلامية العرب . والسموأل اشتهر بلاميته ،
كما عرف ابن النّيه وابن سناء الملك بالناس للموت كخيل الطراد ،
وبسواي يهاب الموت او يرهّب الردى . وطار صيت : علوّ في الحياة
وفي الممات ، حتى كدنا ننسى اسم صاحبها ، وكذلك قصيدة لا تعذّله ،
كما اشتهر البوصيري ببردته الرائعة ، وابو البقاء الرندي بكل شيء اذا ما
تمّ نقصان ، والتهاميّ بحكم المنية في البرية جار . وكما بقي ذكر
ابن الورديّ بلاميته الشهيرة : اعتزل ذكر الغواني والغزل . وهناك
قصيدة : هل في الطلول لسائل ردّ ، التي لا يُعرف لها حسب ولا نسب

حتى صحَّ فيها قول الشاعر :

ماتوا وعاشت بعدهم فلذاك سميت « اليتيمه »

لقد ارتفعت اصوات من خلال العصور ، بعد البهاء زهير ، ولكنها
اصوات محاكاة اكثر منها اصوات ابداع . لم يكن كلامهم غير تقليد للذين
تقدّموهم . استوحوا القدماء لا الحياة والمحيط ، فقضي على اقوالهم بالفناء
كما يقضي القيط على النبات الضعيف الاصول ، ولا يدع الا ذا الجذور
المنسلّة الى الاعماق والفروع المتسامية الى الاعالي .

اسمع ما يقول احد هؤلاء الشعراء - ابن زيلاق - واصفاً الربيع ،
وقابله ، اذا شئت ، بقول ابي تمام وان كان قليلاً :

قم لا عدمتك فالرياح تغربل والرعد يطحن والغمام تنخل
والمسك قد عجن الثرى بسحيقه والعود يحرق ، والحميا تشعل
والدنّ تنور توقّد جمره الصهباء باطنه ، وفار المنزل

ألا تقول مثلي ، بعد سماع هذه الأبيات من قصيدته الطويلة ، ان
الشاعر ابن خبّاز ؟

ان خير ما سمعنا من الاصوات ، في هذه الحقة ، صوتان ارتفعا في
آن واحد . اولهما في العراق ، وهو صوت صفي الدين الحليّ ، الشاعر
الذي استعبده الصناعة اللفظية حتى اجتمعت في شعره جميع معايبها .
كان صفي الدين كالطفيليات يعيش على جذوع الاقدمين ، فخمّس وضمّن ،
ثم حاول اجتراح العجائب في الشعر - كما كان يظنّ - فراح ينظم لسلطانه
الذي فزع اليه من ظلم المغول قصائد سماها « درر النحور في مدائح الملك
المنصور » وهي تسع وعشرون قصيدة ، على كل حرف من حروف
المعجم . يبدأ بالحرف البيت ويختمه . واليك نموذجاً منها :

مغانم صفو العيش اسمى المغانم هي الظل الا انه غير دائم

ملكت زمام العيش فيها وطالما
« رفعت » بها لولا وقوع « الجوازم »
ارأيت كيف يبدأ بالميم التي هي قافية قصيدة ، ثم ارأيت « الرفع
والجزم » ؟ ان صفي الدين الحلبي لم يدع جريمة ادبية في النظم الا
ارتكبها ، قال القصائد طويلة وقصيرة ، والموشحات والازجال ، وكما نظم
ابن مالك النحو والصرف نظم الحلبي « بديعية » مطلعها :

ان جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم واقرا السلام على عرب بذى سلم
وكما اتبع ابن مالك ابنه ، واخيراً الشيخ ناصيف اليازجي ، كذلك
اقتفى عز الدين الموصللي ، وابن حجة الحموي ، وعائشة الباعونية ، وعبد الغني
النايلسي ، آثار الحلبي في نظم البديعيات ، واذ كان لا بد للبنان من ان
يجاري في كل شوط فقد سمعنا في القرن الثامن عشر صوت الحوري
نيقولاوس الصانع يرتفع ببديعيته متعمداً ذكر النوع ، كما فعل ابن حجة
الحموي ، ويغني - على ليله - كما غنى البديعيون قبله فيقول :

بديع حسن امتداحي رسل ربهم براعة في افتتاحي حمد برهم
وبعد قرن يقوم شاعر آخر لبناني هو الحوري ارسانيوس الفاخوري
فينظم ثلاث بديعيات لا واحدة . واليك مطلع احدها :

براعة المدح في نجم ضياه سمي تهدي بمطلعها من عن سناه عمي
وهكذا لا نرى للحلبي شيئاً جديداً - ان كان هذا شيئاً - الا سبقه الى
نظم فنون البديع في قصيدة ، ولكن بديعيته لم تصب من السيورة ما
أصابته « بديعية » الحموي فركدت ريجها .

اما شعر الحلبي فجار حين يتبع سجيته ، ولكنه لا يخرج ابداً من
دائرة التقليد ، فهو يعارض قصيدة المتنبي ليقول من الجناس :

اسبلى من فوق النهود « ذواًبا » فتركن حبات القلوب « ذواًبا »
بيض دعاهن الغبي كواعبا ولو استبان الرشد قال كواكبا

ثم شاء ان يكون له شعر مثل شعر البهاء زهير فقال ناحياً نحوه :

ان غبت عن عياني يا غاية الاماني
فالفكر في ضميري والذكر في لساني
ما حال عنك عهدي ولا انثنى لساني
شوقي اليك باقٍ والصبر عنك فاني

وشاء ايضاً ان « يتعنتر » فقال قصيدة معارضاً بها قصيدة « حكم سيوفك » ، ومدّ يده فيها الى نجم الشعر العربي فأخذ قوله :

تماشي بأيدٍ كدّما وافت الصفا نقشن به صدر البزاة حوافيا
فقال وقصّر تقصيراً شائناً :

فتظل ترقم في الصخور أهلاً بسنا حوافرها وان لم تنعل
اما الباقي على الألسن من شعر هذا الفاضل فقصيدته النونية المشهورة :
سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا
اما الصوت الثاني فهو صوت تعالى في الشام ومصر ، هو صوت الشاعر ابن نباتة ، معاصر الحلبي وصديقه الحميم . وكانت الحال في مصر ، حيث نشأ ، مثلها في العراق ، حال مخاوف واضطرابات ودسائس واستبداد . ان ابن نباتة ضريب الحلبي في شعره ، وهو مثله يستوحى الكتب لا الحياة . وكما ارتحل الحلبي ، كذلك هاجر ابن نباتة ، فجاء سوريا ثم عاد الى مصر . ولكن رحلات كلا الشاعرين عقيمة ، لم تتأثر بالمحيط . فظلت تتسكّع في ظلال دواوين القدماء فلم تورق بخير لنرجو الثمار الشهيّة . ولكن هناك أثماراً ، في كل حال ، أثماراً أشبه ما تكون بالتي تستقبلها الأسواق في سني المحل .

وفي اثناء مروري في ديوان ابن نباتة سمعت انيناً متصلاً ، وشكوى مرة ، فهو يندب حظه دائماً ، ويشكو جهل الناس قدره . فقير مسكين يطلب

حيناً بيتاً يسكنه حتى بلغ به نكد العيش ان طلب الحُبز . ان أحوال
ابن نباتة تشبه كثيراً حالات ابن الرومي وخصوصاً في موت بنيه . أما
شعر ابن نباتة فكشعر صفي الدين ، يتلمهى بالألفاظ ملتصاً الغذاء الفني
عندها . واذا عجز عن معنى يخلفه من لفظة مهّد بشيء من عنده لشرط
او بيت من شعر القدماء أَرْضَى به نفسه وسامعه . ومن أمثلة تضمينه
قوله :

يا تالي القول كتباً في لوحظه السيف أصدق انباء من الكتب
ومن امثلة تضمينه ايضاً ما كتبه لشاعرٍ صديقٍ أرويه للتفكهة :
فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً أفاطم مهلاً بعد هذا التدلل
بروحي ألفاظ تعرض عتبها تعرض أثناء الوشاح المفصل
فأحيين ودّاً كان كالرسم عافياً بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تعفّي رياح العذر منك رقومه لما نسجتها من جنوب وشمأل
نعم قوّضت منك المودة وانقضت فيا عجباً من رحلها المتحمل
أمولاي لا تسلك من الظلم والجفا بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل
ولا تنس مني صجة تصدع الدجى بصبح وما الاصبح منها بأمثل
فكم خدمة عجلتها ومحبة تمتعت من لهوٍ بها غير معجل
وكم اسطر مني ومنك كأنها عذارى دوار في ملاء مذيّل
وكم ناصح كذبت دعواه اذغدت عليّ وآلت حلقة لم تحلل
الى ان تبدّى عذره متمطياً وأردف اعجازاً وناء بكلّ كل
وضنّ بأسطار كأنّ يراعها أساريع ظبي او مساويك اسحل
ويقرع سمعي من معارض لفظه مداك عروس او صلاية حنظل
وعدنالودّ يملأ القلب عوده بشحم كهدّاب الدمقس المقتل
أعدت صلاح الدين عهد مودة بكل مغار الفتل شدّت بيزبل

فأجابه صديقه صلاح الدين هذا ، وهو ابو الصفاء خليل بن ايبك
الصفدي ، الكاتب المؤرخ الشاعر :

أفي كل يوم منك عتب يسوؤني
وترمي على طول المدى متجنياً
فأمسي بليل طال جنح ظلامه
وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى
تطير شظاياه بصدري كأنها
إذا عاين الاخوان ما بي من الأسى
ترفّق ولا تجزع على فائت الوفا
ولي فيك ودّ طالما قد شدته
ولي خطرات فيك منها جوانحي
فكرّ على جيش الجناية عائداً
وخلّ الجفا وارجع الى معهد الوفا
حلا ودك الماضي وان لم تعد أعد

قد سردنا لك المنظومتين لنريك ان الجماعة كانوا يتلهون بالشعر ويتسلون
به عن الملوك الذين ذهب ذهبهم مع دولهم . وسيطفى بعد هذا سيل
تمادح الشعراء حتى يمسي طوفاناً يلقي بصحراء العبيط بعاعه ... اما الآن
فلندع هذا عائدين الى ابن نباتة فنريك ولو قليلاً جداً من امثلة تعليله
وتوريثه ، قال :

تجاسر عود اللهو يشبه صوتها
فمن اجل هذا اصبح العود يضرب
وكنت اخا سعدى فأصبحت عمها
فهيئات لي جدّ بتقيل خالها
عذلوه على النوال « فأغروا »
« فنداه » نصب على « الاغراء »
ان استلهم العلوم اللسانية بدأ مع المعري . اكثر ابو العلاء من

استخدامه حتى كاد يستعبده الذين جاؤوا بعده كما ترى .
 وكما اشتهرت نونية الحلبي كذلك طار صيت ميمية ابن نباتة لأجل
 هذا البيت :

هناؤه محاذك الغراء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
 واذا سألتني أيها أسبق ، أصفى الدين الحلبي أم ابن نباتة ، قلت لك
 كلاهما مقصّر ، ولكن الحلبي يسبق صاحبه بضع خطوات . . .
 وبعد هذين الشاعرين تظهر في عالم النظم امرأة هي عائشة الباعونية ،
 ولكنها لا تمتّ بنسب الى شاعرات العرب ، ولولا « بديعيتها » ما كانت
 تستحق الذكر .

ثم ظهر بعدها شاعر هو ابن معتوق ففاقها قليلاً وقصر عمن تقدموه
 كثيراً ، وهكذا خلا غاب الأدب العربي من أسده .

يقظة

وصي الجبل

لم يخلُ العالم العربي من « النظم » وان خلا من الشعر . فالنظامون كانوا في كل عصر اكثر من الهم على القلب . فالشعر عندنا كالجبن والزيتون للسفرة . تعودنا ان نهيء الشاعر قبل الوليمة ، فهو من حوائج كل حفلة . فلا بد للزواج من عقد شعري يهدي الى العروسين ، ولا بد للمولود من اقطة شعرية . وحق كل ميت ان يكفن بالشعر ، ثم يختم قبره - بعدئذ - ببلاطة التاريخ الشعري كانت للشعر سوق رائجة ، ولما انسدت الأبواب بوجه الشعراء حوّلوا وجوههم صوب انفسهم فمدح بعضهم بعضاً .

واذا قلنا نام الشعر نومة اهل الكهف ، مئات من السنين ، فلا نعني انه لم يكن هناك من يحسنون توقيع الكلام على مفاعلتين مفاعلتين فعولن ، فقد سمعت هذه الدندنة او الشقشقة - سمّاها كما تشاء - حتى في القسطنطينية ، حول عرش سلاطين بني عثمان الذين لم يعرفوا من لغة الضاد غير حروفها . لقد نام الشعر نوماً عميقاً قروناً ، وما تمطى وتثاوب الا في أخريات القرن الثامن عشر ، حين تنبه العرب واستيقظوا على صراع اوروبا حول ابوابهم في مصر ، وعند اسوار عكا . انفتحت ابواب المسألة الشرقية فانبثنا في اربعة اقطار المسكونة حاملين معنا قيثارتنا وآدابنا .

فهذا الغريب الذي جاء مصر فاتحاً لم يكن يجمله لبنات ، بل عرف

بلاده ، وعرف لسانه حين كان يأخذ منه ويعطيه . تعلمنا لغته وعلّمناه لغة الضاد . و « كراسينا » الجامعة في عواصم الدنيا لا يجهلها التاريخ لأنها ما زالت وطيدة القوائم [أجل كان اللبناني رسول ثقافة بين الشرق والغرب فأنشأ في سفوح جبله وعلى قمم مدارس تعلم لغات الغرب على حقها ، قبل ان صاح الديك الفرنسي فقلبت ثورته وجه المعورة . وكان الذين تعلموا في تلك المدارس تراجمة الاجنبي حين جاء مصر غازياً ، ثم انكفأ عنها بعدما القى فيها بذور علمه ومدننته] .

لا نعني بهذا ان لبنان هو الذي احيا الادب والشعر ، ولكننا نزعم انه هو الذي حاول ايقاظه من رقدته ، وهو الذي طعم الادب العربي ببراعم جديدة فاورقت واثرت على ذاك الجذع القديم . ففي تلك الحقبة الحرساء كان للبنان امير ، وكان لهذا الامير بلاط فيه شعراؤه وادباؤه . وما انتعش الشعر على يد الترك وكرامة ، وناصر اليازجي في لبنان ، حتى كان شاعر آخر يجوب الآفاق ، ويمدح الملوك واشباه الملوك مثل السلطان عبد المجيد ونابوليون وباي تونس ، فيستقدمه « الباي » على دارعة حربية . يظهر ان « بانت سعاد » كانت ميمونة الوجه في كل عصر فبوّأت احمد فارس الشدياق ، نسر لبنان ، اسمى اريكة ادبية . ان كرامة والشدياق واليازجي وغيرهم من اشباههم قد ايقظوا الشعر من غفوته [. فقصر الامير بشير ، على ما في انشاء شعراء بلاطه من ركافة وضعف وتبدّد خيال ، قد أيقظ الاقطار الأخرى . فهذه « الحالّية » قصيدة شاعر القصر - بطرس كرامة - تفنّق قرائح شعراء العالم العربي ، فيعارضها الشاعر الشيخ عبد الباقي العمري الموصلّي ، ويخمّسها الشيخ ابراهيم يحيى العاملي ، والشيخ موسى بن شريف المهدي ، وينتقدها الشيخ صالح التميمي نقداً عنيفاً ، رادّاً على ناظمها بقصيدة هذا مطلعها :

عهدناك تغفو عن مسيء تعدّرا الا فاعفنا عن ردّ شعر تنصّرا
 وهل من مسيحيّ فصيحٍ نعدّه اذا أينع الشعر الفصيح وازهرا
 فيرتفع صوت من باريس هو صوت الكونت رشيد الدحداح منتقداً
 التيميمي ، وينهض صاحب الحاليّة بطرس كرامة مدافعاً عن نفسه
 بقصيدة مطلعها :

لكلّ امرئ شأن تبارك من برا وخصّ بما قد شاء كلاً من الوري
 ولو شاء كان الناس امة واحداً ولم تلق يوماً بينهم قطّ منكرا
 اذا انخط قدر الدرّ من اجل بائع فذلك جهل باللاكي بلا امترا
 كما عاب شعري قائل في قريضه الا فاعفنا عن رد شعر تنصّرا
 عجبت له مع أنه خير فاضل فكيف تغاضى عن اخي الفضل وازدرى
 نعم اني من امة عيسوية واهل كتاب لن يشان ويحقرا
 واقرب من كل الانام مودة اليه كما قد جاءه الذكر مخبرا
 لعمرك ما داعي الفصاحة ملة ولا نسب حتى الأم وأهجرا
 فقسّ مسيحي والسموأل موسوي وغيرهما ممن تقدم أعصرا
 فانبرى للرد على الشيخ صالح التيميمي شاعر عراقي هو السيد عبد الجليل
 البصري فقال معارضاً :

حكمت وحكمي الحق ناءً عن المرا بان التيميمي الاديب تعثّرا
 بذم قوافٍ في تمام جناسها وذلك نوع في « البديع » تقرّرا
 وبما قال راداً على الكلمة الماثورة : أثبت العربية ان تنصرا :
 وقد قام من اهل الكتابين زمرة جنوا من رياض الشعر ما كان مزهرا
 فمن كابن عبّادٍ يجاري مهلهلاً وكان مسيحياً تقدم يشكرا
 وكلا خطل المعروف شاعر تغلب يسوق به القسيس في الدير كالفرّا
 ثم يثني على بطرس كرامة ثناء طيباً حتى يقول :

أتى منه نظم هدّ حجة « صالح » وان كان في المنظوم قدماً تصدراً
وقد كان لي من « صالح » خير صيغة وعند اتباع الحق ما زلت اجدرا
لكلّ تراني قد قضيت بحقه وأسأل بارينا الهدى والتبصراً
كان في كل الاقطار شعراء ككرامة بل ارضن وأمن منه كلاماً ،
ولكنهم لم ينعموا بشهرته وصيته . وانقضى عهد الامير ولكن المجري الادبي
لم ينقطع ، فكانت نهضة عظيمة بالمدارس والصحافة والجمعيات الادبية والتأليف
العلمية الضخمة التي صنفها المعلم بطرس البستاني . واستمر ناصيف ينسج
على منوال القدماء ويتبع آثارهم خطوة خطوة ، فبلغ في التقليد مبلغاً
يحسد عليه ، بينا كان خصمه الادبي يشن الغارة على التقليد في الفارياق ،
وكشف المحجّبا ، والجوائب ، ويكتب بأسلوب جديد ، وهو وان لم يبلغ
في شعره ما بلغه في نثره فقد انعش الشعر نقده العنيف ، اما المعلم بطرس
البستاني فراح يبني صرح العلم حين فاته ان يبرز في الادب فكان مع
رهطه بناء النهضة الحديثة .

لا نزع ان اللبناني كان ذاك « الفطحل » في اللغة ، اذا استثنينا
الشدياق واليازجي الابن ، ولكن اللبناني كان دائماً وابداً رسول تجديد
في الادب ، حتى أنه ليصح في تحديده قول ابن عربي عن نفسه : لقد
حار قلبي قابلاً كل صورة . . . وخلف هذه العصاة عصاة قامت في
مصر ، فبرزت في قول الشعر على نهج القدماء ، فاعاد البارودي وصبري
شباب الشعر العباسي ، ومنها انبثق حافظ ابراهيم واحمد شوقي .

احمر شوقي

ان احمد شوقي هو الشاعر الذي يعنينا امره ، لانه خلاصة « الرؤوس »
وخاتمة الشعر المدرسي - الكلاسيكي - . لا شك ان احمد شوقي رأس ،
وفي هذا الرأس معانٍ من جميع الرؤوس التي تقدّم ذكرها . ففي شعره
رقة البهاء زهير ، وحلاوة ابي نواس ، وفيه من ابي تمام تصيّده المعاني
وأخذها عنوة اذا اقتضى الامر ، وفيه سلاسة بحترية ، وفيه حكم متنبئية
تهالك عليها شوقي ، طمعاً في سيرورة شعره ، كما يقول :

رواة قصائدي فاعجب لشعري بكل محلة يرويه خلق
حول شوقي وجهه شطر التجديد في الشعر فلم يظفر بذلك ، فعاد
اخيراً يعارض جميع « الرؤوس » التي مر ذكرها ، فكان له في كل عرس
قرص . واذا رجعت الى ديوانه أدركت ، دون ان تنبّه ، آثار هذه
المعارضة الصارخة .

عارض الجميع وكاد يجاريهم الا المتنبّي ، فما حاول محاكاته الا قصر
عنه ، ومع ذلك نسّمعه يخاطب السلطان عبد الحميد بقوله :

ملكتم امير المؤمنين ابن هانيء بفضل له الابواب ممتلكات
وما زلتُ حسان المقام ولم تزل تليني وتسري منك لي النفحات
ومن كان مثلي أحمد الوقت لم تجز عليه ، ولو من مثلك ، الصدقات
ولي درر الاخلاق في المدح والهوى وللمتنبي درّة وحصاة

ان احمد شوقي الذي يقدم نفسه على ابي الطيب قد كان يستوحى
هذا الشاعر العظيم كلما نظم ، ويحاكيه حتى في الفخر الذي عابه الناس
على المتنبي ، فقال للسلطان ايضاً :

وانني طير النيل لا طير غيره وما النيل الا من رياضك يحسب
كما قال لاميره :

ان عصراً مولاي فيه المرجى انا فيه القريض والشعراء
قلنا ان في احمد شوقي ملامح من جميع الرؤوس ولكن هذا لا يعني
انه شاعر لا شخصية له ، انما نعني ان همه الأكبر كان في معارضتهم ،
فيعارضهم وكأن لسان حاله يقول : ما قولكم ؟ اما فقتهم ؟ .. قد
كوّن هذا التحدي شاعراً هو شوقي ، فكان شأنه في هذا شأن عنصر
تولد من عنصرين كياويين فجاء منفصلاً عنها وان نشأ منها ، والدليل على
هذا هو انك اذا عرضت على بصير بأساليب الكلام شعراً لشوقي فلا يتردد
ان ينسبه اليه .

واذا صدقنا ما قاله شوقي عن نفسه ان فيه اربعة اصول ، والله در
التطعيم ، قلنا : هذا شاعر أخير يضاف الى سلسلة المستعربين الذهبية .
اما العناصر التي عملت عملها في شاعرية شوقي فمنها : معرفته الفرنسية
والتركية ، وسياحاته ، وتقلبات حياته ، وتطوراتها ، فلو بقي الشاعر
عند اميره لما كان لنا شعره الذي يبقى . فهو في ظروف واحوال شتى
يشبه المتنبي ، ويتشبه به ، ولكنه لم يدركه قط ، وان ادعى انه
فاته .

ولا ننسَ الحوادث العظمى فقد كان لها أثر بيّن في شاعرية شوقي .
فمن امير ينفى ، وشاعر يبعد الى الاندلس فيئن ويحن ويشكو . ويقابل
الشاعر ، في الاندلس ، بين الفردوس المفقود ، وجنته الضائعة ، فيصف

من كبد مقروحة بقايا الملوك العرب مقابلًا حالاً بحال ، فيتذكر النيل
باكياً شاكياً فيقول :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق اذا تلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تؤلّاه على حافاته ورأت عليه ابناءها الغر الميامينا
ومن خلافة تركية اسلامية تتقوض اركانها ، فيبكيها متذكراً عزه ،
وعزّ اميره في ظلها ، ومن وطنية مصرية يجلي في ميدانها ، الى نزع
فرعونية يباهي بها ، الى جامعة اسلامية شرقية يحض عليها ، الى سياسة
محلية يخوض غمارها ، ولكن بجذر كلّي . تعلم هذا الحذر فحذقه يوم
كان في القصر وفي ظل العهد التركي ، فيقول مخاطباً اللورد كارنارفون مطالباً
اياه بأثار توتنخ امون :

سكت فحام حولك كل ظنّ ولو صرّحت لم تثر الظنوننا
يقول الناس في سرّ وجهر وما لك حيلة في المرجفيننا
أمن سرق الخليفة ، وهو حيّ ، يعفّ عن الملوك مكفيننا
الى بلدان يزورها فيكرم فيها ، فيقول شعراً يقضي به الحقوق ،
فيأتي رائعاً لان شوقي يخلص الحب لمن يحله ويحترمه ، ويغضب على من
يمسّ قدس اقداس شعره ، فهو حريص على ابعاد شعره عن حضرة النقد ،
ليظل كأثره في حرم .

كان شوقي قوي الخيلة ، وعينه احدّ من قلبه ، فوثب وثبات استولى
بها على الامد فكان شاعر جيله . كان له في الكتب وحوادث التاريخ
أمراً مرعى ، وكان شاعر الوقت يدعى للمواقف الجلّي ، فاذا استطاع
الوثوب نظم القصيدة واجاب الداعي ، والا طواها واعتذر . اما اذا كان

في مأزق ، وتدجّت على آفاقه مظلمة كان له مخرج منها ومعتصر ، بدقّ
باب الحكمة والاستجارة بالاخلاق وهي جابرة الخواطر عند شوقي . وشوقي
في جميع مواقفه بين بين ، لا يهاجم ، ولا يشن غارة ، فهو كالطائر يعني
اذا طاب له التغريد ، ولكنه حذر دائماً يخاف ان يحصب . واذا ضيّقت
عليه السياسة جذبته رغبته الملتحة الى الوصف . اقرأ هذا الوصف الطريف
تدرك قوة التخيل عنده :

ايها المنتحي بأسوان داراً كالثريا تريد ان تنقّصاً
قف بتلك القصور في اليمّ غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضاً
كعذارى أخفين في الماء بضاً ساجحات به وأبدن بضاً
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضاً
ربّ نقشٍ كأنما نفّض الصانع منه اليدين بالامس نفّضاً
وضحايا تكاد تمشي وترعى لو اصاب من قدرة الله نبضاً
ومحارب كالبروج بلتها عزمات من عزمة الجنّ أمضى
رحم الله جنّ النابغة الذين بنوا تدمر بالصفاح والعمد . . .
يظهر لنا شوقي من خلال شعره انه هادىء الاعصاب ، متّزن الميول ،
وقد يكون في ذلك كالاخطل يوم شيخ فقال :

ولقد اكون لهنّ صاحب لذة حتى تغيّر حالهن وحالي
اما مذهبه في الحياة فيعلنه في قصيدته معتذراً لتخلفه عن اداء فريضة
الحج في معية اميره اذ يقول :

ولا بتّ الا كابن مريم مشفقاً على حسّدي مستغفراً لعداتي
ولا حملت نفس هوى لبلادها كنفسى وفي فعلي وفي نقثاتي
واني ، ولا منّ عليك بطاعة أوجلّ وأغلي في الفروض زكاتي
ابالغ فيها وهي عدل ورحمة ويتركها النسّاك في الخلوات

ولكن النساء ، يا سيدي ، لا يحوزون مالاً فيزكوه ، وان تمولوا
فما هم بنسأك . . . ونهر شوقي هادى غير عجّاج حتى في أخرج أزمات
الدفاع . فهذا اللورد كرومر يخطب شاتماً مصر والمصريين بضع ساعات
يشرب في خلالها زهاء خمسة اباريق من الماء المثلوج ، فيردّ شوقي على أدقّ
قضايا خطاب اللورد بقوله :

من سبّ دين محمد فمحمد متمكّن عند الاله رسولا
الا ترى مثلي ان احمد شوقي في هذا الموقف هو الانكليزي طبعاً ،
لا اللورد كرومر ؟ . .

اما ملخص شوقي الوجداني ، فهو عندي على هذا الترتيب : تركي
مصري مسلم شرقي ، وفي كل زاوية من هذه الزوايا الاربع متسع من
الوعي ينفسح ليدخله الآخرون عند الضرورة . . .

وشاء شوقي ان يكون كالشعراء العالمين الكبار ، فنظم المسرحيات
والاساطير والخرافات كلافتين وهيغو وراسين . اراد ان يكون له
شعر في كل فن ومطلب فما ترك شيئاً فسار في جادة قدماء الشرق والغرب
ولم ينسَ احداً حتى الزمخشري .

لقد نظم شعراء كثيرون قبل شوقي مسرحيات ولكنه وفق اكثر
منهم . لم يوفق التوفيق كله لأن رواياته غنائية اكثر منها تمثيلية ، فهو
ينظر الى الشعر قبل الفن التمثيلي فظهرت شخصيته في كل مسرحياته ،
فكانت صوراً بيانية يتعمدها الشاعر ، وافكاراً فلسفية اجتماعية يتعمد
نظمها ولا يبالي بقائلها ، فلا يهمه ان صح ان تقال بلسان هذا او
بلسان غيره ، والمحادثة وخصوصاً المناجاة تطول جداً ، فتسع كقطع
شعرية رائعة ترتبها ديباجة بحثرية اندلسية ذات الفاظ منتقاة لا تنافر
بينها ، ورنّة موسيقية تطرب لها ، فكان الجيّد من شعر شوقي في هذه

الروايات ، موقع ايقاعاً .

كأنني بشوقي يؤلف هذه المسرحيات وعبد الوهاب ملء خاطره ،
كأنّه كان يتخيله ويتخيل غيره من بلابل النيل يغنونها فيسير مرخياً
زمام قريحته ، ضارباً بشكيمة الفن عرض الحائط . ان لغة الشعر ،
وخصوصاً العربي منه ، لا تصلح للتمثيل فكيف بها حين ينظمها شاعر
كشوقي لا يعنيه الا الشعر ، ينظمه بلسان هذا وتلك فتبدو في وجوه
رجال العصور الاولى سمات ناس القرن العشرين ، فيضطرب الفن لظهورهم
في ذاك الشذوذ الخلقى . فلولا وثبات رائعة فاق بها شوقي شعراء جيله
ودنا بها من كبار القدماء لما كان ذلك « الرأس » الذي نختم به المدرسة
القديمة . ان خط الشعر القديم المصقول قد ختم بشوقي الذي اعاد عهد
الديباجة البحثية ، فطلع وراءه رهط من اصحابنا « المؤجل دفنهم » .
وبعد كل ما قلت فلست ازعم اني درست احمد شوقي درساً اشتبهه ،
ولهذا سبب يعينني اكثر مما يعنى القارىء العزيز ، فليظن خيراً ولا يسأل
عن الخبر .

اما الشعر الجديد ، ومنبعه هذا الجبل ، فجبوران اول من شق الطريق
اليه وعبدها ، فهو زعيم المدرسة الرمزية الرومنطيقية ، وأتباعه منتشرون
في كل قطر من الاقطار العربية حتى الحجازي واليميني منها . لا جدال
في ان اتجاهات الذين تأثروا به قد اختلفت ، وتفاوتوا في الابداع ،
ونهجوا في الشعر نهجاً جديداً لا نستطيع الآن تقدير مداه ومصيره .

والانصاف الادبي يقضي علينا ان نقرّ بما لحّيل مطران من عمل بدائي
في هذا التطور . كان مطران في عهد تقديس القديم حرّ التفكير ، عميق
التحليل ، طريف التصوير ، كما كان محافظاً كصاحبه - شوقي وحافظ -
فحبس قريحته مثلها في قلعة القافية وحصن العروض ، وقيد نفسه باغلال

التعابير الموروثة . فكان رجلاً جديداً في ملابس قديمة . تطور تطوراً
 وصيناً لا طفرة فيه ولا جموح ، فوضع في بنية الشعر الحديث زاوية
 يذكر بها .

اما اسباب ذهاب الشعر العربي في بنيّات الطريق ، زهاء عشرين قرناً ،
 فأهمّها ما احدثك عنه خاتماً به هذا الكتاب ، ولعل فيه عبرة وعظة
 للناسئين .

الشعر بين النافذ والمعلم

لم يفتن الشعر أمة كما فتن العرب ، فكل ذي شفة ولسان قال شعراً حتى ابن خلدون فانه راود ربة الشعر عن نفسها ، فاستبقا الباب ولم يقدّ لها قميصاً . . .

خبرنا مؤرخو الادب ان بيت الشيخ زهير كان محشواً شعراء ، وان 'ولد العم' جرير كلهم قالوا الشعر . كان هؤلاء قطعاً يقارب المئة ، كما بشرنا جرير بهذا النبأ العظيم حين قال لمعاوية بن هشام :

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم لم تحص عدتهم الا بعداد
كلنا ثمانين او زادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قتلت اولادي
كان في كل بيت من الشعّر « فبركة » شعّر ، اللهم زد وبارك !
والسوق تبرد متى غمرتها البضاعة . ومثل هذا النظم الذي لم يعجز عنه ناطق بالضاد يفسد الادب والذرية .

عندي للشعراء الافذاذ برد وسلام لا صواعق من معدّات جرير ، فلولا الشاعر لماتت الآلهة . لولا عمر ما خطرت الثريا ببال ، ولولا المتنبي ما دار ذكر ابي البيضاء على لسان . ولكن الشاعر العظيم ، كما يقول رينان الفيلسوف الفرنسي ، يكلف الطبيعة من المواد الاولى ما لا تكلفه اعظم الحروب ، فلا بد من استهلاك ثلاثين او اربعين مليوناً من شعوبنا الكثيفة الجاهلجم ليكون لنا شاعر من الطراز الاول . هذا على قوله ، اما انا

فذهمتي بريئة من هذه المعصرة او هذا المكبس .

كان لنا في ذلك الزمان شاعر من الوارد الريثاني ، ويكون لنا ايضاً ، ان اتكلنا على الله ، فلا خوف اذن من انقراض هذا النسل الطاهر . ولكن ما الذي جمّد ادبنا وصّيره جليداً ، بل ما الذي ابقى في أنفه الحزيمة ؟ — انه النقد العقيم .

لست اعترف نقادنا القدماء جميعاً ، ففيهم المبدع والمصيب ، وفيهم التابع والجماع ، وخاتمة هؤلاء علامتنا الجليل ابن خلدون . لا ننكر ان لهذا المفكر العظيم اوليّة يقرّ له بها الشرق والغرب ، اما في نقد الشعر وصناعته فكان عبداً للقدماء ، يأخذ عنهم ولا يفكر . كان للشعراء نافذة يأتيهم منها النور والهواء فسدّها عنهم هذا الفاضل ، وقتل الشعر صبراً . قال سبحانه الله :

« كان شيوخنا ، رحمهم الله ، يعيبون شعر ابي بكر بن خفاجة شاعر الاندلس لكثرة معانيه ، وازدحامها في البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعرّي بعدم النسيج على الاساليب العربية ، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر . » (المقدمة ص ٥٧٥)

ان امامنا عبد الرحمن قاس الفن بالباع والذراع ، وتخيّله كالهنداز والقلب ، فحبس الشعراء في صيرة أحاطها بالقندول فقعدوا يجتوون قديمهم كالمعزى في القيولة . لم يخرجوا الا مزاول وقرباً واجربة متكرّسة هريئة . ثم توغّل في مفاوز الارشاد الفنّي حتى جعل للنظم مواقيت كالصلوات ، ووصف للشعراء صفة Régime يأخذون بها في انفسهم ، كما يفعل اطباء اليوم للمصابين بالسكر والزلال والضغط . . . وهو لولا يأتي على ذكر المآكل لحظر البصل لانه يعمي القلب ، واثار بالصعتر لانه يفتح الذهن . . . واليك رأيه في الزمان والمكان اللذين يهبط فيها الوحي على الشعراء :

« ثم لا بد له - اي الشاعر - من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار ، وكذا المسموع لاستثارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بلاذ السرور . ثم مع هذا كله فشرطه ان يكون على جمام ونشاط ، فذلك اجمع له وانشط للقريحة ان تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه . وخير الاوقات لذلك اوقات البكر عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاط الفكر ، وفي هؤلاء الجمام . وربما قالوا ان من بواعثه - اي الشعر - العشق والانتشاء ، فان استصعب عليه ، بعد هذا كله ، فليتركه الى وقت آخر ، ولا يكره نفسه عليه . »

اذن فلا بد للشاعر ، عند ابن خلدون ، من طبل وزمر ، وخمر ونهر ، وبستان وعروس ، وعندي ان من أوتي هذا كله يطلق عروس الشعر ثلاثاً . . .

ولم يقف ابن خلدون عند ذاك الحد بل تعرّض لبنيان بيت الشعر فقال : « وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه بعضها ، وبني الكلام عليها الى آخره ، لانه ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقه . » (المقدمة ٥٧٤)

كأني بالاستاذ قد حسب الشاعر بناء والقافية زاوية ، فلا بد اذن من وضع الزاوية اولاً ليستقيم المدماك ، ويشدّ بعضه بعضاً .

كان النقد العربي في اوله ، يوم كان كلمات جامعة ، خيراً من آخره . كان موكلاً بالذوق حتى جاء المتأخرون بشرائعهم فصيروا الشاعر عبداً لا ينفع . فالكلمات التي قالها الرواة والاعراب ، اجمع وانفع من كتب المتأخرين التي شدّت الزيار على الشاعر واقتادته بخناق . لم يقل الرواة والاعراب للشاعر انظم وقت كذا ، ولم يتعرضوا لفراغ المعدة وامتلأها ، اما اعلامنا المتأخرون كابن رشيق وابن خلدون فامتد سلطانهم

حتى علموه كيف يمدح ، وكيف يهجو ، وكيف يتغزل ، بل قل كيف يبكي ويضحك . . . وهكذا وضع دستور شعر « غبّ الطلب » .

اسمع نقد بدوي في ذلك الزمان . جاء في زهر الآداب ، قال بعض الرواة : افضنا في ذكر الاصمعي فقال راويته ابو نصر : رحم الله الاصمعي ، انه معدن حكم ، وبحر علم ، غير انه لم ير مثل اعرابي وقف بيننا فسلم وقال : أيكم الاصمعي ؟ فقال : انا ذاك . فقال : اتأذنون بالجلوس ؟ فأذنّا له وعجبنا من حسن ادبه مع جفاء الاعراب .

قال : يا اصمعي ، انت الذي يزعم هؤلاء النفر انك أثق بهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الاعراب ؟ قال الاصمعي : فيهم من هو أعلم ، وفيهم من هو دوني . قال : افلا تنشدني من شعر اهل الحضرة حتى أقتدي به على شعراء اصحابنا ؟ فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :
أمسلم انت البحر ان جاء وارد وليث اذا ما الحرب طار عقابها
وانت كسيف الهندواني ان غدت حوادث من حرب يعبّ عباها
قال فتبسم الاعرابي وهز رأسه ، فظننا ان ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم قال : يا اصمعي ، هذا شعر مهلهل ، خلق النسيج ، خطاه اكثر من صوابه ، يغطي عيوبه حسن الروي ورواية المنشد . يشبهون الملك بالاسد ، والأسد انجر ، شئم المنظر ، وربما طرده شزيمة من امائنا ، وتلاعب به صياننا . ويشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه وعلى من شربه ، وبالسيف والسيف ربما خان في الحقيقة ونبا عند الضريبة .

وروى صاحب الاغانى عن حماد : استنشدني جعفر ابن ابي جعفر المنصور المعروف بابن الكردية لجرير فأنشدته : بان الخليل برامتين فودّعوا . ولما انتهت الى قوله :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلاً هزئت بغيرنا يا بوزع

قال لي : أعد هذا البيت . فأعدته . فقال : بوزع أي شيء هو ؟
قلت : اسم امرأة . قال : امرأة اسمها بوزع ! انا بريء من الله ورسوله ،
ونفي من العباس بن عبد المطلب ان كانت بوزع الا غولاً من الغيلان .
تركتني ، والله ، يا هذا ، لا انام الليلة من فزع بوزع . يا غلمان ،
كفاه . فصفت والله حتى لم ادر اين انا . ثم قال : جرّوا برجله .
فجرّوا برجلي حتى خرجت من بين يديه مسحوباً . . .

فما أسطع هاتيك الومضات النيرة ، وما اقلّ خير تلك المجلدات
الضخمة التي صنفوها بعدم ليجعلوها اصولاً للفن ! ان العلم لا يعمل
شاعراً . فمعلم التشريح يعرف المواد التي يتوكل منها الجسم وقد يجدها ،
ولكنه لا يقدر على خلق بهلول واحد .

قال تولستوي : ان المدارس لا تعلّم الفن ، فالاساتذة يؤثرون شاعراً
يروضون تلاميذهم على نمطه واسلوبه فيخرجونهم مقلدين . وهذا ما فعله
نقادنا المتأخرون فصيروا الشعر علماً بأصول ، وقالوا للشاعر كن
كالقدماء حذوك النعل بالنعل — هذا من تعابيرهم — فابتلونا بهذا السل
الادبي . ان الشاعر لا يعلم كيف ينظم ولا اين ومتى ، فالشاعر الحق
يقول شعراً في جهنم ، والشعرور يقرزم في الجنة تحت أجنحة الكارويم
وعلى نهاليل الساروفيم .

هذه حقيقة يجب ان يعلمها شبابنا ، فجدور المستقبل تمتد في الحاضر .
اذكروا قول ابي العتاهية : روائح الجنة في الشباب ، فانفحونا بروائحكم
الطيبة لتنتعل .

قد تقولون هكذا تعلمنا وبهذا نحمل الشهادات العالية . وانا اقول
لكم ليست الشهادة ، مهما كبرت ، غير مفتاح باب الثقافة والفن . ان

لم تفكروا وتريدوا تبقوا خارجاً كعذارى الانجيل الجاهلات . واذا كان سلاحكم هذه الدروس التي تستظهرونها فالغد مظلم قائم . ان تقديس القديم طبع في الشيوخ فأين ثورات الشباب ؟ دعوا الدراسات والمذكرات للخمسين والستين ، اما العشرون والثلاثون فللخلق والابداع .

قد درستم ، ولا ريب ، فصل الارادة درساً عميقاً وحفظتموه كالماء الجاري ، ولولا ذلك ما صرتم فلاسفة أما علمكم علم النفس ان كل بديع وجديد من فعل الارادة ؟ يريد المرء فيخلق نماذج جديدة ، فلماذا لا تريدون ؟ الارادة تصيّر الفعل الآلي والعادي فعلاً تأملياً مقصوداً ، فتفرغه في قالب جديد طريف ، فأريدوا وتأملوا . الارادة ، كما علموكم ، تسيّر الحركات والتصورات كما يقتضي الزمن والاحوال ، فلماذا لا تقرأون في كتب الحياة ؟ لماذا لا تستوحون الظروف والاحوال بدلاً من تدارس مواضيع مبتذلة اورثتكم اياها المدارس ؟ دعوا « العادة » العمياء فهي بنت المدرسة وأم كل مبتذل . طيروا باجنحة الارادة الى الآفاق البعيدة . اريدوا تخلقوا الطريف الجديد . لم يفسد الشعر العربي الا نسج نوابغه على منوال واحد ، فلا تقولوا : نبني كما كانت اوائلنا تبني اننا نتوقع ،

كل ساعة ، ان ندعى الى مادبكم الحافلة بالطيبات ، فأعدّوا لنا كل شيء . ان اذكى ما خلق الله هاتيك الجدة التي يسمونها حواء . كانت ، نفعتنا الله بدهائها ، من ذوات الارادة الفولاذية ، فعقدت الف صلة وصلة مع المخلوقات الفردوسية ، قبل ان يزول عن الشيخ آدم خطر العملية الجراحية الأولى يوم استلّت ضلع من اضلاعه وسدّ مكانها بلحم . أيقظت ارادة حواء الجنة الغافية . ولو لم « تود » تلك النبية لظل الانسان في الفردوس تكلة حكمة ، وعاش الابناء والاحفاد آكلين شاربين ، ولم يدرکوا سرّاً واحداً من الاسرار التي خبأها الله في احشاء امهم . ان

نقطة من عرق الجبين الانساني خلقت الف فردوس ، وستخلق كل يوم ما دام الانسان مريداً .

قد حان للوثنية الأدبية ان تتواري ، فالفن لا يعرف غير اله واحد هو الجمال . فاجثوا عنه . اذا كان يستطيع تبديل حياة النبات بتبديل الاضواء والانوار ، افلا يستطيع مصباح أديسون ان يبدل شعرنا المعمول على ضوء مصباح امرئ القيس ذي الذبال المقتل !

لقد عشنا عشرين قرناً وعيوننا في ظهورنا ، فلننظر الى الامام . ان ثقافتنا لفي خطر ، وستهوي اذا لم تتداركها يد جبارة فتنزعها من فم اللجة التي تجذبها اليها ، ومن لها غير سواعد الشباب ؟ اريدوا ، ايها الشباب ، تفلحوا . لا يتبع بعضكم بعضاً فتشيخوا قبل الاوان .

تشرين الثاني سنة ١٩٤٥

[اشكر صديقي الاستاذ مصطفى محمود دمشقية اطيب الشكر ، فقد لاقى عناء شديداً في الاشراف علي ضبط هذا الكتاب ، والكتب التي تقدمته . واذا قلت آجره الله فما أعدو الحق ، فقد كان من سهوي ، ومن كلاله حروف الآلة الكاتبة ، في جهد جهيد .]

٢٤٨	.	.	.	.	.	.	بعد الفراغ
٢٥٣	.	.	.	.	.	.	نواحي شعر المتنبي
٢٦١	.	.	.	.	.	.	منابع شاعريته
٢٧١	.	.	.	.	.	.	عناصر متنبئية
٢٧٧	.	.	.	.	.	.	بعر المتنبي
٢٧٨	.	.	.	.	.	.	الشريف الرضي
٢٩١	.	.	.	.	.	.	الموشحات
٢٩٦	.	.	.	.	.	.	ابن الفارض
٣٠٠	.	.	.	.	.	.	بهاء الدين زهير
٣٠٨	.	.	.	.	.	.	رؤوس صغيرة
٣١٥	.	.	.	.	.	.	بقية
٣١٦	.	.	.	.	.	.	وحي الجبل
٣٢٠	.	.	.	.	.	.	احمد شوقي
٣٢٧	.	.	.	.	.	.	الشعر بين الناقد والمعلم

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

شركة الطبع والنشر ، بيروت

في ٢٩ نيسان ١٩٤٦.

[بید خلیل رفیق سرگیزی؟]

فاذا ما رأيت صورة انطا

کبة ارتعابه دوم درس

دلمای موائ دانوستر

دان نرجی الصفوف تحت الدرس

فراخوار من الالب علی اصغر -

کتبان ن صنفه درس

در آن ارجال بین یه

فی خفوة صفر و غماض و

من متبع یروی بابل مع

و یلع من السنان بتر

تلف السی انهم جد اصداد -

لهم منیر ان روق

یغتبی ~~نعم~~ نیرم ایشای حتی

تقرأهم بهای

A.U.B. LIBRARY

892.71:A1314rA:c.1

عبود، مارون

الرؤوس

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01064653

